مجلة

الشؤون الاجتماعية

تصدر شهريا

(بالمجان)

مدير التحرير : حسن الشريف : تليفون ٨٥٣١٢

فهرس العدد

		صفحة
التناسق فى الاتجاهات العامة	على جمال الدين باشا	٣
اتجاهات جديدة	محمد حافظ رمضان باشا	٨
المتخصص الاجتماعى فى معركة الاصلاح	محمد العشماوى بك	١٣
مشكلة المشرع	حسيب المصرى باشا	١٨
أهمية المعارض اقتصاديا واجتماعيا	فؤاد أباظه باشا	٣٠
الحياة الاجتماعية فى مصر	الدكتور محمد عبد المنعم رياض بك	٣٦
الأسرة كوحدة اجتماعية	عبد الله در الجمال باشا	٤٧
النشاط المدرسى	محمد فهيم بك	٥٢
تنظيم أوقات الفراغ	حسين رمزى بك	٥٨
عوائق تقدم الفنون الجميلة	أحمد شفيق زاهر بك	٦٢
كيف نستغل غلاتنا الزراعية	الأستاذ حسين عارف	٦٦
هل نحن متحضرون ؟	الأستاذ سيد قطب	٧١
شؤون العمال (كلمة)	الأستاذ محمد بكرى	٧٦
الصحة النفسية	الأستاذ سلامة موسى	٧٨
قاسم أمين ومكانة المرأة	الأستاذ محمد لطفى جمعه	٨٤
بين القول والعمل	الأستاذ سليمان نوار	٩١
أرقام معبرة	الاستاذ س . ق	٩٦
فى مصر أزمة أمهات		١٠٢
دراسة السير والشخصيات	الأستاذ س	١٠٧
الأدب فى خدمة المجتمع	الأستاذ س . م	١١٢
أحاديثنا العامة		١١٧

التناسق فى الاتجاهات العامة

ضرورى لتناسق الحياة

لحضرة صاحب السعادة على جمال الدين باشا

تبدو فى حياتنا العامة وفى تشريعاتنا وتصرفاتنا مفارقات لارابطة بينها تؤدى بطبيعتها إلى الارتباك فى نموها الاجتماعى والاقتصادى والعقلى والاختلال فى اتجاهاتنا الحيوية كالجهاز الذى يسير كل جزء منه فى اتجاه مضاد أو غير منسجم مع اتجاه الأجزاء الأخرى . ويرجع ذلك إلى أسباب منها :

(أولا) سياسة الارتجال التى نسير عليها حتى فى أعظم الشؤون ، ونواجه بها الطوارئ عند تحولها إلى أزمة لا قبل ذلك ، فلا تعود لدينا الفرصة الكافية للتفكير السليم ، وعندئذ نلجأ إلى أقرب الحلول ، ونواجه كل مشكلة على حدة ، فلا نعنى ولا نستطيع أن نعنى بالتناسق والانسجام بين هذه الحلول .

(ثانيا) سياسة النقل عن الشعوب الأخرى التى تختلف ظروفها عن ظروفنا — وبخاصة فى الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية — ويالينا حين ننقل عن هذه الأمم نلاحظ التطور التاريخى للتشريع أو للإجراء الذى ننقله ، أو نحاول تطبيقه على تشريعاتنا وإجراءاتنا الراهنة وتحقيق التناسق بين الموجود والمنقول ، حتى لايقع الاصطدام بينهما بعد خطوات .

وتحضرنى بهذه المناسبة عدة أمثلة لهذه المفارقات أستعرضها فيما يلى :

المثال الأول : علاوة الغلاء التى قررت لبعض الموظفين وحرم منها بعضهم على أساس الزواج وعدد الأولاد . فقد سمع بعض من كان بيدهم تقرير هذه العلاوة أن بعض الأمم الأوربية تعنى بالأسرة وتشجع عليها وتفرض الضرائب على العزاب لتشجع بها المتزوجين وذوى الأولاد ، فآثروا أن يأخذوا بهذا الاتجاه فى تقرير علاوة الغلاء ؛ وشجعهم على هذا استحسان بعض الكتاب هنا لهذه الخطة من المفتونين بكل جديد ولو لم يتفق مع ظروفنا الخاصة . ونسى هؤلاء وهؤلاء أن لمصر ظروفا تختلف عن ظروف تلك الأمم . ظروفا اقتصادية واجتماعية وتاريخية يستحيل إغفالها .

فما الذى أراده هؤلاء وهؤلاء من تقرير العلاوة للمتزوجين وحدهم وذوى الأبناء ؟ هل أرادوا التشجيع على الإكثار من النسل ؟ هل أرادوا الحض على الزواج ؟ هل أرادوا عقوبة الذين لم يتزوجوا ولم يلدوا ؟ .

إن بعض الأمم تحاول الاكثار من النسل إما لأنها ذات نزعة دكتاتورية تحاول الفتح والغصب ، فتعد نفسها للحرب وتكثر من الجنود والعمال ستعدادا لليوم الموعود كما صنعت ألمانيا وإيطاليا واليابان . وإما أنها دول استعمارية ذات مستعمرات شاسعة تريد لها مستعمرين من أبنائها فهى تشجع على الاكثار من النسل لأداء هذه الوظيفة كما تصنع انجلترا . وإما أنها دول يتناقص عدد سكانها ويهددها هذا التناقص بالفشل فى الصراع العالمى كما حدث لفرنسا ، فهى تشجع النسل الآن للتفادى من تكرار الكارثة .

ومصر ليست دولة ديكتاتورية ولا مطامع لها . وليست دولة استعمارية ذات أملاك مترامية الأطراف . وليست دولة يتناقص تعدادها وتزيد رقعتها على سكانها .

بل إن مصر على العكس من ذلك كله يتزايد سكانها بنسبة مروعة لا تتفق مع ازدياد الثروة ، وقد كتب الدكتور "كليلاند" بحثا دقيقا إثبت فيه أن موارد مصر لا تتسع لأكثر من اثنى عشر مليونا من السكان يعيشون عيشة معقولة وأن هناك أربعة ملايين زائدين عن طاقة مصر الاقتصادية وأن من الواجب المحافظة على تعداد معين للسكان بأية وسيلة من الوسائل .

وهذا كله من ناحية واحدة أما الناحية الأخرى فهى وضع الأسرة الاجتماعى والتاريخى والدينى فى مصر . فنظام العائل الواحد غير موجود فى الأسرة الأوربية إذ يتعدد العائلون فى الأسرة الواحدة ، ولا يلزم عائل واحد بالانفاق على الأقارب إلا فى دائرة محدودة ، بينما يلزم العائل المصرى بالانفاق على الأخوة والأخوات والوالد والوالدة والجدوالجدة والعم والعمة والخال والخالة ... إلى آخر هذه الشبكة من الأقارب . يلزمه بذلك العرف الاجتماعى والوراثة التاريخية ، كما يلزمه الدين والتشريع !

وعجيب ممن يقررون علاوة الغلاء للمتزوجين وذوى الأبناء وحدهم أن يغفلوا هذا كله . عجيب ألا يعلموا أن معظم الشبان الذين لا يتزوجون إنما هم جنود مجهولون يضحون بلذتهم وسعادتهم لكفالة أقارب وقريبات فليس من العدل فرض عقوبة جديدة عليهم بحرمانهم من العلاوة . عجيب ألا يعلموا أن قانون الأحوال الشخصية يلزمهم بالانفاق على أقاربهم ويخول لهؤلاء أن يتقدموا إلى القضاء طالبين تقرير نفقة لهم بحكم القانون فيقررها !

وكان المطرب لايجاد التناسق العام بين التشريعات أن يلغى هذا النص من قانون الأحوال الشخصية على الأقل ! إذا لم يستطع المسؤلون أن يلغوا الأوضاع الاجتماعية والوراثة التاريخية . وكان مطربا من أولئك الكتاب المفتونين بكل جديد أن يفكروا فى جميع هذه الظروف . ولكن الجميع فتنوا بالظواهر وغرهم البريق فكانت هذه المفارقة العجيبة التى يجب العمل على إزالتها .

المثال الثانى : تنفق خزانة الدولة مبالغ طائلة على شق شوارع جديدة فى العاصمة وسواها من المدن تارة بقصد التجميل وتارة بقصد التنفيس عن الأحياء المكتظة وإدخال الشمس والهواء إلى الجهات المتراكمة المبانى المحبوسة الهواء وتارة لتسهيل حركة المرور وذلك كله طبيعى ومفهوم ومن واجب السلطات أن تقوم به ضمانا للصحة العامة وتربية للذوق وتنسيقا للمدن وتنظيما للمواصلات .

ولكن هذه السلطات نفسها تترك أحياء جديدة تنشأ ضيقة المسالك مكتظة المبانى محتبسة الهواء مسدودة المنافذ كالتى هدمتها من قبل وأنفقت على هدمها وشق الطرقات فيما بينها مبالغ باهظة !

ومثل ذلك ما تصنعه من هدم بعض الأكواخ والعشش التى تؤوى كثيرا من الطبقات المنحطة وتعد مباءة للمرض والجريمة، ثم تدع سواها ينشأ فى جهات أخرى على نفس النظام وبنفس القذارة ولنفس الأغراض .

ثم تتكرر النفقات حين يبدو لهذه السلطات أن تهدم ما بنى من جديد وأن تشق شوارع فى الأحياء التى نشأت على النسق القديم وهكذا كالساقية الدائبة الدوران !

ولا شك فى أن هذا إسراف منشؤه عدم وجود سياسة ثابتة للهدم والبناء، وعدم وضع تصميم أساسى لكل مدينة يلزم السكان بالمحافظة عليه فى كل ما يبنون، والمحافظة على الطراز الذى يختار لكل مدينة حتى لا تقع الفوضى فى العمارة، تلك الفوضى التى نشاهدها فى القاهرة فتذكرنا بفوضى الأزياء، ولا سيما فى الشوارع التى أنشئت حديثا كشارع فاروق وشارع الخليج بعد توسيع بعض أجزائه .

إن العمارة تعبير عن شخصية الشعب، فهل من يدلنا على شخصية الشعب المصرى فى عمائره ومبانيه ؟ أهو شعب فرعونى أم عربى أم تركى أم فارسى أم أوربى أم أمريكى ؟

لو أردنا أن نستخلص شخصية الشعب المصرى من عمارته لوجدناها شخصية ضائعة لا خصائص لها ولا مميزات كالأزياء المختلفة التى نشكو منها وليست وحدها موضع الشكوى فلا فرق فى الحقيقة بين الأزياء فى الملابس والأزياء فى العمارة ، فكل فوضى فيها دليل على فوضى فى الشخصية وفى القومية، بل دليل على الانحلال !

ولا حيلة لنا فيما مضى ، ولكننا — ولا شك — نملك أمر المستقبل حين نريد أن نسيطر عليه ، فمن الواجب أن تقوم هيئة تسيطر على تخطيط المدن وتخطيط القرى الحديثة كالتى اقترحها الأستاذ مريت بك بطرس غالى فى كتابه " سياسة الغد " باسم " المعهد الوطنى للبناء والتجديد " تكون مهمته كما حددها هى : (أولا) البحث العام فى شئون المسكن الريفى والمدنى ، (ثانيا) درس المسائل الاجتماعية المتعلقة بها ، (ثالثا) وضع

مشروعات البناء والتخطيط فى المدن والقرى والمراكز الصناعية ، (رابعا) القيام بعملية البناء والتجديد ، (خامسا) الرقابة على المساكن الجديدة والمجددة والقديمة بوجه عام ، (سادسا) إدارة العمارات والمساكن المخصصة للعمال والطبقات غير المتيسرة فى المدن والمراكز الصناعية.

فإذا لم يتم ذلك فلا أقل من وجود هيئة حكومية تنفذ قانونا يوضع للمبانى التى تنشأ حديثا فى كل حى من الأحياء كما يقترح الدكتور حافظ عفيفى باشا فى كتابه " على هامش السياسة " إذ يرى : أن تعدل جميع القوانين الخاصة بتخطيط المدن أو بنزع الملكية بحيث تتسع القوانين الجديدة لتطبيق جميع الأساليب والمبادئ الحديثة التى تأخذ بها جميع البلاد المتمدنة فى هذا الشأن سواء أكانت خاصة بعرض الشوارع تسهيلا للمرور أو توفيرا للضوء والشمس أم كانت خاصة بالحد الأقصى لارتفاع المنازل التى تبنى عليها . مع ضرورة إشراف مصلحة حكومية مختصة على رسوم هذه المبانى للتأكد من استيفائها لجميع الشرائط الصحية. إلى غير ذلك مما تشترطه الآن جميع البلاد فى مثل هذه الحالة من الشروط . كذلك يجب أن يشمل هذ القانون القيود اللازمة لاشتراط طراز معين لواجهة المنازل التى تبنى فى ميدان أو شارع بالذات . والغرض من هذا هو ضرورة الاحتفاظ بشخصية مدننا وعدم تحولها بسرعة إلى قرى أجنبية فقيرة فى ذوقها وفى طراز مبانيها ، وأن تحتفظ إدارة المدينة بحقها فى تخصيص مناطق السكن الهادئ الذى يحرم فيه بناء الأسواق والدكاكين والمناطق الأخرى التى تخصص للتجارة والتى يصرح فيها بفتح المحلات التجارية . كذلك يجب أن تشترط نسبة معينة لما يجب أن يبنى من الأرض وما يجب أن يترك فيها فضاء لإدخال الهواء والشمس . وهذا شرط أساسى يجب أن يراعى فى مناطق المنازل الصغيرة (الفيلات) وفى مناطق المبانى العالية ذات الشقق الكثيرة التى يجب أن تكون لها منافذ على واجهات أربع وهو ما لايراعى الآن .

المثال الثالث : فى المشكلة الخالدة التى تتجدد كل عام عند بدء العام الدراسى ، وقوامها أن التلاميذ الحاصلين على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية لا يجدون لهم مقاعد فى المرحلة الثانية سواء كانت فى المدارس الثانوية أو المدارس الصناعية والفنية . وأن الطلبة الحاصلين على شهادة إتمام الدراسة الثانوية لا يجدون لهم مقاعد فى الجامعة أو لا يجدون لهم مقاعد فى الكليات التى أعدوا أنفسهم لها فيما يسمى " السنة التوجيهية " .

وليست هذه مشكلة حديثة فهى تتجدد فى كل عام منذ أكثر من خمس عشرة سنة . أى منذ أن أصبحت سياسة التعليم فى أيد مصرية — وهذا ما يؤسف له — وتدخلت عدة أسباب فى هذه الفوضى التى لايعلم إلا الله متى تقف عند حد ، وكان السبب الرئيسى فيها أن ليست للتعليم سياسة ثابتة وأن المدارس تنشأ حسب الضغط الوقتى كل عام بدون احتياط للعاقبة وبدون نظر إلى مستقبل من ستخرجهم هذه المدارس وأين يذهبون بعد إنهاء دراستهم فيها.

ومن هنا نسمع فى كل سنة أن كليات الجامعة تشترط تارة نسبة خاصة من الدرجات تحرم من لم يحصلوا عليها أن يتموا تعليمهم فيها، وتارة تقتصر على عدد معين من الحاصلين على هذه الدرجات لأن معاملها لا تتسع لسواهم وتارة تفكر فى رفع قيمة المصروفات تضييقا لدائرة من يتقدمون اليها.

والعلة واحدة وهى الارتجال وعدم التناسق بين سعة معاهد كل مرحلة بالقياس إلى سعة معاهد المرحلة التالية، وتوزيع الميزانية توزيعا عادلا متناسبا بين هذه المراحل جميعا.

ولا نريد أن نتحدث عن سياسة الارتجال فى برامج التعليم وفى شؤون البعثات العلمية وفى كل مسائل التعليم فقد يستطيع مجلس التعليم الأعلى أن يعنى بهذه المسائل جميعا، وأن يعمل على تنسيقها وتحقيق الانسجام فيها، فلا يقتصر على بحث كل مشكلة بمفردها، إذ أن بحث هذه المشاكل على هذه الصورة تستطيع أن تقوم به هيئة فى وزارة المعارف كهيئة البحوث الفنية مثلا. وإنما وظيفة مجلس التعليم الأعلى أن يكفل التناسق والانسجام بين الاتجاهات العامة والسياسة العليا للتعليم.

* * *

هذه نماذج ثلاثة لانعدام التناسق فى الاتجاهات العامة، ولو شئنا أن نمضى فى سرد النماذج لوجدناها فى كل عمل وفى كل مكان، ولاستطعنا أن نتحدث عن مظاهرها فيما هو أخطر من الأعمال، وأقرب الأمثلة هو عدم التناسق بين سياسة الرى والصرف وبين سياسة الشئون الصحية فى البلاد إذ أن الأمراض المتوطنة قد سارت فى أثر الرى الدائم ولم يبد أى تعاون بين المشرفين على الرى وبين المشرفين على الصحة للحيلولة دون هذا الأثر الملازم. ومثال آخر فى انعدام التناسق بين أعمال الرى والصرف وأثرهما فى التربة وبين أعمال الانتاج الزراعى فقد تبين أن سبق أعمال الرى لأعمال الصرف كان سببا فى تشبع التربة بالمياه الجوفية وتناقص غلتها، ولم يبد إلى الآن مايدل على التعاون بين الفنيين فى الرى والصرف وبين الفنيين فى الزراعة والإكثار لمقاومة هذا الأثر الخطير.

ولا نريد أن نمضى فى تعديد النماذج فذلك شىء يطول شرحه، فنكتفى بمعالجة هذه الحال ونجمل فى طريقة العلاج فنحصرها فى أمرين اثنين :

الأول : وضع سياسة ثابتة لفترة من الزمان كمشروع السنوات الخمس الذى أخذت به أمم كثيرة بحيث يشمل حاجة البلاد كلها فى خلال هذه السنوات. وبحيث تشترك فى تنسيقه النهائى هيئة مؤلفة من جميع الوزارات وجميع الخبراء الخارجيين، فلا تقع المفارقات العجيبة بين الأعمال العامة المختلفة.

الثانى : أن نرتفع فى تنفيذ هذا المشروع عن الروح الحزبية فلا يهدم كل حزب ما بدأه الحزب الآخر، فالوطن باق والأحزاب فانية، وعلى كل من يتولى الحكم أن يحسن الظن بمن سبقه وبمن سيتلوه فالجميع مصريون ومصر خالدة وهم راحلون.

على جمال الدين

اتجاهات جديدة
فى تحقيق التضامن الاجتماعى

لحضرة صاحب السعادة محمد حافظ رمضان باشا

التضامن الاجتماعى بين الطبقات و بين الأفراد ، بين المتمتعين والمحرومين ، بين أصحاب رءوس الأموال والعمال ، هو سمة العصر الحديث فى العالم ، تلك السمة التى تميزه عما سبقه من العصور . فهو العصر الذى تمت فيه قوانين العمل على اختلافها والضمانات الاجتماعية للطبقات العاملة وهى كثيرة ، وهو العصر لدى عظمت فيه " الخدمات الاجتماعية " على تنوعها وشمول تجاهاتها لكل من يحتاج اليها ، وهو العصر لدى أخذت فيه معظم الأمم بسياسة الضرائب المتدرجة لاعفاء الفقراء والتخفيف عن الأوساط و إشراك الأثرياء بحسب ثرائهم فى تكاليف الخدمات العامة و الخاصة .

ولم تبق أمة متخلفة فى هـذا الاتجاه سوى مصر ، التى ماتزال تأخذ من الفقير لتعطى الغنى ، وتجبر المحتاج على مساعدة المستغنى ، وأقرب الأمثلة على ذلك هذان الريالان اللذان تقررت زيادتهما لكل قنطار من القطن عن طريق زيادة الضريبة على الموظفين . فلقد كان هذا تطبيقا صريحا لهذه الخطة العجيبة ، وكانت النتيجة أن ينعم كبار الملاك بهذين الريالين وأن ينتزعوهما من بين فكى الأطفال الذين يعولهم صغار الموظفين ومتوسطوهم !

وأول إجراء يدل على أن مصر قد بدأت تستيقظ وتتجه الاتجاه العصرى ماقررته الحكومة أخيرا من شراء اردب القمح بثلاثمائة قرش واردب الذرة بمائتى قرش و بيعهما للمستهلكين بالسعر الذى حددته التسعيرة ، وتحميل الخزانة الفرق بين السعرين وهو يبلغ حوالى مليون من الجنيهات . ونحن نعد هـذا أول اتجاه الى التضامن و إن كانت خزائن كبار الزراع والتجار هى التى ستنتفع بفرق السعرين الذى تحتمله الخزانة العامة بدون مقابل لها من مورد آخر .

وكان الإجراء الثانى هو جعل الحد الأدنى لأجور العمال الزراعيين فى مزارع الحكومة خمسة قروش يوميا ، ومناشدة الدوائر والتفاتيش وكبار الملاك أن يحذوا حذوها فى ذلك ، رحمة بالفلاح الأجير الذى ارتفع كل شىء فى مصر إلا أجره الضئيل .

وكلا الإجراءين يعد خطوة فى سبيل التضامن الإجتماعى يحسن تسجيلها كأول علامة على الاتجاه الجديد ، وأول دليل على أن مصر بدأت تستيقظ وتفتح عينيها للنور ، وتعيش فى العصر الحاضر أو تحاول على الأقل أن تعيش .

إلا أن إنصاف الخزانة والحكومة يقتضى أن ننبه إلى ما بعد هذا الاتجاه ، وأن نشير إلى الوسائل التى تكفل إمكان النهوض بهذا العبء الذى أخذت الحكومة به نفسها وأخذت به الخزانة العامة فى هذه الظروف الاستثنائية العويصة .

إن موارد الخزانة محدودة، والمطلوب منها كثير. و إذا كانت الأشهر القليلة الباقية من السنة قد كلفتها مليونا من الجنيهات لضمان تغذية الشعب بالحبوب وحدها ؛ فكم يكلفها الموسم القادم كله ؟ وكم يكلفها التوسع فى تيسير وسائل الحياة للفقراء فى السلع الأخرى ؟

إن أسعار الحبوب وغير الحبوب من الضروريات قد بلغت حدّا من الارتفاع لا يتفق مع أجور العمال الزراعيين والصناعيين كذلك . ولا يتفق مع المرتبات الصغيرة على الرغم من علاوة الغلاء التى منحت حتى اليوم لبعض طبقات الموظفين . وهذه الأسعار دائمة الصعود بسبب عوامل مصطنعة، وعوامل طبيعية. و إذا جاز لنا أن نؤمل فى القضاء على العوامل المصطنعة فإن العوامل الطبيعية لا حيلة لنا فيها ولا مفر من مواجهتها .

وقد اتضح من تجارب الحرب الماضية والحرب الحالية أن منح علاوة الغلاء لا يكفى لايجاد التوازن بين دخل الأفراد و بين نفقاتهم لعدّة أسباب :

منها أن التجار يرفعون الأسعار كلما ارتفعت العلاوة . بل يرفعونها بنسبة أعلى من نسبة العلاوة . ولا يزال نظام التسعير غير كاف لردع الجشعين الذين يتكونون الحيل للتخلص من هذا النظام، ويسبقون السلطات دائما فى الاهتداء إلى الحيلة المناسبة والانتفاع بها مدة من الزمن حتى تهتدى السلطات إلى كشفها ومحاربتها ؛ وفى هذه الأثناء يهتدون إلى حيل أخرى ... وهكذا .

ومنها أن العلاوة لا تشمل غير الموظفين فى الحكومة و بعض دوائر العمل التى تخضع لنظام الحكومة ، وهؤلاء أقلية بالقياس إلى مجموع الشعب الذى يعيش بوسائل أخرى غير المرتبات والأجور الثابتة . ومهما تأثرت دوائر العمل الأخرى بارتفاع الأجور الحكومية واضطرت إلى مجاراة هذا الارتفاع فى معاملة موظفيها وعمالها فان هذا التأثر لا يكفى لرفع هذه الأجور بالنسبة الكافية .

ومنها أن العلو فى منح العلاوات لمواجهة الغلاء الفاحش يفتح الباب للتضخم من عدّة وجوه : إذ يضطر الخزانة لتحمل أعباء كبيرة لا يكافئها رصيدها فتكثر من إصدار الأوراق النقدية . هذه الأوراق التى تسقط قيمتها وتضعف مقدرتها على الشراء فيتحقق التضخم النقدى المكروه .

و إذا كانت التجارب قد دلت على خطر الأخذ بنظام العلاوات الاستثنائية إلا فى حدود ضيقة — فقد دلت كذلك على صلاحية الأخذ بنظام آخر هو الذى اتبعته الحكومة الانجليزية، وهو شراء المواد الضرورية بأسعارها فى السوق و بيعها للمستهلكين بسعر يناسب الطبقات الفقيرة مع تحمل الفرق بين السعرين . هذا الفرق الذى بلغ فى العام الماضى ثمانين مليونا من الجنيهات . وهذا هو الذى بدأت تأخذ به الحكومة المصرية فى مسألة الحبوب

ولكن الحبوب ليست الضروريات الوحيدة التى أصبح الغلاء يعجز الكثيرين عن الحصول عليها ، فالملابس لاتقل خطرا عن الحبوب وقد ارتفعت أسعارها إلى حد غير معقول ، بل لقد اختفت من السوق أنواع كثيرة مما يعتمد الفقراء فى كسائهم عليه . اختفت هذه الأنواع لأنها هى التى أمكن إدراجها فى التسعيرة ، فسحبها التجار وخزنوها كما أن المعامل كفت عن انتاجها لتنتج أصنافا أخرى لم تدخل فى التسعيرة ، مما يطلبه الأغنياء و يؤدون أثمانه العالية .

والأدوية من الضروريات التى لايستغنى عنها غنى ولا فقير ، وقد ارتفعت أسعارها كذلك وأصبح الكثيرون يرون أنفسهم وأطفالهم يموتون أو يعذبهم المرض دون أن يستطيعوا الحصول على الدواء .

ومثل الحبوب بقية أنواع الطعام كاللحوم والسكر والخضر ، و بقية مطالب الحياة كالبترول والزيت والصابون وسواها و جميعها ضروريات لاغنى عنها للصغير والكبير ؛ و جميع هذه الضروريات عنيت بها انجلترا فى النظام الذى اتخذته والذى قد عزمنا على الأخذ به .

فكيف واجهت الخزانة الانجليزية إذن هذه التكاليف ، مع ما تنوء به من تكاليف الحرب الباهظة التى وصلت إلى أرقام فلكية لاتكاد تتصورها العقول ؛ مع السلامة من نظام التضخم كما يدل على ذلك ثبات النقد وعدم اضطراب الميزان الاقتصادى العالمى ؟

لقد واجهت الميزانية الانجليزية هذا كله لأن الحكومة هناك سارت على سنة التضامن الاجتماعى قبيل الحرب العظمى و زادت فى الأخذ بهذا النظام فى خلال الحرب الحالية . وتفصيل ذلك أنها :

(أولا) أخذت بنظام الضرائب المتدرجة التى تعفى قدرا معينا من الدخل من كل ضريبة ثم تبدأ فى فرض الضرائب عند حد معين ، وتأخذ هذه الضريبة فى الزيادة كلما ارتفع الدخل . وتضمن بهذا التدرج تحقيق غرضين اجتماعيين خطيرين : أولهما تمكين الفقراء والمتوسطين من الحياة المعقولة التى تتيح لهم الرقى العقلى والخلقى المطرد . وثانيهما تحميل الأثرياء قسطا مناسبا من الأعباء العامة يتفق مع ثروتهم ، كما تضمن غرضا اقتصاديا وغرضا ماليا . فأما الغرض الاقتصادى فهو الحد من قدرة بعض الأفراد على الشراء حتى لا يختل التوازن بين العرض والطلب فى السوق و يقع الغلاء المصطنع نتيجة لهذا الاختلال . وأما الغرض المالى فهو توفير الموارد للخزانة العامة وتحقيق المرونة للميزانية لتواجه الطوارئ والاحتمالات .

(ثانيا) أخذت بنظام ضريبة التركات التى تتدرج كذلك حسب مبلغ التركة . وضمنت بذلك غرضا اجتماعيا مهما وهو تقليل الفوارق بين الطبقات ، كما ضمنت جميع الأغراض الاجتماعية والاقتصادية والمالية التى سبق بيانها فى الفقرة السابقة .

(ثالثا) أخذت بنظام الضرائب الإضافية عند بلوغ الدخل حدا معينا ، هذه الضرائب التى تصل إلى تسعة عشر شلنا ونصف شلن فى الجنيه، والتى جعلت وزير مالية انجلترا يعلن فى إحدى خطبه الأخيرة أن أكبر دخل فردى فى انجلترا الآن لا يزيد على عشرة جنيهات فى الأسبوع .

هذه أهم الوسائل التى تذرعت بها الحكومة الانجليزية لمواجهة ميزانية الحرب ومواجهة تيسير الحياة للشعب بأداء الفرق بين سعرى الشراء والبيع ؛ ولولا هذه الوسائل لعجزت حتما عن اتخاذ هذه السياسة الضرورية ولعرضت حياة غالبية الأمة للاضطراب والعوز والاختلال .

* * *

والآن وقد رأت الحكومة المصرية أن الضرورة تحتم عليها أن تسير فى هذا الاتجاه فمن الإنصاف أن تستطيع الخزانة مواجهة التكاليف الجديدة فى وقت ترهقها فيه طوارئ كثيرة . والانسجام بين الاتجاهات العامة يحتم كذلك أن تحصل الخزانة على موارد جديدة يشترك القادرون فى أدائها وينتفع العاجزون بالزيادة فيها .

وقد لجأت الحكومة — كما قلنا — إلى فرض ضريبة إضافية لزيادة ريالين على ثمن قنطار القطن فى العام الماضى . وكان هذا اتجاها عجيبا . فلعله يكون اتجاها معقولا جدا أن تفرض على بعض أنواع الايراد العالية ضرائب إضافية لتخفيض تكاليف الحياة وأداء الفرق بين سعر الشراء وسعر البيع للضروريات .

إلا أننا نكره الإجراءات الوقتية الجزئية، فيجب إذن أن نعتمد على الأخذ بسياسة ثابتة فى هذا الموضوع كما أخذت انجلترا وكثير من دول أوربا وأمريكا بمثل هذه السياسة فنظام الضرائب ذو أثر عميق فى الكيان المالى والاقتصادى والاجتماعى أيضا. بل إن الروح الاجتماعية هى التى جعلت تسيطر الآن على تفكير المشرع عند فرض الضرائب والرسوم .

فكل ضريبة تفرض الآن فى الدول المتمدنة يلاحظ فيها ألا تثقل كاهل الطبقات الفقيرة وكل رسم من الرسوم يلاحظ ألا يكون سببا فى ارتفاع أسعار الضروريات التى لا غنى عنها هذه الطبقات .

يجب إذن أن تكون لنا فى مصر سياسة ثابتة فيما يتعلق بنظام الضرائب وما يختص بالجانب الاجتماعى فيها وفى غيرها من اتجاهاتنا العامة ، وأن تتجه هذه السياسة إلى تحقيق هذه الأغراض بما يناسب حالتنا الاجتماعية .

والتكاليف الجديدة التى تواجهها الخزانة العامة الآن من مثل انفاق هذا المليون الذى خصصته الحكومة لتيسير لقمة الخبز ستجعلنا نفكر حتما فى خلق موارد جديدة ، حتى لا نعطل ذلك الاتجاه الطيب الذى بدا فى الاجراء الأخير والذى تضطرنا إليه الظروف القاهرة .

وما دمنا سنفكر فى خلق هذه الموارد الجديدة ، فيحسن أن نعتمد على نظام ثابت ولا نلجأ لسياسة الارتجال بإزاء الطوارئ حتى لا يتقلقل النظام الاقتصادى والمالى للبلاد بين آن وآخر نتيجة للفاجآت .

ونحن نعلم أن التكليف دائما ثقيل على النفوس التى لم تتعوده ، فلابد من معارضة الكثيرين لفرض أعباء جديدة عليهم ، وقد يكون من بين هؤلاء الكثيرين من يملك قوة المعارضة والتعطيل للاتجاهات الحديثة . فإلى هؤلاء نتوجه بالحديث :

إن العالم اليوم وحدة مترابطة ، وما يشيع فى جانب من الأرض يسرى إلى الجوانب الأخرى ، وتتأثر به حتما . والعالم كله الآن يسير بخطوات واسعة نحو التضامن الاجتماعى فى أكمل صورة ، سواء فى ذلك الأمم الدكتاتورية والديمقراطية والاشتراكية . لا بل إن هذه الحرب تمخض عن خطوات جديدة فى طريق هذا التضامن . فلا مفر إذن من مواجهة هذا التطور ، ولن تكون مصر بدعا بين أمم الأرض جميعا بعد الآن ، ولن تستطيع المحافظة على اتجاهاتها الشاذة كالأخذ من الفقراء و إعطاء الأغنياء .

فمن الخير للجميع أن نأخذ بسمة العصر الحديث قبل أن يسبقنا ركب الحياة ، وقبل أن تلوى أعناقنا الحوادث فنلتفت إليها مرغمين وكنا نملك أن نلتفت إليها مختارين .

ولتسر الحكومة فى اتجاهها الجديد غير ملقية بالا إلى ما يرتفع من أصوات الأثرة والفردية ، وغير متأثرة بنفوذ رءوس الأموال التى ستعترض اتجاهها لو شاءت أن تتبع خطوتها الأولى بالخطوة التالية لها حتما وهى إشراك الإيرادات العالية فى مواجهة هذه الطوارئ وفى الأعباء العامة بقسط يتفق مع ضخامتها . وسيعرف أصحاب هذه الإيرادات فى يوم ما أن الحكومة قد أدت إليهم خدمة عظيمة حين أشركتهم طوعا أو كرها فى أداء واجبهم الذى ينهض به أمثالهم فى كل أمة ، لأنها حفظتهم من الهزات الاجتماعية الطاغية . وأبقت على مجال نشاطهم فى أوسع ما يستطاع من الحدود .

محمد حافظ رمضان

المتخصص الاجتماعى فى معركة الإصلاح

لحضرة صاحب العزة الأستاذ محمد العشماوى بك

المستشار الملكى ونائب رئيس رابطة الإصلاح الاجتماعى

إذا نظرنا الى الحياة العالمية نظرة عامة وضح لنا أن البيئة المصرية أصلح بيئة للكفاح فى سبيل الاصلاح فى مختلف ميادينه ، فما أحسب أنه قد تجمع فى بيئة ما تجمع فى مصر من عوامل الشر التى تجب مكافحتها . فهل تفتك الأمراض ببلد متحضر فتكها بمصر التى أثبتت موازنات إحصائياتها أن كل فرد مصاب بعلتين على الأقل وأن أغلب الأمهات فيها يلدن للقبر ؟ وهل يحدث الفقر من الأثر ببلد متحضر ما يحدثه بمصر حتى ليهبط بمورد كثير من الأفراد الى بستة جنيهات فى العام يواجهون بها مطالب الحياة فى أشق ظروف الحياة؟ وهل تغشى الأمية والجهل بلدا متحضرا كما تغشى مصر التى لم يزد من يعرفون القراءة والكتابة فيها على عشرين فى المائة ؟ وهل أهمل تنقيف الفتاة فى بلد كما أهمل فى مصر التى تزال نسبة المتعلمات فيها نحو خمسة فى المائة ؟ وهل تجرى السياسة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى بلد كما تجرى فى مصر على الارتجال والحل الوقتى للمشكلات دون تفكير فى مصدر الداء والعمل على شفاء البلاد منه شفاء ناجعا حاسما ؟

من هذا يتبين أن الحياة المصرية فى حاجة ملحة لمجهودات متصلة فى سبيل الإصلاح وأن مهمة المصلح الاجتماعى فيها عسيرة شاقة ، ولهذا كان إعداد جنود الاصلاح وتبصيرهم بسمو رسالتهم وخطر واجباتهم جديرا بتفكير المفكرين وحديث المتحدثين .

وقد قلت فى حديثى عن معركة الإصلاح إن التجنيد لها يجب أن ينتظم أهل البلد جميعا لافرق بين رجل وامرأة ولا بين شيخ وشاب ، ولا بين شعب وحكومة ، فالاسلام حين عدد واجبات الرعاية جعل كلا راعيا وكلا مسئولا عن رعيته ، فالجنود هم أفراد الأمة على بكرة أبيها بما توافر لكل منهم من ثقافة أو تجربة أو جاه أو مال .

ولا يتسع لى المجال فى هذه الكلمة لأتكلم عن وسائل إعداد أفراد الشعب جميعا للكفاح فى سبيل الإصلاح ، ولذلك أقصر كلمتى على إعداد المتخصص الاجتماعى وحده .

ومثل الخدمة الاجتماعية كمثل المعركة الحربية تتطلب جنودا مدربين يدرسون فنون الحرب ويحذقون استخدام معداتها ، وتتطلب ضباطا يتولون قيادة الجيش وتنظيم الصفوف وتوجيه الحملات ، وتتطلب غير هؤلاء جيشا مرابطا يمد الجيش العامل ، وكذلك الشأن

فى معركة الإصلاح يجب أن يهيأ لها جنود تقفوا فنون الكفاح، من ورائهم جنود احتياطيون ، كما يجب أن يهيأ الشعب كله للمؤازرة وقت الحاجة . فان اقتصرنا على طبقة الجنود المدربين وتركنا الأمة فى عزلة كان فشلنا فى المعركة محققا . فأنا إذ أتكلم فى شأن المتخصص الاجتماعى فانما أعنى الجند الذين يعدون إعدادا خاصا ، ولكنى لا أغفل القوى الاحتياطية التى تشد أزرهم وتحمى ظهورهم بالمال آنا ، و بالروح المعنوية آنا . وأولئك الجند هم الذين يدربون تدريبا فنيا لخوض المعركة، والبلاد من ورائهم تزودهم بكل القوى التى تمكن الجيش العامل من الثبات فى الميدان ومواصلة الكفاح حتى يقضى على عوامل الشر .

فماذا يجب أن يتوافر للتخصص الاجتماعى من إعداد وقوى ؟ أول ما يجب أن يتسلح به ، قلب كبير عامر بالإيمان . لأنه إذا ضعف إيمانه أو تزايل تعرض للاخفاق المحقق، وذلك لأن الكفاح فى ميدان الإصلاح نوع من أعمال الرسالة وهى لا تؤدى إلا بايمان وطيد لا تزحزحه مغريات الدنيا ولا نوائبها ولا الطمع فى جاه أو مال أو منصب ، فواجب أن تربى المتخصص الاجتماعى على الايمان القوى ، ولن تؤتى هذه التربية ثمرتها إلا إن استندت إلى دين وعقيدة ، فالرسل جميعا جاءوا بالهدى والحق بعثهم الله لإصلاح البشر . ولقد صدر الأنبياء والرسل عن عقائد ثابتة بلغوا بها ما أرادوا ، ولا يتسنى للتخصص الاجتماعى أن يمضى فى طريقه قدما إلا اذا كانت تحدوه عقيدة دينية ثابتة سليمة لا تتزعزع، تملأ صدره نورا وتدعه لا يرضى غير وجه الله والمصلحة العامة سبيلا، فعلينا أن نستعين بالروح الدينية فى صفاء جوهرها لتكون وسيلتنا فى العمل للاصلاح، ولنعلم أن فاقد الشىء لا يعطيه فلا يقدر أن يبث عقيدة الإصلاح الاجتماعى داع اجتماعى لا عقيدة له ولا إيمان . وإن كثيرا من دعوات الإصلاح تذهب هباء لأن القائمين بها لا يصدرون عن قلوب عامرة بالايمان، أو لأنهم فى أحوالهم الاجتماعية الخاصة أبعد ما يكونون عن روح الإصلاح الذى يدعون اليه .

كذلك يجب أن يكون المتخصص الاجتماعى واسع الأفق فى المعرفة بأحوال الناس ، بصيرا بما يؤثر فى الخاصة والعامة ، دارسا للحياة الاجتماعية فى مختلف نواحيها دراسة تعينه على الاستنتاج والعلاج. فاذا عالج رفع المستوى الاجتماعى لبيئة خاصة كان عليه مثلا أن يتعرف الحالة الاقتصادية أكمل تعرف، لأن للاقتصاد أثره فى شيوع المرض وتغلغل الفقر وانتشار الجهالة ، فمقومات الحياة فى الأمة حلقة مفرغة ، إذا ساء الاقتصاد ساءت الصحة وساءت الثقافة . وإذن فلا بد للتخصص الاجتماعى من دراسة تقفه على حقيقة العوامل التى كانت سببا فى انخفاض المستوى الاجتماعى والصحى والثقافى والخلقى للبلاد .

ويجب أن تتعاون المرأة مع الرجل فى ميدان الإصلاح؛ فإذا لم يتساند العنصران على أداء مهمة الإصلاح ضعف الأمل فى النجاح ولقد خلق الله الزوجين الذكر والأنثى وجعل لكل منهما طبيعة خاصة يصلح لها عمل خاص. فالمرأة بطبيعتها مربية الجيل. وهى الروح المعنوية الحافزة، وهى باعثة الطموح وصدق الهمة، وهى منهمة الرشد أو الغى. ولقد كان لها دائما هذا الأثر فى البدو والحضر وفى بكر الحضارة وضحاها؛ وإنى ليحضرنى قول أحد أصحاب المعلقات فى قوة أثر المرأة فى حفزها للهمم :

على آثارنا بيض حسان ... نحاذر أن تقطع أو تهونا

يقتن جيادنا ويقلن لستم ... بعولتنا إذا لم تمنعونا

إذا لم تحمهن فلا بقينا ... لشىء بعدهن ولا حيينا

فعلينا ألا نهمل أعداد المرأة للعمل فى الميدان الاجتماعى وأن ندفعها إلى الكفاح فيه بما حباها الله من صفات الصبر وقوة الاحتمال وروح العطف والتضحية والإيثار، ولكن يجب أن نعدها لمهماتها الاجتماعية الطبيعية. فمكانها من الميدان مؤخرته تدفع الرجال إلى الأمام ولديها فى هذا المكان من جسام الأعمال ما يشغل وقتها ويستنفد جهدها، فهى تتلقى الطفل من ولادته إلى رجولته. واليها ينتهى الأمر فى تنشئته وتغذيته وتثقيفه وتقويم أخلاقه فى مراحل حياته الأولى، فلنعد المرأة لرعاية الطفل وحل مشكلاته، ترعى ذكاءه حتى لا يخبو وتبعث فيه الحرارة حتى لا يخمد. ولنعدها أيضا لمشكلات الأسرة تعالجها زائرة أو مقيمة، وتحل عقدتها فى بيتها أو فى بيوت الناس. فأما الرجل فعنده الميدان الثقافى والصحى والاقتصادى والارشاد العام. على أننا الآن فى مجتمعنا أشبه ما نكون بمن تظنهم حالة الحرب. البلد فى خطر، والعدو كثير، والهجوم من نواح عدة، والغارات متوالية. فالحالة تتطلب اشتراك العنصرين معا لانقاذ البلاد، وليس يجزئ أن ينفرد كل عمل، فالمرض تقاومه المرأة والرجل فى الفرد والأسرة، والاقتصاد تشترك فيه المرأة بما تضع من تدابير صالحة تكفل بها أن يفى القليل بالحاجة.

ويؤدى أن أنفى عن المتخصص الاجتماعى رجلا كان أو مرأة أن عمله نوع من الوظائف تخضع لرياسة ترتجى، وتتعلق بآمال ترتقب. وإنما يجب أن تتوافر لمن يلى هذا العمل صفات من النبوغ، فيقبل على مهمته فى غير انتظار لجزاء، بل فى توقع للأذى، ويضع نصب عينيه أن فكرة الاصلاح تتنافى مع النفع. لأن أساسها التفدية بكل شىء حتى بالنفس إذا اقتضت الحال.

وعلى المتخصص الاجتماعى أن يكون حكيما لبقا فيما يواجه من أزمات وما ينبغى من إصلاح، وأن يرعى سنة التطور، فلا يقدم على تغيير شىء لم تهيأ لتغييره الوسائل والنفوس، وإلا كانت دعوته إلى الاصلاح دعوة إلى الثورة مما يجعله مفسدا لا مصلحا. فإذا صادفته فى مجتمعنا المصرى تلك الفكرة الشائعة حتى فى أوساط المتعلمين التى تقول بزيادة المتعلمين عن حاجة البلاد، وجب أن يتدبر الباعث على هذه الفكرة ليرى أن عذر الناس فى إشاعتها كثرة المتعطلين ممن تعلموا ودرسوا. وإنها لمشكلة تدعو إلى العجب أن تكون حاجة البلاد إلى المتعلمين ممتنعة أو قليلة على حين أن عدد الذين تعلموا القراءة والكتابة فى مجموع الأمة لا يتجاوز العشرين فى المائة، فكيف نغالب تلك الفكرة، وكيف نعالج تلك المشكلة لنقنع الكافة بأن البلاد ما فتئت متعطشة إلى مدخل العلم، وأن الحاجة إلى الإكثار من المتعلمين لا تزال ملحة. لزام على المصلحين أن يفكروا طويلا ليدركوا أساس الخطأ فى هذا التقدير. إذن ما العلة فى تعطل من خرجتهم المعاهد على مس الحاجة إلى إنصافهم جميعا؟ الحق أن مثلنا فى ذلك مثل من يذهب إلى أعالى النيل ليقيم مصنعا لنسج الثياب حيث يض القوم عراة، فهل يتوقع أن يقبل الناس على ترويج بضاعته؟ وهل يدل عدم الإقبال على شراء الثياب على أن القوم استوفوا حاجاتهم أم لكسى؟ تلك حالنا! ضاق مجتمعنا بالمتعلمين لأننا فى شئوننا الحيوية لا نعتمد على المتعلمين. فالخط قائم فى الكثير على الذين يمارسون التطبيب من طريق الدجل والخرافات، وهندسة البناء قائمة على عامة البنائين، والمحاماة لا تخلو من الدخلاء غير المتفقهين. ودور التجارة لم تتسع لمن درسوا فى التجارة. والمزارع لم يتول العمل فيها المختصون. وبذلك نصب معين الأعمال أمام المتعلمين لأن العقبة الاجتماعية للأمة وقفت فى طريقهم عقبة كئودا. ولقد قلت فى حديث لى: إن عطالة المتعلمين سببها قلة المتعلمين! وما زلت أرى وجه الصواب فى هذا القول. فلو انتشرت الثقافة وارتقت عقلية الأمة ومستواها الاجتماعى لعظمت حاجة البلاد بهؤلاء المتعلمين المتعطلين. بل لشعرت بأنهم دون كفايتها. فالمصلح الاجتماعى يلقى فى مصر حالة طال عليها العهد وعقلية ران عليها الجهل، ويرى لذلك طريقه إلى الاصلاح شاقا عسيرا، إذ يصادف فيمن يصادف إناسا عشيت أبصارهم فيؤذيهم النور وعميت بصيرتهم فلا يتبينون طريق الهدى. فهو مطالب أن يدفع أولئك إلى تفكير جديد ونظر جديد، وهو مضطر أن يعمل شيئا فشيئا على تغيير أوضاع الحياة ومعايير الأخلاق.

ولعل أهم ما يجب على المصلح الاجتماعى أن يرعاه هو تجنب الوقوع فى الطفرة وإثارة روح الفتنة، فإذا أراد أن يعالج مشكلة الفقر وجب ألا يبث فى نفوس الفقراء روح التمرد والانتقاض المفاجئ على نظام المجتمع فتقع الفرقة وتتصرم الفتنة. وإنما يتوجه الى الأغنياء

فيذكرهم بما فرضه الله للفقراء فى أموالهم من حق . و يطلب إليهم أن يؤدوه لوجه الله والوطن وأن يرفهوا بالفضل من مالهم على البائس والمحروم، فان لم يلق من ذوى الغنى آذانا تعى أو قلوبا تعطف دعا الى اتخاذ التشريع سلاحا يستنقذ به هذا الحق فى الأموال ، ثم يلتفت ذلك المصلح الجدير بهذا الوصف إلى الفقراء ، لا ليبذر بذور الشقاق والبغضاء بينهم و بين الأغنياء ، بل ليحببهم فى الاعتماد على النفس والسعى وراء أسباب الكسب واستشعار الكرامة والأنفة من قبول العطية والاستنامة إلى المعونة ، فإن وجههم إلى ذلك فقد وجههم إلى طريق الكرامة والإنتاج الشريف وجنبهم المذلة والمسكنة .

و بديهى أن الرغبة فى البذل ضعيفة عند من يملكون البذل، ومهما تقل للمترفين انزلوا عن شىء من أموالكم حتى لا يثور عليكم الفقراء والبؤساء فقلما ترجو منهم تلبية للدعوة أو إسراعا لبذل المعونة . ولن يفوتكم أن العرب حين ارتدوا عن الاسلام على أثر وفاة النبى الكريم كان أول حافز لهم على الردة رغبة الفرار من أداء فريضة الزكاة، ولو رفعت عنهم هذه الفريضة لما وقفوا فى أغلب الظن هذا الموقف .

والمصلح الاجتماعى مضطر إلى أن يترفق فى الدعوة الى البذل ، وأن يعالج بكل الوسائل روح الانصراف عن البر ، فيحببه الى الناس بمختلف الحجج والرغبات، وعليه أن يعمل فى تنظيم البر وتوجيهه وجهة صالحة . فان ذلك الإحسان غير المنظم من شأنه أن يقوى فى النفوس الاستعداد للاستجداء المزرى والركون للدعة والبطالة ، وبذلك تتجه بالبر وجهة جديرة وهى تهيئة الوسائل للفقراء والضعفاء . فيهيىء للمريض وسائل الاستشفاء وللجاهل وسائل التثقيف وللمتعطل أبواب العمل . على هذا النحو يرتفع المستوى الاجتماعى للأمة فى مختلف النواحى وتيسر الحياة على الفقراء و يتحقق التكافل العام فى شتى مظاهره والإنتاج فى كل مرافقه .

و إنى إذ أختم هذه الكلمة أرى أن مهمة المتخصص الاجتماعى فى جلال خطرها ليست بالتى يستطاع أن يستوفى حديثها فى كلمة أو كلمات ، ولذلك أجترئ فى مقالى هذا بما أجملته لكم آملا أن تتهيأ لى الفرصة لاستئناف الحديث ، فالحديث عن الإصلاح ومعركة الإصلاح يجب أن يطغى على الأحاديث التى يتندر الناس بها فى مجالسهم، وليكن شعارنا جميعا التواصى بالإصلاح نوجه الدعوة إليه جريئة خالصة ونتلقاها عاملين مخلصين !

محمد العشماوى

المستشار الملكى

مشكلة المشرع

لحضرة صاحب السعادة حبيب المصرى باشا

مشكلة المشرع هى مشكلة الحياة الاجتماعية كلها . ولما كان الانسان لا يعيش إلا فى الاجتماع فهى إذن مشكلة الحياة عامة . إنها تتناول كل ميادين العمل وكل نواحى النشاط القانونى والثقافى والاجتماعى والاقتصادى . وتتناول الحياة الفردية كذلك . فالإنسان من المهد الى اللحد محتاج الى القوانين والتشريعات المختلفة تنظم حياته وتحقق مطامحه وتكفل حقوقه وتحدد واجباته وتعمل على اسعاده . ووظيفة المشرع أن ينظم الحياة فى كل مراحلها وفى مختلف مرافقها وأن يماشى التطور الفكرى والاجتماعى بل أن يسبقه فى كثير من الأحايين لكى يهيئ للاجتماع وسائل رقيه وأسباب نموه . وهذه الوظيفة تنمو وتتسع على مر الأزمان وتمتد الى آفاق لم يكن يخطر على البال الى عهد قريب ان للشرع دخلا فيها أو شأنا بها . وتقتحم ميادين لم يكن له بها من عهد . وهى تزداد على وجه الزمن وتبعا لرقى اجماعات وتطور المذاهب الاجتماعية والفلسفية تعقدا وعمقا .

ولما كان الغرض الأول والأخير من انظم التشريعية كافة إنما هو العمل على سعادة الانسان وتحقيق خيره ورخائه وتنظيم الاجتماع لمصلحته ، ولما كانت الحقوق لم تشرع إلا لأجله فإنه لم يكن من الطبيعى وأنا أتحدث عن مشكلة المشرع أن أغفل الأسرة وألا أقول عنها ولو كلمة وجيزة عابرة . إذ لا شك فى أن نظام الأسرة هو فى المقام الأول من الأهمية بالنسبة للدولة لأن الأسرة هى الخلية الأولى للوطن . ولا قيام لكيان الوطن إلا بقيام كيان الأسرة وصيانته .

ونظام الأسرة فى مصر كما هو معلوم خاضع للشرائع الدينية بالنسبة لجميع الرعايا المصريين على اختلاف أديانهم . ومع ضيق الدائرة التى يتحرك فيها التشريع الوضعى بسبب ذلك ومع ما بذله المشرع من جهود عظيمة لإصلاح نظام الأسرة وصيانة مصلحة المرأة ورعاية حقوق الطفل فإن مجال الإصلاح لا يزال واسعا أمامه . وهو لا يزال قادرا على المزيد مع احترام جميع العقائد الدينية احتراما تاما . فمن الخير مثلا أن يعمم اشتراط الحد الأدنى لسن الزواج بالنسبة لجميع المصريين على اختلاف أديانهم . ومن الخير كذلك أن ينظر فى تحتيم توقيع الكشف الطبى على طالبى الزواج فلا يباح الزواج للمصابين بأمراض تناسلية خطيرة أو بأمراض معدية وبيلة ، فإن صيانة الصحة العامة وحماية السلالات المصرية المقبلة من

تلك الأدواء التي تنخر في عظامها والتي تنتقل الى الأطفال الأبرياء في غير ما جريرة من آباء جهلة أو مجرمين مما يجدر بالمشرع أن يجعله محل عنايته العاجلة. إننا في هذا العصر في حاجة الى أمة مصرية فتية قوية ، وكفانا ما نراه من أطفال مجذومين أو مسلولين أو مشلولين بجناية الآباء يشبون عالة على المجتمع ومصدر ضعف له وبلاء لابنائه .

ولست أريد الآن أن أتعرض لهذه المشكلة بأكثر من هذا كما أنني لست أريد أن أتعرض في توسع لمشكلة التعليم لا سيما التعليم الإلزامي حيث يتساءل الكثيرون وفي طليعتهم جماعة من كبار رجال التعليم المسئولين عما إذا كان التعليم الالزامي بشكله الحاضر قد أدى الغاية المنشودة منه وحيث يتساءل الكثيرون كذلك عما إذا لم يكن من الأولى أن يخصص نصف المال المرصود له الآن في ميزانية الدولة لتعليم الأطفال والنصف الآخر لإطعامهم فإن الآلاف والآلاف من أطفالنا يذهبون إلى المكاتب العامة يجرون أنفسهم جرا من الضعف خماص البطون عراة أو شبه عراة لا تكاد تستر أجسامهم الهزيلة إلا أسمال بالية لفرط فقر أهليهم وهبوط مستوى المعيشة لديهم هبوطا مريعا .

وإنما أريد أن أعرض اليوم لمشكلة كبرى هي على ما أعتقد مشكلة المشكلات التي تواجه المشرع والتي تستغرق كل اهتمامه وعنايته وأعني بها المشكلة الاقتصادية . فوظيفة المشرع في أيامنا هذه وفي الأيام المقبلة تنصرف أولا وقبل كل شيء الى المشكلة الاقتصادية أي الى ضرورة العمل على توفير الرزق للشعب وضمان عيشه وعلى رفع مستوى هذا العيش في جميع نواحي الحياة ، إلى جانب ضمان الأمن والسلامة في الداخل وفي الخارج ، وهي ليست مجرد مشكلة اقتصادية ، بل هي مشكلة اقتصادية اجتماعية إذ من المحال الفصل بين هذين الوجهين من وجوه المشكلة ، ولابد حين معالجة أية مشكلة اقتصادية من النظر في آثارها الاجتماعية ومن العمل على صيانة الحقوق الأساسية التي جاهد الانسان قرونا في الحصول عليها من جهة ضمان حريته الفكرية والدينية وبصفة عامة من ضمان ما للشخصية الإنسانية من حرمة وكرامة .

والواقع أن النظريات القانونية والاجتماعية عن علاقات الأفراد بالسلطات العامة وعن علاقات الأفراد فيما بينهم قد تطورت تطورا عظيما لا سيما في السنوات الأخيرة ، تحت ضغط الحاجة وازدياد السكان وسوء توزيع الثروات بين الأمم والأفراد وغير ذلك من العوامل العديدة التي يتعذر حصرها . وكان من أثر الحرب الكبرى الماضية أن عجلت في هذا التطور بل قلبت الكثير من النظريات التي كانت قائمة إلى ذلك العهد رأسا على عقب . وستكون الحرب العالمية الحاضرة أشد أثرا في هذا التطور بل في هذه الثورة الفكرية الهائلة .

والمفكرون جميعا منعقد إجماعهم على أننا سنرى في أثرها عالما يكاد أن يكون جديدا عليا في آرائه وأفكاره ونظره إلى الحياة والمثل العليا . وليس يستطيع أحد الآن ولو من

أعمق الناس تفكيرا وأوسعهم علما أن يتنبأ كيف يكون هذا العالم الجديد على وجه التحديد فإن العوامل المؤثرة فيه والدافعة اليه لم تتضح كلها بعد ولكن مجيئه أمر لاريب فيه .

ومهما يكن من شيء فإن المسلم به أن الناس أصبحوا الآن يطالبون حكوماتهم بأمور لم يكونوا يطالبونها بها من قبل بل لم يكن ليخطر لهم فى بال أن يطالبوها بالتدخل فيها ، وأنهم كذلك ينظرون إلى التزاماتهم نحو الغير وإلى التزامات الغير نحوهم على نحو يغاير ما كان مصطلحا عليه فى الماضى . وقد أصبح السؤال الذى يختلج فى كل النفوس فى الوقت الحاضر هو : إلى أى حد يحق للمشرع — أو على الأصح إلى أى حد يجب على المشرع — أن يتدخل فى تنظيم الحياة الاقتصادية ؟ وأين تقف وظيفة الحكومة و يترك الميدان للعمل الفردى ؟

ولعله فى إمكاننا من غير كبير خطأ أن نوجز برنامج الحياة الجديدة فى عبارة قد لاتكون تحديدا تاما للمعنى الذى يتطور عليه التطور الجديد ولكنها تقرب منه كل القرب وهى أن الأمة يجب أن تعتبر فى نظامها وعلاقات أفرادها فيما بينهم وعلاقاتهم مع حكوماتهم أسرة كبرى يزداد فيها التضامن توثقا بين الأفراد فتزداد تبعا لذلك واجباتهم ومسئولياتهم نحو بعض مع ضمان حرية الفرد وشخصيته داخل هذه الأسرة .

ولإظهار هذا المعنى فى وضوح يحسن بنا أن نرجع قليلا إلى الوراء .

لقد اجتاز العالم مراحل مختلفة وجرب نظما عديدة أفلح بعضها وفشل البعض الآخر ولكن جميع النظم حتى ما أفلح منها فى تحقيق المطامع الإنسانية فترة من الزمن كان مصيرها التحول وافساح المجال لغيرها . لأنه ليس من نظام سياسى أو اجتماعى أو اقتصادى مهما يبلغ من الدقة وسمو المبادئ يمكن أن يقال عنه أنه نظام أبدى خالد لن يناله التغيير فى يوم من الأيام . اذ الجمود لايتفق وطبيعة الناس ونواميس الكون. والمثل العليا ينبغى أن تسمو كل يوم . وكلما قارب الانسان تحقيق مثل من تلك المثل اتسعت أمامه الآفاق ووثب وثبة أخرى نحو مثل أعلى من مثله الأولى. وكل نظام انسانى لا بد أن يكون مرحلة من مراحل الجهاد تؤدى وظيفتها فترة طويلة أو قصيرة وتكون تمهيدا لمرحلة أخرى تأتى بعدها من تلك المراحل التى لاتنتهى . أما الشيء الذى لايتغير فهو أن الطبيعة الإنسانية تقتضى من الانسان أن يسعى دائما الى تحقيق غرضين هما السعادة والحرية .

وقد رأينا مثل الحكم ونظمه تنتقل من طور الى طور فاختفى العهد الاقطاعى وجاء بعده عهد وحدة الأمة وسيادتها . واختفى عهد الاسترقاق وجاء بعده عهد تبعية الرجل للأرض تبعية تلحقه بها وتكاد أن تجعله جزءا منها مما لا يفترق كثيرا عن الاسترقاق. ثم بدأ عهد حرية العمل حرية أخذت تنمو على الأيام .

وجاءت الثورة الفرنسية بتصريحها المعروف عن " حقوق الإنسان والمواطن " تحت تأثير آراء فلاسفة القرن الثامن عشر من أمثال فولتير وروسو ومونتسيكو وتحت تأثير عوامل

عديدة وتطور تاريخى واجتماعى طويل . وعلى الأخص تحت تأثير الفاقة والجوع . دائما الفاقة والجوع. فهما اللذان يمهدان للانقلابات السياسية والاجتماعية . لأن البطون الخاوية لا تعرف الحكمة ولا تستطيع الاصطبار .

وقد قرر هذا التصريح العظيم أن الناس يولدون جميعا أحرارا ، متساوين فى الحقوق وأن غرض الجماعات السياسية صيانة الحقوق الطبيعية للإنسان وهى الحرية وحق الملكية والأمن — وأضاف اليها حق مقاومة الظلم والطغيان — وأن كل سلطان مصدره الأمة . وعرف الحرية بأنها حق الانسان فى أن يفعل ما يريد مادام لا يلحق الضرر بغيره .

وقبل ذلك بنحو خمس عشرة سنة أى فى سنة ١٧٧٤ أصدر جورج واشنطون بطل الاستقلال الأمريكى وزملاؤه من ممثلى الولايات الأميركية تصريحهم المشهور الذى أعلنوا به استقلال أمريكا والذى يقولون فيه " اننا نعتبر الحقائق الآتية من الوضوح بحيث لاتحتاج الى دليل وهى أن الناس جميعا خلقوا متساوين وأن خالقهم وهبهم عددا من الحقوق التى لا يمكن انتزاعها منهم ومنها الحق فى الحياة والحرية والسعى وراء السعادة " .

وقد كان لتصريح الثورة الفرنسية عن حقوق الإنسان أثر هائل عميق تجاوز فرنسا الى سائر أقطار العالم ورح الأمم والشعوب رجة عنيفة و بدت آثاره قوية فى تعديل بل فى قلب نظم الحكم والسياسة والاقتصاد والاجتماع جميعا . بل لقد كان نقطة تحول فى تاريخ الانسانية عامة وظن الناس أنهم بلغوا به المثل الأعلى الذى كانت الانسانية تنشده وتتمخض عنه من أجيال وأجيال وأنه لم يعد لهم وراءه من مطمح فقد حقق لهم أقصى ما يستطاع تحقيقه من حرية وعزة وكرامة .

وفى ظل المبادئ السامية التى عبر عنها التصريح فى كلمات ثلاث هى :"الحرية والإخاء والمساواة " تحولت النظم الاقتصادية وأصبحت نظما حرة قاعدتها الأساسية قاعدة العرض والطلب ، وحرية المنافسة ، وحرية العمل ، وحرية استغلال الملكية على الوجه الذى يريده صاحبها. فازدهرت الأعمال والمشروعات العامة والخاصة، ونما النظام الرأسمالى إلى أقصى حدوده وأروعها. واشتد ساعد أصحاب المدرسة الحرة فى الاقتصاد، وهى القائلة بأن وظيفة الدولة يجب أن تكون مقصورة على حفظ السلام والأمن فى الداخل وفى الخارج، وقد لخصوها فى كلمتين اثنتين هما :"الحكومة الشرطية". وحجتهم أن العالم تحكمه نواميس طبيعية لا سبيل للبشر إلى تغييرها ولا مصلحة لهم فى تغييرها إذا استطاعوا الى ذلك سبيلا؛ وأن هذه النواميس تقضى بأن تكون العلاقات بين الناس اختيارية، و بأن يترك لهم التصرف فى شؤونهم بمحض اختيارهم وطبقا لما تمليه عليهم مصالحهم . و بذلك يتكون بين تلك المصالح رغم تنافرها الظاهر هذا التناسب الذى يقوم عليه النظام الاجتماعى وهو أمتن أساسا وأصلح للناس من أى نظام اصطناعى تستنبطه براعة المفكرين والحكام .

ولكن الناس كعادتهم دائما وبحكم تطورهم المستمر لم يلبثوا أن رأوا أن نظام الحرية الاقتصادية المطلقة والاعتماد على قاعدة العرض والطلب وحدها مما لايحقق السعادة البشرية. فقامت المذاهب الاشتراكية تصارع النظام الرأسمالي وتطعن فيه طعنا عنيفا مستندة الى ما لا يقدر أحد على إنكاره، وهو أن النظام الاجتماعي الحديث تشوبه عيوب كثيرة. ومن رأيها أن أساس هذه العيوب المنافسة المطلقة والملكية الفردية وتضحية المصلحة العامة في سبيل مصلحة الفرد وزيادة ثراء عدد قليل جدا من الناس على حساب السواد الأعظم منهم الذي يبتلى بالفاقة والحرمان. وردّوا على ما زعمه أنصار المدرسة الحرة، من أن الحرية المطلقة مما تقضي به النواميس الطبيعية، وقالوا إن كل نظام قام في العالم في وقت من الأوقات إنما قام على نواميس طبيعية، أو على الأصح على أسس تاريخية إذ هو حتما نتيجة التطور الاجتماعي الذي أوجده. ولولا تمشيه مع ذلك التطور لما وجد. ولكن ليس معنى قيام نظام معين على نواميس طبيعية أنه يجب أن يبقى دائما أبدا لا يلحقه تغيير ولا تبديل. فإن القول بهذا معناه القول بوقوف التطور الإنساني عند حد معين متى بلغته الانسانية جمدت عنده، لا تتعداه، وهو قول غير صحيح، لأن الجمود من نواميس المادة، ولكنه ليس من نواميس الاجتماع. فالعالم أبدا في تطور. والحياة الانسانية في تحول مستديم. وهذا التطور هو الناموس الطبيعي الأكبر الذي يجب كل النواميس، فلا مناص من أن تتمشى النظم التشريعية والاجتماعية مع هذا التحول جنبا إلى جنب.

والواقع أن المفكرين كانوا يرون بصفة عامة أنه لا مناص إذا زال النظام الرأسمالي — وهو في نظرهم زائل لا محالة — من أن يحل محله النظام الاشتراكي حتما. ولكن الأيام ستثبت على ما أعتقد فساد هذا الرأي إذا أخذ به على اطلاقه. وأغلب الرأي عندي أن النظام الجديد سيقوم على التعاون والتضامن وسيكون مزيجا من الرأسمالية المعتدلة والمذاهب الاشتراكية ونتيجة لهذا التفاعل الذي لابد منه بين الآراء والنظريات المختلفة.

على أننا إذا استثنينا البلاد الروسية حيث استطاع الجناح الاشتراكي الأيسر المتطرف تولي مقاليد السلطة وإقامة النظام الشيوعي — الذي لا نعرف عنه إلا القليل من التفاصيل بسبب عزلة روسيا عن باقي العالم — فإن الأحزاب الاشتراكية وقد أتيحت لها فرص الوصول الى الحكم في الكثير من بلاد العالم ومنها فرنسا وانجلترا والسويد والنرويج والنمسا ونيوزيلندا فشت فشلا تاما في تحقيق برامجها. ولكن لا نزاع كذلك في أن المدرسة الحرة بوضعها الماضي وآرائها القديمة قد زالت دولتها تماما. فلم يعد في العالم أحد يقول بحصر وظيفة الدولة في حفظ الأمن والسلامة. بل أصبح من المسلم به أن هذه لوظيفة يجب أن تتسع وقد اتسعت — بالفعل — حتى تشمل كل ما يقتضيه سد حاجات الجماعات وأغراضها، على الأقل حيث لا تستطيع مجهودات الفردية أن تسدها أو أن تكفل تحقيقها.

بيد أنه مما لا مشاحة فيه أن التصريح الذى أنتجته الثورة الفرنسية عن حقوق الإنسان ونشرته على ملأ العالم وهلل له الناس وأنتج ولا يزال ينتج فى حياتهم أعمق الآثار لم يعد وافيا بتحقيق حاجات الإنسان ومطالبه المشروعة . فوجب إذن أن يحل محله مبادئ جديدة أوفى منه تحقيقا للسعادة البشرية والتضامن الإنسانى وأكثر استجابة لمطالب الاجتماع . فإن واجبات الإنسان نحو الإنسان على الوجه الذى قرره ذلك التصريح لا تعدو أن تكون واجبات سلبية . أساسها عدم إيقاع الضرر بالغير . ولكن هذه المرحلة السلبية وشيكة الانتهاء لكى تحل محلها مرحلة أخرى أساسها أن يكون واجب الإنسان نحو مواطنه واجبا إيجابيا بحكم التضامن بين أبناء الوطن . فتزداد مسئولية الفرد القادر نحو الغير لا على اعتبار أن ما يفعله نحو الغير هو احسان منه وتفضل وإنما على أساس أنه فرض اجتماعى قانونى محتم الأداء .

ثم إن تلك المنافسة الحرة المطلقة بين الناس ، تلك المنافسة التى لا تخضع إلا لقاعدة العرض والطلب مجردة عن كل عتبار تخربحة أنها الناموس الطبيعى الوحيد ، كثيرا ما تدع الضعيف فريسة للقوى . وفى الاجتماع الحديث ملايين وملايين من البشر يتضورون جوعا وتنقطع بهم أسباب الرزق لمرض أو بطالة . أو يعيشون بما دون الكفاف . فالحرية التى كفلتها لهم الدساتير وكفلتها لهم القوانين وكفلتها لهم المبادئ الأدبية ليس لها وجود فعلى لأمثالهم وهى لا تعدو أن تكون بالنسبة لهم حرية نظرية أفلاطونية . اذ لا يكفى لكى يكون الإنسان حرا أن يكون فى مأمن من العدوان الخارجى ولا يكفى أن يكون فى مأمن من العدوان الداخلى . بل يجب أن يكون فى مأمن من الجوع . لأن الرجل الجائع أسير فقره و بؤسه فلا سبيل له الى الاستمتاع بأى مظهر من مظاهر الحرية أو مزاياها . إنه حشرة تزحف على أحشائها لكى تجد فتاتا من الخبز . إنه حيوان ضال هائم على وجهه يسعى وراء لقمة يتبلغ بها . فالكلام عن الحرية لمثل هذا الرجل لغو فارغ وسخرية لاذعة أليمة .

ولذلك اتجه تفكير علماء الاجتماع والاقتصاد إلى وضع أسس جديدة للعلاقات بين الناس ولحقوق الفرد قبل الدولة . وقد وضعت جمعية حقوق الانسان فى مؤتمر عقدته فى مدينة ديجون فى يوليه سنة ١٩٣٦ تصريحا جديدا لحقوق الإنسان اعتبرته مكملا لتصريح سنة ١٧٨٩ وطالبت بتنفيذه فى كل الأمم و بالنسبة لجميع الناس ذكورا و إناثا على اختلاف أجناسهم وجنسياتهم وعقائدهم وآرائهم كما طالبت باعتبار هذه الحقوق متصلة بذات الإنسان يعترف له بها . أينما حل وحينما وجد . وقد جاء فى هذا التصريح عن الحق فى الحياة وهو أولى الحقوق الطبيعية المقدسة . أنه حق الأم فيما تقتضيه وظيفتها من رعاية وعلاج ، وحق الطفل فى كل ما يكفل نموه وتنشئته جسميا وأدبيا ، وحق المرأة فى حمايتها من استغلال الرجل وحق الشيوخ والمرضى وذوى العاهات فى العناية بهم عناية يقتضيها ما هم فيه من ضعف .

كما أن الحق فى الحياة ينطوى على تيسير أسباب العمل لجميع الناس وعلى تمكين كل إنسان من انماء مواهبه الطبيعية وكذلك على ضمان القوت لكل العاجزين عن العمل .

وقد وضع " ويلز " من علماء الاجتماع فى انجلترا، بعد استفتاء طائفة من أكبر العلماء الاجتماعيين فى بلاد عديدة، تصريحا كذلك عن رأيه فيما يجب أن تكون عليه حقوق الإنسان ومن توارد الخواطر العجيب أن هذا التصريح فيما سوى بعض اختلافات يسيرة ، يتفق فى معانيه بل وأحيانا فى مبانيه مع تصريح مؤتمر ديجون . وأول مادة فى تصريح ويلز أن. " لكل إنسان بغير تمييز فى الجنس أو اللون أو العقيدة أو الرأى الحق فى الطعام والمسكن والعناية الطبية اللازمة لنموه الجسمى والعقلى ولحفظه فى حالة صحية جيدة من مولده إلى مماته واضاف إلى ذلك حق الإنسان فى التعليم وحقه فى العمل إلى آخره .

ومن البدهى أنه ليس لتصريح ديجون وليس لتصريح ويلز قيمة الوثائق الرسمية. ولكن هذين التصريحين يدلان دلالة جلية على الاتجاه الجديد للنظام الاقتصادى والاجتماعى .

فالاجماع منعقد الآن على حق الإنسان فى القوت وفى العلاج وفى التعليم . إلى جانب صيانة الحرية الفردية وصيانة الأمن والسلامة .

وهذا الوضع الجديد لحقوق الأفراد لا مناص لنا من الوصول إليه فى القريب العاجل فليس إذن من مصلحتنا أن نتجاهله فنكون كالنعامة التى تضع رأسها بين جناحيها هربا من الأخطار . وهو يضع على الشارع عبء وضع تشريعات جديدة تكفل تحقيق الأغراض المتقدمة ؛ وتضع عليه على الأخص مسئولية اقتصادية واجتماعية هائلة. وفى رأينا أن مواجهة هذه المسئولية تستلزم أول ماتستلزمه وضع برنامج واف لزيادة الثروة المصرية ؛ فالمشكلة فى غاية الخطورة لأننا أمة يزداد عدد سكانها زيادة كبرى سنة بعد أخرى ولا نشغل إلا رقعة ضيقة من الأرض، ومواردنا الزراعية محدودة ، ومستوى المعيشة لدينا منحط ومستوى إيرادنا القومى تافه . وقد نسب بعض الباحثين هبوط مستوى المعيشة بين الفلاحين إلى سوء توزيع الأراضى الزراعية وكثرة الملكيات الكبرى ورأى أن العلاج يقوم على توسيع الملكيات الصغيرة على حساب الأراضى الواسعة التى تملكها الحكومة . ومع الاعتراف بسوء هذا التوزيع ووجوب جعل الملكيات الصغيرة أساسا للتصرف فى أطيان الحكومة فإن هذا الاقتراح لا يحل المشكلة ولا حلا جزئيا . وهو لا يزيد الايراد القومى قرشا واحدا . فان أطيان البلاد المصرية المزروعة فى الوقت الحاضر تبلغ حوالى خمسة ملايين ونصف مليون من الأفدنة ، فاذا أضيف إليها كل ما يرجى إصلاحه بعد توفير مياه الرى له فإنه لن يتعدى سبعة ملايين إلى ثمانية ملايين من الأفدنة . وعلى ذلك فإن متوسط مايصيب الفرد فى مصر من هذه الأراضى لن يبلغ نصف فدان وسيقل هذا المتوسط على مدى الزمن مع ازدياد السكان .

إنما الحل الصحيح للشكلة أن يواجهها المشرع فى سرعة وجرأة وحزم وأن يضع برنامجا شاملا واسع المدى ينفذه فى العشر السنوات المقبلة على أن يبدأ فى الحال بتنفيذ مايستطاع تنفيذه منه وأن يستبق إلى ما بعد الحرب مباشرة تنفيذ ما لا يستطاع البدء فى تنفيذه فورا بسبب انقطاع الواردات من الخارج . ويجب أن يقوم هذا البرنامج على الأسس الآتية :

أولا — العمل على توفير المياه لجميع الأراضى البور فى البلاد المصرية . ويجب أن يتم هذا لا فى خمسين سنة ولا فى ثلاثين سنة ولا فى عشرين سنة بل فى أقصر مدة إذ لا يجوز أن يبقى شبر واحد من أراضى مصر بغير زراعة بسبب عدم وصول المياه إليه والناس يتضورون جوعا . لست مهندسا ولا علم لى بأصول الرى ولا بالصعاب التى قد تعترض تحقيق هذا البرنامج من الوجهة الفنية . ولكن الذى أعرفه أن همم الرجال تذلل الجبال والذى أعرفه أن الأمم لا تعنى كثيرا بأن يبين لها أولو الأمر فيها الصعاب التى تعترض مصالحهم ولكنها تعنى بأن يشروها بأنهم ذللوا تلك الصعاب .

والأمر الثانى العمل على أن تنتج الأرض المصرية أقصى ما تستطيع إنتاجه من الغلة. وأن تتخذ الإجراءات التشريعية لالزام المالك بالعناية بزرعة أرضه وباستخدام الوسائل التى تكفل تحقيق هذا الغرض فلا يباح له أن يسيء استغلالها وأن يقصر فى تعهدها بالأسمدة الكافية . وقد يعترض على هذا بأن فيه حدا من حرية المالك . ولكن مثل هذا الاعتراض قد انقضى عهده. فان حرية المالك تقف عند حد الإضرار بالغير أفرادا كانوا أو جماعات ولا نزاع فى أن أى اهمال من المالك فى زراعة أرضه يجلب الأذى والضير للأمة . لأنه إذا كان الفدان يغل مع العناية سبعة أو ثمانية أرادب من القمح مثلا ولا يغل مع نقص العناية إلا ثلاثة أو أربعة أرادب، فإن العجز لا يخسره الزارع وحده ولكن تخسره كذلك الأمة التى تحتاج الى هذا القمح لغذائها . فلا مناص إذن من اعتبار الملكية خاضعة لحق ارتفاق للأمة أساسه أن يحسن المالك استغلالها لا لمصلحته فحسب ولكن لمصلحة الجماعة كذلك .

وقد يعترض كذلك على هذا التدخل بأنه نوع من التحكم لم يعرف عن الأمم الديموقراطية وقد يكون هذا صحيحا ولكن أية قيمة له. إن الأغراض الجوهرية التى تتوخاها الديموقراطية هى صيانة ما للشخصية الانسانية من حرمة وكرامة وكفالة نصيب الفرد فى حكم بلده واعتبار داره معقلا لحريته وضمان حرية القول والرأى والعقيدة وغيرها من الحريات العامة . أما فيما يتعلق بالانتاج وتنظيمه فأى ضير فى أن تأخذ الأمم الديموقراطية بمحض سلطانها وبقرارات حرة من ممثليها بوسائل معمول بها فى بلاد غير ديموقراطية إذا كانت هذه الوسائل وحدها هى التى تكفل للجماهير قوتها ورخاءها ولا تتعارض مع الحريات الأساسية ؟ إن جميع الآراء والنظم تتفاعل ويؤثر بعضها فى بعض . ومن حسن حظ الناس أنه لا يكاد يوجد نظام

إنسانى كله حق أو كله باطل . ولأمثلة عديدة على اتجاه أكبر الدول الديموقراطية إلى ضروب من التدابير التشريعية تخالف مألوفها . أما هنا فى مصر فقد سبق للمشرع المصرى حتى من قبل الحرب أن يتدخل فى زراعة القطن بفرض الدورة الثلاثية . وبفرض أنواع معينة منه . ثم هاهو يتدخل اليوم تدخلا أوسع مدى لضمان توفير الحبوب للمصريين . كما أن الحكومة المصرية تدخلت تدخلا قويا فعالا فى تنظيم إنتاج الغزل بأمرين عسكريين : أحدهما فى أكتوبر سنة ١٩٤١ رقم ١٩١ والثانى فى نوفمبر سنة ١٩٤١ رقم ١٩٦ ، ففرضت على النساجين الذين يعملون على "الأنوال اليدوية" ضرورة الحصول على ترخيص لتشغيلها وحرمت عليهم أن ينسجوا أى نموذج غير نماذج الأقمشة المبينة فى الترخيص . كما فرضت على مصانع النسيج الميكانيكية أن تقصر انتاجها على عدد محدود من الأصناف النموذجية للمنسوجات القطنية وترك تحديد هذه الأصناف وتحديد الكميات التى يجب على كل مصنع صنعها من كل نموذج الى لجنة مهمتها إيجاد التوازن بين الإنتاج المحلى والاستهلاك .

وهذان الأمران مثل فريد من التحكم فى الانتاج والسيطرة عليه ، وقد دعت اليه ضرورات الحالة الحاضرة . إذ كان على الحكومة إما أن تنتقص يديها من الأمر وتترك للمصانع حرية الانتاج كيفا ونوعا فيعجز الفقراء عن الحصول على الكساء الذى يحتاجون اليه وإما أن تتدخل فتضمن لهم كساءهم. فلم يكن لها مناص من الثانى . وقد يقال أن هذا إجراء شاذ اقتضته الضرورة وسيزول بزوالها. ولكن يجب أن نعلم أن الكثير من الاجراءات التى نعدها اليوم شاذة ستصبح من الأمور العادية المقبولة بعد الحرب إذا قام من الأسباب ما يدعو اليها . وسيكون تنظيم الانتاج الزراعى والصناعى من الشؤون التى يرجح أن الشارع سيوليها دائما عنايته والتى لن تأنف أعرق البلاد ديموقراطية من تعرض المشرع لها . بل إنه من المرجح إن لم يكن من المحقق أن تنظيم الانتاج فى مختلف البلاد سيكون دوليا لا محليا بمعنى أنه سيكون محلا لاتفاقات دولية — نرجو أن تكون اتفاقات حرة — تعقدها بعض الدول مع البعض الآخر طبقا لمصلحتها .

وإلى جانب توفير المياه لكل الأراضى المصرية الصالحة للزراعة وضمان استغلالها على أحسن طرق الاستغلال ينبغى أن يتضمن البرنامج العشرى تنشيط الصناعات الزراعية بكل الوسائل وإلى أبعد مدى بحيث لا يبقى محصول واحد من المحاصيل الزراعية المصرية من غير استغلال صناعى متى كان هذا لاستغلال الصناعى ممكنا . إذ الواقع أنه لا فائدة ترتجى من الكلام عن رفع مستوى المعيشة فى مصر بغير تحوّل مصر إلى بلد صناعى وغير الإنتاج . وسيبقى الفقر ملازما طبقات العاملين فيها ما دام كل اعتمادها أو جله على الزراعة .

كذلك يجب أن يتضمن البرنامج استنباط كل ثروة مصر المعدنية . فمن المعروف أن فى جوف مصر مقدارا لا يستهان به من المعادن. وفى أسوان على الأخص منطقة واسعة من

مناجم الحديد . وقد ثبت أن نسبة الحديد الخام بها ٦٣٪ وهى نسبة لايكاد يصل اليها أى منجم للحديد فى العالم .

ومما يتصل بتنشيط الصناعات واستنباط الثروة المعدنية وجوب العمل على توفير القوى الكهربائية اللازمة لتموين الصناعات بما هى فى حاجة اليه . وهنا يخطر على البال فى كثير من الحسرة والأسف مشروع استنباط القوة الكهربائية من مساقط المياه فى خزان أسوان. هذا المشروع العظيم الذى عرض على بساط البحث منذ نحو ثلاثين سنة . وكان أولو الأمر يتهيبون الإقدام عليه لأسباب يرجع أكثرها إلى خشية مظنة السوء فيهم. ولا يمكن أن يفسر هذا إلا بأنه مظهر من مظاهر الضعف والهرب من المسؤولية والتردد وعدم الثقة بالنفس. وقد تواضع هذا المشروع آخر الأمر وقصر الغرض منه على استخراج السماد وصحت النية على تنفيذه . فحالت ظروف الحرب دون التنفيذ . ولو أن المشروع نفذ من سنوات طويلة حتى ولو كان قد رسا على المقاولين بقيمة غبنت فيها الخزانة المصرية بمليون أو بمليونين من الجنيهات لكانت البلاد قد غنمت منه غنما لايقدر . بل إنه لو نفذ على شكله المتواضع الخاص باستخراج السماد لما ثارت فى وجهنا اليوم مشكلة التموين ومشكلة السماد أو كانت حدة المشكلتين قد خفت كثيرا . على أنه لا فائدة الآن من التحسر على ما فات . فان الأمم والحكومات كثيرا ما تخطئ . ولكن الأمم الحية هى التى تعرف أخطاءها وتعرف الاسراع والحزم فى تصحيحها بل وفى الاستفادة منها .

فالبرنامج العشرى يجب أن يتضمن حتما تمام هذا المشروع . وإنما على قاعدة واسعة لايكتفى فيها بالاستفادة منه لاستخراج السماد . ولكن يكون أساسها الاستفادة منه بأقصى أنواع الاستفادة ، ومنها امداد المصانع بالقوة الكهربائية التى تحتاج اليها اذا كان ذلك فى الامكان . لندع المشروعات المتواضعة، القصيرة المدى ولنمد أبصارنا وآمالنا ومطامعنا إلى أوسع الآفاق وأبعد الغايات . ولنسر بخطى واسعة جريئة تتناسب مع ازدياد السكان ومع تطلع سواد الناس إلى حياة أقل شقاء وأقل تفاهة وأقل بؤسا من تلك الحياة التى درجوا عليها إلى اليوم .

مثل هذا البرنامج يجب أن يقدم إلى البرلمان فى أقرب فرصة . فإذا أقره وسارت الحكومة فى تنفيذه بجد وعزيمة غير وانية ولا مترددة فتح أمام الشعب المصرى والشباب المصرى ورؤوس الأموال المصرية آفاقا واسعة وحل المشكلة الاقتصادية والإجتماعية إلى عدة أجيال آتية :

ويجب أن يقترن هذا البرنامج الواسع النطاق ببرنامج صحى يعادله فى اتساع نطاقه أساسه أن يكون لكل الفقراء رجالا ونساء وأطفالا حق العلاج المجانى ، وأساسه أن تكون خدمة الطبيب فى الأوساط الزراعية والصناعية الضعيفة الموارد خدمة عامة إجبارية تؤدى

بجميع الناس بلا استثناء ، فانه لا يجوز بحال أن يمرض إنسان فلا يجد من يمرضه وأن يحتاج إلى عملية جراحية لا بد منها لانقاذ حياته فلا يجد من يجريها له لفقره فيموت . لا يجوز أن يحصل هذا إطلاقا لأن الحياة البشرية متساوية القيمة لا فرق فيها بين غني وفقير . ووظيفة الدولة أصلا العمل على تأمين الناس وتأمين سلامتهم وهي في هذا السبيل تبادر عند أول إخطار الى تحريك رجالها وشرطتها لحماية أي فرد من عدوان السارق والقاتل دون أن تطالب الفرد الذي تحميه بأجر معين عن هذه الحماية على اعتبار أنها تدخل في عموم وظيفتها . وهي تبادر عند كل طلب الى إرسال رجال المطافئ الى أي دار تشب فيها النيران دون أن تطالب صاحب الدار بأجر معين عن عملية الاطفاء على اعتبار أنها تدخل في عموم وظيفتها كذلك . ولكن فكرة السلامة يجب أن تخرج عن معناها الضيق وأن تتسع بحكم ازدياد فهم الناس لمعاني التضامن الانساني فلا تقف عند حد الحماية من العدوان الظاهر . اذ المرض أشد تهديدا لسلامة الأفراد والمجموع من الاجرام والنيران .

بيد أن تنفيذ مثل هذه البرامج الشاملة الواسعة تعترضه بطبيعة الحال صعوبة عظيمة هي كثرة ما تقتضيه من النفقات . والواقع أن تنفيذها يحتاج الى عدة ملايين من الجنيهات سنويا فوق الاعتمادات التي تخصص في الميزانية عادة للأعمال الجديدة ولكن مصر لا تعجز عن تدبير هذا المبلغ لهذه الأغراض العظيمة التي تضاعف ثروتها ورخاءها . وفي الميزانية أبواب كثيرة للانفاق يمكن ضغطها ضغطا شديدا . وليس المجال هنا مجال تبيان هذه الأبواب اجتنابا لما قد يثيره البحث حولها من اختلاف وجدل . ثم إنه يرجى أن تزيد مواردنا من الضرائب الجديدة زيادة كبرى بعد استيفائها ، وبعد تمام استقرار الأداة التي تقوم على تحصيلها . ونحن لم نبدأ بتصحيح نظام الضرائب الا من عهد قريب ولا نزال في بدء الطريق . ثم ان هذا التصحيح لا يعد سليما وتاما إلا عندما تفرض الضريبة الاضافية على الايراد العام متى تجاوز رقما معينا في السنة وبنسبة تصاعدية تزداد كلما زاد رقم الايراد . وهذا التصحيح لا منص منه ولا مندوحة عنه أخذا بالقواعد السليمة التي تقضي بازدياد العبء كلما ازدادت المقدرة على أدائه والتي تترتب على فكرة ازدياد مسئولية القادرين في الأمة نحو المجموع . وسيكون التشريع الخاص باستكمال نظام الضرائب وفي طليعتها الضريبة على الايراد العام مما ينبغي أن يواجهه المشرع في القريب العاجل .

لست أزعم أنني بسطت جميع المشكلات التي يواجهها المشرع لأن هذه المشكلات لا تقع تحت حصر . وهي تتولد وتتجدد كل يوم .

ولست أزعم أنني فيما عرضت له من تلك المشكلات قد بسطتها بسطا وافيا شافيا أو أنني فيما أشرت به من علاج قد أصبت المرمى فقد يكون في رأيي الصواب وقد يكون فيه الخطأ .

وإنما أردت أن أطرح رءوس المسائل لبحث الباحثين .

وأردت كذلك أن أنبه الى أن العالم اليوم فى مفترق الطرق . وأن الزمان يوشك أن يلد نظما جديدة غير النظم القائمة . فان الحرب القائمة اليوم حرب عالمية تصطلى كل الأمم والشعوب بنارها ولو لم تشترك فيها اشتراكا فعليا. وهى الى جانب كونها صراعا على السلطة والنفوذ وعلى مصادر الثروة وعلى توزيع الخامات فى العالم ، هى الى جانب هذا كله صراع على نظريات ومبادئ فلسفية واجتماعية وسياسية متنافرة . وكل من المجموعتين المتصارعتين تنادى بأنها ستنشئ بعد الحرب صرح نظام اقتصادى جديد . فلا خلاف بينهما إذن فى أن الصرح القائم الآن سينهار . وليس ثمة ريب فى أنه مهما تكن نتيجة الحرب فما من أمة على وجه الأرض ستبقى بمعزل عن التأثر بالنظام الجديد وعن الانسياق فى تياره . فمن الواجب أن نعد عدتنا لهذا التحول المحتوم . ومن الواجب أن تؤلف الحكومة منذ الآن أداة ولجانا فنية لدراسة التطورات الحالية والتطورات المنتظرة حتى لا نؤخذ على غرة يوم يتاح لنا أن ندعى الى مؤتمر الصلح أو الى المجامع الدولية للاشتراك فى التنظيم الاقتصادى المنتظر وفى الدفاع عن المصالح المصرية .

وبعد فليس لنا بعد اليوم أن نحجم عن مواجهة مشكلاتنا فى رجولة وعن اتخاذ التدابير الحازمة لحلها حلا عاجلا ناجعا . مهما تقتض من مسؤوليات وتضحيات . إن مواجهة المسؤوليات أمامنا والفقر والبؤس والذلة وراءنا فعلينا أن نختار . ولا شك عندى فى أن مصر ستعرف أن تختار . وستختار طريق المصلحة والعزة لا تتردد ولا تقصر ولا تقبل أن ينطبق عليها بيت شوقى .

إن المنى لم تقصر   بل قصر المتمنى

حبيب المصرى

أهميـة المعارض اقتصاديا واجتماعيا

لحضرة صاحب السعادة فؤاد أباظه باشا

مدير عام الجمعية الزراعية الملكية

طلبت الى مجلة الشؤون الاجتماعية أن أكتب عن أهمية المعارض اقتصاديا واجتماعيا .

وانى أتشرف بتلبيـة الدعوة ، جاعلا موضوعى مبنيا على ما حدث فعـلا فى المعرض الزرعى الصناعى الذى أقامتـه الجمعية الزراعية بجزيرة القاهرة من ١٥ فبراير الى ١٥ أبريل سنة ١٩٣٦ — وكان موعد إقامة المعرض بعده فى مثل هذا الموعد من السنة الماضية إلا أن أحداث الحروب قد أجلته خمس سنوات أخرى فيكون موعده القادم فى أوائل سنة ١٩٤٦ إن شاء الله .

أما من الناحية الاقتصادية فقد جمع المعرض فى ساحة واحدة متقاربة الجنبات مئات العارضين من الزراع والصناع والتجار . والإنسان مطبوع على حب الترق والتقليد لما هو حسن ، فأتيحت الفرصة لكل منهم لكى يقارن بين ما عنده وما عند غيره ، وما وصل إليه وما وصل إليه غيره ، ولا شك أن الزراعة والصناعة والتجارة وكل مظهر من مظاهر النشاط الاقتصادى تتأثر بالبيئة تأثرا واضحا . ومصر على الرغم من أن تعداد سكانها يبلغ نحو السبعة عشر مليونا إلا أن رقعة أرضها ممتدة امتدادا كبيرا ، ومناخها وإن تقارب إلا أنه مع ذلك يختلف إلى حد يسمح باختلاف الأساليب فى الزراعة والصناعة والتجارة من إقليم إلى إقليم ، وقد يتفق الزارع من أهل الصعيد عمره دون أن تتاح له فرصـة للاتصال عن قرب بالزراع من أهل الوجه البحرى والتعرف على أساليبهم وتقاليدهم فى الزراعة ، وما قيل عن الزارع يقال عن الصانع وعن التاجر ، فقد أتيح لكل منهما أن يتصل عن قرب بإخوانه وأقرانه من مختلف أنحاء مصر ، وأن يرى نتاج تفكيرهم وسعيهم معروضا على مقربة منه .

ولقد كان هذا التجمع عظيم الفائدة من غير ريب لأنه ساعد على تحسين الوسائل العتيقة والأخذ بالوسائل الجـديدة ، وساعد على التقريب بين مختلف نواحى الإنتاج فى البـلاد وتنسيقها تنسيقا لا شك أنه يعود بنتائج كثيرة طيبة على الأفراد أولا ثم على المجموع أخيرا .

وهكذا أفاد المعرض فى أنه بعث روح المنافسة الشديدة بين الطوائف المنتجة فى البلاد ، وأتاح لها الفرصة لتبادل الأساليب والأخذ بأفضلها نتيجة وأكثرها فائدة .

كان كثيرون من المصريين وعلى الأخص من أفراد الطبقات الغنية الذين يعيشون فى المدن يجهلون الكثير عن تقدم الصناعة فى بلادهم ، وكانوا يعتمدون فى شراء حاجياتهم على المتاجر الأجنبية والمصانع الأجنبية ، إما تظاهرا منهم بالثروة والتمدين الأوروبى ، أو رغبة فى أن يقال عنهم إنهم من طبقة عالية ، وإما اعتقادا منهم أن المصنوعات المصرية لم تبلغ درجة الإتقان المطلوبة . شاهد هؤلاء بأعينهم فى المعرض الزراعى الصناعى لسنة ١٩٣٦ نماذج ناطقة بمقدار ما بلغته الصناعة المصرية من تقدم وما حققته من إتقان . وشعروا أن المصلحة الخاصة قبل المصلحة الوطنية الصحيحة ، تناديهم بتشجيع الصانع المصرى والتاجر المصرى ، وتشجيع المصنع المصرى والصناعة المصرية .

على أن غمط الصناعة المصرية حقها لم يكن مقتصرا على أفراد هذه الطبقات الغنية فحسب . ولكنه كان يمتد إلى فريق كبير من الطبقات المتوسطة ، ولم يكن السبب فى انصراف هذ الفريق عن الصناعة المصرية إلا عدم معرفته بوجودها أو عدم اطمئنانه إلى جودتها وإتقانها ، ومن ثم كان ينصرف إلى الصناعة الأجنبية يفضلها على غيرها ويشترى منها حاجاته ، وكان يعد شراءه بعض حاجاته من الصناعة المصرية بمثابة تضحية ، يبررها أحيانا بالرغبة فى تشجيع عمل وطنى .

جاء معرض سنة ١٩٣٦ فبدد كل هذه الشكوك ، وأثبت للجميع بأدلة ناطقة محسوسة أن كل ما ألصقوه بالصناعة المصرية والصناع المصريين كان تجنيا .

ويمكن أن نعد — دون مغالاة — معرض سنة ١٩٣٦ البداية الصحيحة لاستقرار الصناعة فى مصر . نعم إن معرض سنة ١٩٢٦ ومعرض سنة ١٩٣١ قد شمل معروضات كثيرة للصناعة المحلية ، ودلا لمن كان ينظر للأمور بعمق حينئذ على أن هذه الصناعة لا بد بالغة مرحلة الاستقرار والتوطد قريبا . ولكن كانت هناك أعين كثيرة تنظر بريبة . فلما جاء معرض سنة ١٩٣٦ حقق نظر الفريق الأول وقضى على كل ريبة كانت تساور الفريق الآخر .

وما يقال عن الصناعة فى هذا الصدد يمكن أن يقال مثله عن الزراعة ، ولكن من طريق آخر . ولا شك أن شهرة مصر الزراعية شهرة عريقة ترجع إلى آلاف السنين فان يد النيل الساحرة قد أحالت صحراءها الجرداء منذ امتدت تجمع بين أعالى الوادى والبحر . فقيمة مصر الزراعية لم تكن يوما من الأيام موضع شك ، وخصوبة أرضها ظلت مضرب الأمثال منذ العصور القديمة ، ولكن الزمن يتطور ، وأساليب الزراعة تنتقل هى الأخرى من مرحلة إلى مرحلة ، وهى تخرج عن الأساليب القديمة التى كانت قائمة على التجربة والفهم المحليين إلى الأساليب العلمية القائمة على دراسة التربة والمناخ وتأثير المخصبات الكيماوية عليها وتنويع

الحاصلات طبقا لحاجات الأسواق . وقد احتوى معرض سنة ١٩٣٦ كثيرا مما يفيد فى هذه الوجوه جميعا .

وقد زاره مئات الألوف من الزوار من أقصى أنحاء مصر . وكثيرون ممن زاروه — كانوا يحضرون إلى القاهرة لأول مرة ، لذلك شعروا أنهم يلمحون جديدا يغاير ما درجوا عليه . وإذا كانت الأمية فاشية بين الكثرة الغالبة من الفلاحين ، فان عيونهم الفاحصة المدققة وقعت على عشرات المعروضات الزراعية ، وآذانهم المتفتحة استمعت لشرح الموظفين المختصين .

ولا ريب عندى فى أن أثر هذا وذاك كان عميقا فى نفوسهم . حملهم على أن يفكروا ويقارنوا بين ما يحصلون عليه من محاصيل باتباع أساليبهم القديمة وبين ما يمكن أن تنتج الأرض لو اتبع فى فلحها ما يشير به العلم وتوصى ابحاث العلماء .

ولست أزعم أنهم انطلقوا إلى قراهم يطبقون أساليب العلم على أرضهم ولكنى لا أشك فى أنهم بدأوا يفتحون آذانهم لكل ارشاد ، ويقبلون تجربة كل أسلوب جديد . وهذا فى نظرى بداية التطور الذى ننشده ، والذى نرجو أن نناع إليه يوما من الأيام وحينئذ تصبح الزراعة المصرية متمشية مع الأساليب العلمية قائمة على تجارب الباحثين .

كذلك فتح المعرض أذهانهم إلى أن الزراعة ليست انتاجا لمحاصيل زراعة فقط ، ولكن يمكن أن يتصل بها ، بل لا بد أن يتصل بها طائفة من الصناعات الزراعية تساعد على تحسين مستوى الكسب العام للفلاح وتحسين مستوى معيشته .

ولم يفد المعرض الزراع والصناع فحسب ، ولكنه أفاد الزراعة والصناعة ذاتهما فان تنسيق معروضاته على الصورة التى نسقت بها وإبراز مجالى النهضة المصرية أتاح للمسؤولين من رجال الحكم والاقتصاد والمال ، أن يلمسوا عن قرب وبصورة مجسمة النهضة المصرية فى بعض صورها وأتاح لهم أن يضعوا أيديهم على مكامن النقص والقصور فيها ومن ثم يضعون أيديهم على النواحى التى تحتاج الى التشجيع والعلاج والدفع الى الأمام .

كان للمعرض أثر واضح فى تحسين وسائل الإعلان عن البضائع وعن المنتجات الصناعية والزراعية ، وفتح أمام التجار بابا واسعا للدرس والتعليم والتجربة ، فهموا منه أن التاجر الذى لا يجارى الزمن تتعثر تجارته ، وأنه لا يطلب من التاجر أن يكون أمينا ومجدا ومخلصا لعمله فحسب ، ولكن يطلب منه أن يحسن عرض سلعته على الناس ، وأن يخلق العملاء والزبائن حتى إذا لم يكونوا موجودين ، فلا يكفى أن تكون البضاعة جيدة الصنع ، معتدلة الثمن ولكن يجب أن ينقل الى الناس هذا الفهم وأن يغريهم بالشراء منه والاقبال عليه . وهذا الفن فى الاعلان يكاد يكون فنا جديدا فى مصر فان جمهرة التجار المصريين لا يكادون يعنون به

كثيرا وهذا على النقيض من التجار الأجانب الذين يرصد كل منهم فى ميزانيته مبلغا ضخما ينفقه فى مطالب الإعلان والدعاية لسلعته .

كان المعرض إذن مناسبة حسنة أوحت بهذا الاتجاه الى كثير من التجار المصريين ، وشاهدوا بالتجربة العملية أثر الإعلان فى ترويج البضاعة وتحقيق الربح .

وليس الاعلان فحسب ولكن حسن العرض . وأقصد عرض البضاعة وتنسيقها على صورة تجذب عين الشارى وتستأثر باهتمامه . والتجار المصريون فى هـذا أيضا متخلفون عن زملائهم الأجانب . ولكنهم شاهدوا فى المعرض كيف كان حظ التاجر الذى أحسن تنسيق بضاعته وأجاد عرضها أوفر من زميله الذى أهمل هذا التنسيق .

وقد أحللنا السودان ومعروضاته مكانهما بين معروضاتنا ، ونزل تجاره وزراعه وصناعه فى عاصمة وادى النيل مكرمين معززين ، وأقبل آلاف الزوار المصريين على معروضات إخوانهم السودانيين يرون فيها جديدا لم يكونوا يعرفونه ، ويرون فيهم اخوانا ربطت بينهم الطبيعة والتاريخ والدين والتقاليد برباط دائم لا تفصم عراه .

لقد أدى المعرض من هـذه الناحية فائدة جليلة ، وكسب من حيث توثيق علاقاتنا الاقتصادية بالسودان ما يعود بالخير علينا جميعا .

وهنا يطيب لى مرة أخرى أن أنوه بفضل حضرة صاحب السمو الأمير عمر طوسون فى تحقيق هـذه الرسالة فان ارشاده السامى وتوجيهه الحكيم وعطفه الواضح على كل جهد فى سبيل توثيق العلاقات المصرية السودانية قد أثمر هذه النتائج الطيبة .

وأما من الناحية الاجتماعية فإنه لا يمكن فصل الاقتصاد عن الاجتماع ، وحيثما تحقق مصالح اقتصادية لا بد أن تنشأ أيضا مصالح اجتماعية . وحيثما تنشأ عوامل اقتصادية تتابعها أو تقترن بها نتائج اجتماعية . ولا عجب فى ذلك فان الاقتصاد هو تدبير المـال وتنظيم حركة الانتاج والاستهلاك ، والاجتماع هو سلوك الفرد فى اتصاله بالجماعة الصغيرة التى يعيش فيها وبالمجتمع الأكبر الذى ينتمى اليه . فالفرد هو قطب الدائرة فى الاقتصاد وهذا الفرد ذاته هو قطب الدائرة فى الاجتماع ، فأيما شىء يؤثر اقتصاديا لا بد أن يكون له عواقب اجتماعية والعكس صحيح أيضا .

وإذا كان من المسلم به أن المعرض كان له أثر حسن فى تحسين الإنتاج الأهلى فى الزراعة والصناعة ، ومن ثم فى زيادة دخل الفرد وتحسين مستوى كسبه سواء كان زارعا أو صانعا أو تاجرا ، فان هذا التحسن فى الدخل يؤدى حتما الى تحسن فى مستوى المعيشة ، ومن ثم فى الحياة الاجتماعية التى يحياها الفرد .

وقد كان المعرض فرصة طيبة جلبت الى القاهرة عشرات الألوف من الفلاحين من أهل القرى . وكثيرون منهم — كما قدمنا — كانو يزورون القاهرة لأول مرة فوجدوا حياة تغاير حياتهم ، ووجدوا مستوى من النظافة والمعيشة خيرا من مستواهم . وفى الفرد رغبة شديدة فى أن يتقدم وفى أن يبذل جهده لتحسين حاله وتقليد من هم أرقى منه . وهم لم يجدوا مستوى أفضل من حيث المعيشة فحسب ، ولكن من حيث الثقافة والفهم والنظام أيضا . ولاشك أن هذا كله كان له أثره فى نفوسهم . واست أزعم هنا أيضا أن هذا الأثر قد بلغ من الوضوح مبلغا يمكن أن يلمسه الانسان ويحسه ولكن مما لاشك فيه أن هذ الأثر وجد ، وأنه كان حقيقة من الحقائق التى لا يسع المنصف الا التسليم بها .

كذلك كان للمعرض أثر آخر لعله أدق وأخفى ، ولكنه مثل سابقه وجد حتما . ذلك أن تجمع عدد كبير من المصريين من مختلف الأقاليم المصرية أتاح الفرصة لنوع من التعارف والتآلف يزيد من غير شك فى مضاء الروح القومية وفى التقريب بين مختلف طبقات الشعب ومختلف سكان البلاد من جميع الأقاليم القريبة والبعيدة .

ونحن حينما ننظر بعمق نتبين أن الشعوب الأكثر تآلفا وقومية هى الشعوب التى تتاح لها الفرص للتعارف والتجمع والتفاهم فى أوساط واحدة ومناسبات واحدة . واذا تقرر هذا فلا بد أن نذكر لمعرض سنة ١٩٣٦ هذه الفائدة . فقد كان أشبه بالمهرجان القومى منه بأى شىء آخر .

كذلك دل المعرض على ظاهرة من ظواهر التطور الاجتماعية فى مصر ، أو بتعبير أدق كان امتحانا لها . وأعنى بهذه الظاهرة احترام المرأة . فقد امتد المعرض نحو شهرين وزاره فى كل يوم عشرات الألوف من الشباب والفتيات والرجال والنساء — زارته كل طبقات الأمة المصرية فكان سلوك الشباب والفتيات والرجال داعيا الى الارتياح ، ودلوا بتمسكهم بالآداب القومية وحسن سلوكهم فى جميع المناسبات على أن المرأة المصرية قد أخذت فى تكوين شخصيتها وفى أن تصبح عاملا هاما فى بناء الجماعة المصرية . وقد اشتركت الفتيات المصريات فى أثناء إقامة المعرض فى مهرجان عيد الوطن الاقتصادى كما اشترك فريق آخر منهن فى الاشراف على معروضات مدارس البنات ، فكان سلوك هذا الجمع مدعاة للاغتباط .

من الناحية الثقافية يصعب مرة أخرى ونحن نتحدث عن آثار معرض سنة ١٩٣٦ ، أن نضع فروقا واضحة دقيقة لمختلف النواحى التى أثر فيها المعرض ذلك لأن الأثر الذى اتجه فى الناحية الاقتصادية مثلا له مضاعفات — كما قدمنا — الناحية الاجتماعية . ونقول هنا إن الأثر الاجتماعى قد يصيب الناحية الثقافية فان هذه الظواهر أو النواحى مترابطة ومتشابكه ترابطا وتشابكا يصعب معه فصل أحدها عن الآخر . فإذا فعلنا ذلك هنا فانما نفعله من قبيل

التنظيم والتنسيق والرغبة فى الإحاطة . أما فى الواقع فان هذه الآثار جميعا أصابت الحياة المصرية فى شتى نواحيها . بدا بعضها واضحا غاية الوضوح وبدا البعض الآخر عميقا غاية العمق ودقيقا غاية الدقة ، حتى ليكاد الإنسان يخطئه ولا يراه مع أنه موجود لا شك فى وجوده .

والمعرض فى أصله زراعى صناعى ولكنه أتاح لآلاف الزوار فرصة طيبة لتوسيع ثقافتهم العامة والاحاطة بكثير من المسائل والموضوعات وجدت أمامهم معروضة أفصل عرض فاخذوا ماشاءوا من المعلومات بأيسر ما يمكن بذله من جهد .

ولم يكن زائر المعرض يخلو شأنه من أمرين فأما أن ما أمامه من المعروضات كان يهمه شخصيا أو يتصل بعمله أو مهنته أو حرفته وإما أنه لا يتصل بها . وهو فى الحالة الأولى يفيد درسا عمليا ويكسب فائدة تساعده على تحسين عمله أو زيادة ربحه من صنعته أو حرفته وفى الحالة الثانية يزيد ثقافته العامة ويكسب تعريفا جديدا بأحوال بلاده ومنتجاتها . فيتفتح ذهنه للتفكير فى حاضرها ومستقبلها . وربما صححت له هذه المعلومات أخطاء قديمة وأفكارا كان يعتنقها ولها فى نفسه مكان العقيدة والايمان .

وكان بين زوار المعرض كثيرون من التجار والصناع والزراع فهؤلاء أفادوا من غير شك ثقافة جديدة . وكان بينه آلاف من الطلبة والمدرسين والمحامين والأطباء والمهندسين فهؤلاء جمعوا إلى معلوماتهم القديمة معلومات جديدة عن ثروة بلادهم وجهد العامل والزارع والتاجر فى تكوينها . وكل واحد من هؤلاء لم يعدم من جانب هذه الفائدة العامة فائدة خاصة يجنيها وتفيده فى عمله إن لم يكن فى الوقت الحاضر ففى المستقبل فأى طالب زار المعرض ولم يجد فيه ما يستوقف نظره مما يتصل بدراسته ومدرسته ، فقد كانت فيه هندسة وطب وزراعة وأشغال وتجارة وصناعة وفنون وآداب . وأى طبيب وأى محام وأى مهندس وأى كاتب أو صحافى أو خطيب جال فى المعرض ولو جولة واحدة دون أن يجنى لنفسه فائدة ثقافية خاصة ؟ أى واحد من هؤلاء لم يجد ما يستوقف نظره وقد جمع المعرض جهد أمة بأكملها فى جيل بأكمله ؟

إن فائدة المعرض الاقتصادية والاجتماعية والثقافية كانت واضحة غاية الوضوح ، وقد أثار الحديث بين الزوار فى كثير من الموضوعات ، وجعلهم يفكرون فى الكثير مما تنتج بلادهم وفى الكثير مما تصنع ، وجعلهم يتباحثون فى حاضرها ومستقبلها ، ووضع أمام أنظارهم بصورة محسوسة فصائل شعبهم القومية وفضائله التاريخية والتقليدية . وضع أمام أعينهم عناصر التقدم والتحفز للنهوض والسير إلى الأمام ، فدفع إلى صدورهم الايمان بمستقبل مصر ومجدها .

فؤاد أباظه

الحياة الاجتماعية فى مصر بعد ربع قرن

للدكتور محمد عبد المنعم رياض بك

"ألقيت فى الجامعة الأمريكية يوم الجمعة ٢٨ فبراير سنة ١٩٤٢
افتتاحا لسلسلة محاضرات عن مصر بعد ربع قرن" .

سيداتى سادتى :

لاأدرى كيف أتصور المجتمع المصرى بعد ربع قرن خصوصا ونحن الآن فى عهد تكتنفه الزوابع والأعاصير ولا يعلم إلا الله كيف تطوح هذه الأعاصير والزوابع بعالمنا وهل يكتب لنا الخير والهناءة والسلام أم يخطئنا التوفيق ، لا أدرى إذا كان لنا أن ننظر إلى مثل هذا المستقبل بعين التشاؤم نظرا لما يلقاه العالم من أنواع الحروب والويلات وما يحيط به من بؤس وشقاء أم ننظر اليه متفائلين آملين فى الخير بعد الشر وفى الفرج بعد الضيق — والتفاؤل والتشاؤم منظاران طالما استعملهما الناس فى كل العصور .

فأى خطة نختار إذا أردنا أن نتنبأ بما يكون عليه حال مجتمعنا بعد خمس وعشرين سنة وبأى منظار ننظر خلال سحب المستقبل الكثيفة لنتبين منها ما نعتقد أنه سيكون حظ قومنا بعد هذه الحقبة؟ فى الواقع يجب أن لا نستسلم للتشاؤم حتى لا يغشى على أبصارنا، كما يجب أن لا نغرق فى التفاؤل فلا نرى الأشياء على حقيقتها ، ولا سبيل للابتعاد عن هذين القطبين اللذين يتنازعان البشر عادة وهما التشاؤم والتفاؤل إلا إذا اخترنا طريقا سليما يصل بنا إلى نتيجة لا أقول إنها مؤكدة الحصول بل يكفى أن تكون محتملة تتفق مع العقل والمنطق السليم — هذا الطريق هو الطريق العلمى القائم على استنباط النتائج من المقدمات الصحيحة، مثله فى ذلك مثل الخطة المحكمة التى يرسمها القائد المحنك على أساس تجاربه ومالديه من قوة أو عتاد وما يكتنفه من سهول أو جبال أو غير ذلك من مميزات الطبيعة أو ظروف الحال، أو مثل التصميم الذى يضعه المهندس الكفء لدار يبنيها فيحسب حساب الأرض التى يقام عليها البناء ووضعها ومبلغ متانتها أو ضعفها ومدى مساحتها والأراضى أو المبانى المجاورة لها والتكاليف التى يحتاج اليها البناء ومبلغ مقدرة صاحبه على دفعها ، فيضع تصميمه للبناء المستقبل على أسس صحيحة سليمة .

ولعله إذا اتخذت قواعد سليمة على أساس الماضى والحاضر وبنى عليها المستقبل أمكننا أن نتنبأ بما يمكن أن يؤدى اليه التطور الطبيعى لمجرى الحوادث وربما تمكنا بذلك من درس المستقبل دراسة لاتقل فى صدقها عن دراسة التاريخ الماضى وقد يأتى الوقت الذى يدرس

فيه فى المدارس علم المستقبل كما يدرس علم التاريخ بل قد تكون فى دراسة المستقبل فوائد تفوق فوائد دراسة التاريخ، لأنه إذا لم نستطع تغيير الماضى فان فى استطاعتنا أن نؤثر بتفكيرنا على عالمنا فى الغد . وقد يكون أيسر لنا أن نرسم صورة للمستقبل بعد خمس وعشرين أو خمسين سنة من أن نرسم صورة لما يحدث بعد سنة أو سنتين ، وهذا شبيه فى كتابة التاريخ فانه من الأسهل أن يكتب تاريخ الحوادث البعيدة عن أن يكتب تاريخ الحوادث القريبة منا إذ ليس من السهل أن ننظر إلى العهود الحديثة بالعين المجردة عن الهوى وزنها بميزان صادق .

كذلك تمتاز دراسة المستقبل عن دراسة الماضى بأننا لن نهتم فى المستقبل بالمسائل الثانوية بل نوجه اهتمامنا إلى التطورات الهامة التى ننتظر حدوثها . أما فى دراسة التاريخ فان جزءا كبيرا منها يدور حول أمور تافهة كأسماء لاتفيد كثيرا بجانب الأفعال التى كان لها أثر كبير فى تغيير مجرى الحياة بين الناس ، وهذه الأسماء لن تكون موضع بحث فى دراسة المستقبل فلن يهم مثلا أن يكون رئيس دولة فى المستقبل اسما معينا وإنما قد يمكن إعطاء فكرة صحيحة بقدر الامكان عن طرق المعيشة بعد حقبة معينة من الزمن وعن الملبس والمأكل وطرق المواصلات وغير ذلك من وسائل الحياة فى مستقبل الأيام .

قد يعترض على فكرة دراسة المستقبل على أساس التطور والتقدم بأن هذه الفكرة قائمة على فرض قد لا يتحقق وهو أن العالم يسير دائما نحو الأمام دون وقوف أو تراجع ، ولكن نظرة واحدة للماضى تكفى للرد على هذا الاعتراض . حقيقة مر بالعالم زمن كالقرون الوسطى يلوح لنا فيها أن تقدم البشر توقف فترة ولكن إذا نظر إلى هذه الفترة نظرة واسعة لوجد أنها كانت مؤقتة وأن تطور الحياة لا يقف بسبب مثل هذه الفترة أو ما يشابهها ، مثله فى ذلك مثل تفكير الانسان الذى قد يعطل يوما أو بعض يوم بسبب جوع طارئ أو تخمة أو غير ذلك من العوارض المؤقتة ثم يعود التفكير صافيا بعد زوال العارض ، وما العوارض التى تعترض سير تطور الانسانية وتقدم العالم إلا كالأمواج التى تعلو وتنخفض فوق سطح المجرى الكبير ولكن لا تؤثر على سيره واتجاهه ، أو كحجر قد يقع فى طريق النهر الجارى وقد يحجز الماء فترة ولكن لا يلبث أن يتغلب عليه المجرى فتتجمع المياه المختزنة خلف الحجر وتطفو عليه وتسير فى طريقها .

وعند دراستنا للمستقبل نتجرد من المؤثرات الشخصية أو النفسية فنترك العواطف جانبا وننظر إلى ما نعتقد أن المنطق ومجرى الحوادث يؤديان إليه دون تأثر بحكمنا الحالى على الأشياء وتقديرنا الضيق لها . ألا نجد مثلا أن كثيرا من البلاد الغربية كانت تنظر إلى نظام اجتماعى كنظام الطلاق نظرة الازدراء والاشمئزاز وتعتبر أنه يخالف قواعد الاجتماع بل قواعد الآداب . وها نحن أولاء نرى أغلب التشريعات الحديثة الآن تنظم الطلاق وتيسره وتحايل على النصوص القديمة التى كانت تحول دونه لتجد منها مخرجا يسمح للزوجين اللذين لا يستطيعان الاستمرار

فى حياتهما المشتركة أن ينفصلا دون أن يكون فى ذلك ما يثير المجتمع أو يخالف القانون، ولكن الباحث فى تاريخ التطور الاجتماعى كان يستطيع لو وضع نفسه فى العهد الماضى الذى كان الطلاق فيه محرما فى البلاد الغربية أن يستنتج من تطور المجتمع أنه سيأتى اليوم الذى يباح فيه مثل هذا النظام . والآن ألا ترى أن بعض الكتاب الغربيين يستسيغون فكرة كانوا يقاومونها كل المقاومة وهى فكرة تعدد الزوجات باعتبار أن الحروب المتوالية التى تصيب البشر قد تؤدى إلى اختلال النسبة بين الذكور والإناث مما يجعل مثل هذا النظام جائزا بل مرغوبا فيه ؟ فالباحث فى المستقبل يجب أن يتجرد عن ميوله الخاصة ونظراته الضيقة وينظر إلى أفق واسع بعيد عن قيود الزمان والمكان .

قد تكون هناك عقبة فى بحث المستقبل وهى تقدير المواعيد أو التواريخ التى تقع فيها التطورات المنتظر حدوثها نتيجة للتقدم المطرد . ولكن أهمية هذه المواعيد قليلة نسبيا إذا قيست بالمدى الذى يبلغه التقدم ، فإذا هدانا البحث مثلا إلى توقع اليوم الذى يمكن فيه خزن الكهرباء أو تجميع أشعة الشمس أو غير ذلك من الاكتشافات التى تغير وسائل معيشتنا تغييرا كبيرا ، فلا يهم بعد ذلك أن نحدد الميعاد بالضبط الذى سيخرج فيه هذا الاكتشاف إلى حيز الوجود ، قد يكون ذلك غدا وقد يكون بعد عشرات السنين ، ولكن إذا نظرنا إلى تطور الأبحاث العلمية فى هذا الشأن وإلى اتجاهها أمكننا أن نستنتج استنتاجا صحيحا وهو أن مثل هذا الاكتشاف سيخرج يوما ما وربما كان فى هذا الاستنتاج ما يهيئ الأذهان له ويشحذ الهمم إلى تحقيقه .

قرأت منذ بضعة أيام فقط أنه قد أمكن اكتشاف مادة جديدة تعطى فى حالات نقص الدم بدلا من عملية نقل الدم المعروفة ، وأن هذه المادة يمكن نقلها فى صورة مسحوق أو سائل ولا يتطرق اليها الفساد . مثل هذا الاكتشاف كان منتظرا منذ مدة لأن الأبحاث الدائرة حول عملية نقل الدم وما يحيط بها من دراسات مختلفة كدراسة أنواع الدم وغير ذلك كان ينتظر أن تؤدى حتما إلى الوصول إلى اكتشاف وسيلة لاختزان الدم حتى يمكن نقله فى أى وقت ثم إلى التقدم خطوة أخرى واكتشاف مادة تحل محل عملية نقل الدم .

تحضرنى الآن أمثلة من هذا القبيل ذكرها الكاتب الانجليزى د . ج . ويلز فى أبحاثه عن المستقبل ، فقد تكهن فى أول هذا القرن بما يصل إليه الطيران وإن كان أخطأ فى تقدير الوقت إذ ذكر أنه ستطير الطائرات قبل سنة ٢٠٠٠ بل قدر احتمال ذلك قبل سنة ١٩٥٠ أى توقع تقدم الطيران ، وإنما قدر له نحو خمسين سنة على الأقل ولكن لم تمض ست سنوات على ظهور كتابه فى هذا الشأن حتى بدأ الطيران فعلا ، إذ شرع الأخوان رايت وهما من أوائل الطيارين فى تجربة الطيران ، وها نحن أولاء الآن ولما نصل بعد إلى سنة ١٩٥٠ نرى الطيران يخطو خطوات جبارة حتى أصبح هو العامل الأكبر فى الحرب الحالية .

وبمناسبة ذكر الكاتب ويلز أذكر له نبوءتين: الأولى أنه تنبأ فى أوائل القرن الحالى أيضا عن استعمال وسيلة ذكر أنها ستكون من أهم وسائل الحروب وهى الدبابة فلما جاءت الحرب العالمية الماضية بدئ بها كتجربة أولية، وهانحن نراها فى الحرب الحاضرة، من أهم وسائل القتال، ونبوءته الثانية أن حربا ضروسا تهلك الحرث والنسل تصيب المدنية الحاضرة وأن مدنية جديدة ستقوم فى الشرق تضع قواعد جديدة حتى للملبس وتستطيع أن تتصل بالإجرام السماوية الأخرى كالمريخ والقمر وغير ذلك ويكفى للاشادة بأهمية دراسة المستقبل أن نشير إلى نبوءة كنبوءة الدبابة وأهمية العمل على تحقيقها وأثر ذلك فى حرب كالحرب الحالية .

ولعلنا نجد أن الاهتمام ببحث المستقبل قد زاد الى درجة تجعله موضع اهتمام هيئة أو مصلحة تتوفر على بحثه واستنباط ما ينتظر حدوثه وتوجيه الجهود للوصول الى خير النتائج. فكما يوجد مكتب للأرصاد الجوية يقوم مكتب للأبحاث المستقبلة يتولى جمع البيانات من الجهات المختلفة وترتيبها وتنسيقها ويستخرج فى ضوئها بناء على أسس علمية صحيحة الآثار التى تؤدى اليها الاكتشافات والتطورات والتغييرات والفوائد التى يمكن أن تجنيها منها الانسانية . فيستطيع هذا المكتب مثلا أن يصل الى توقع حصول نقص فى محصول معين قبل حدوثه وذلك نظرا لما يستخرجه من الإحصاءات المختلفة الدالة على استمرار نقص هذا المحصول أو ما يستنتجه من ضرورة وقوع هذا النقص بسبب اطراد زيادة السكان أو وقوع حوادث تؤدى الى عدم نماء زراعة المحصول كقلة السماد أو فساد البذور أو تقلبات الجو أو غير ذلك، فيأخذ للأمر عدته فى الوقت المناسب ويدبر الوسائل التى تمنع وقوع كارثة مستقبلة . مثل هذا المكتب يستطيع أن يستفيد من الإحصاءات المختلفة فلا تضيع هذه الإحصاءات هباء بل يستخرج منها ما يساعد على وضع سياسة ثابتة تلائم التطور المنتظر . فمثلا يستطيع هذا المكتب بما لديه من إحصاءات ودراسات أن يعد البلاد للتطورات المستقبلة سواء فى الغذا أو العمل أواللهو أو وسائل الانتقال أو الاستعداد للطوارئ المختلفة وأن يفيد من التجارب بل من الأخطاء وأن يقوى عادة النظر الى الأمام والتفكير فى المستقبل لتهذيب الأوضاع المختلفة بما يتلاءم مع تطور الحاجات والأغراض وتتبع التغييرات الطارئة خطوة خطوة واستخراج العبرة من الماضى، فإن الفائدة الكبيرة التى تخرج من دراسة الماضى هى رسم الطريق للمستقبل والوصول إلى نتائج ثابتة بمجهود يقل عما بذل فى الماضى، وأهم ما يمكن لهذا المكتب أن يقوم به أنه يستطيع الوصول الى الأسباب الحقيقية للمواقف المختلفة والعمل على استئصال السيئ منها وتنمية الطيب فيها، وبعباره موجزة يوجه مكتب الابحاث المستقبلة الأنظار الى السير الى الأمام لا الى الوراء فإن عجلة الزمن تدور ويجب أن نسايرها ومن الخطأ الاعتقاد بأن الانسان كان أسعد فى الحياة الماضية فالسعادة أمر نسبى ولا يمكن مع اطراد نمونا العقلى أن نقنع بوسائل الحياة الماضية. والتفكير فى المستقبل يساعدنا أكبر

مساعدة على الإفادة من مختلف الظروف الحاضرة وتهيئة ظروف أحسن منها لأولادنا فقد خلقوا — كما قال علي كرم الله وجهه — لزمان غير زماننا ويجب أن نفكر لهم في هذا الزمان المستقبل ونعدهم لما يأتي به من تطورات ومفاجئات فلا سبيل لتنكب العقبات وتجنب أثر المفاجئات والوصول بسلام إلى الغاية المنشودة من الحياة إلا بالنظر إلى المستقبل والاحتياط بقدر الإمكان لكل ما يتوقع فيه من حوادث ، والمثل في ذلك كمثل السائر في الطريق الملتوي قد لا يرى ما سيواجهه بعد المنعطف ولكنه يتوقع دائما من شكل الطريق وما يحيط به من حيرته ما يجعله يتفادى من الحوادث ويسير في طريقه بسلام .

وما دام الهدف الأكبر للابحاث المستقبلة أن نصل إلى مجتمع أسعد حالا وأهنأ بالا فيجب العمل على إيجاد تعاون وثيق بين جميع العناصر التي يمكن أن تسير بالمجتمع إلى الغاية المنشودة فالدين والتعليم والزراعة والصناعة والطب وغير ذلك من عناصر رقي المجتمع يجب كلها أن تعمل معا طبقا لخطة منظمة متناسقة الأجزاء تقوم على أسس صحيحة مستقاة من الوقائع التاريخية وملائمة للتطورات المنتظر وقوعها في المستقبل .

والنطاق الذي يضم كل هذه العناصر وينسق بينها تنسيقا ينعكس أثره على المجتمع وأهله هو النطاق الاقتصادي فهو الذي يساعد على رفع مستوى المعيشة فإذا أصبح المستوى صالحا أمكن بعد ذلك أن تطرق أبواب الإصلاح الأخرى بل إن هذا الإصلاح يأتي بطبيعة الحال نتيجة للتحسين الاقتصادي .

طالما نادى الناس بضرورة إصلاح النواحي المختلفة للمجتمع المصري وقد تكون كلها في حاجة إلى الإصلاح وقامت الحكومات فعلا بأعمال مختلفة في سبيل هذا الإصلاح كتعميم التعليم وإقامة المستشفيات وردم الترع وإمداد البلاد بالمياه الصالحة للشرب ولكن هذه الأعمال لم تؤت ثمرتها المرغوبة ولم يعد التعليم الإلزامي فائدته المرجوة ولم تفتح المستشفيات في تحسين الصحة العامة بل لم يستفد عدد كبير من السكان من المياه الصالحة للشرب واستمروا في أخذ مياههم من الترع وغيرها من مجاري المياه غير الصالحة ، وكل ذلك لأن الأساس الأول للإصلاح غير قائم ولم يفكر أحد في إقامته وتثبيت دعائمه — هذا الأساس هو رفع مستوى المعيشة لسواد الشعب سواء الفلاحين في الريف أو الطبقات الفقيرة في المدن . فإذا أنشأنا المدارس الإلزامية للفلاحين والفقراء وطلبنا منهم أن يعلموا فيها أولادهم وأنشأنا المستشفيات وطلبنا منهم أن يدخلوها لتعالجهم من الأمراض وأن يتبعوا ما تلقيه إليهم من نصائح صحية فانه يجب قبل كل شيء أن نهيئهم لقبول التعليم وقبول العلاج وذلك لا يكون قبل أن نرتفع بهم إلى مستوى الآدميين أي نوفر لهم القوت الضروري ، إذ كيف يستطيع الفقير أن يبعث بابنه أو ابنته إلى المدرسة وهو في حاجة إليهما ثم هو لا يجد ما يكفي لغذائه أو غذاء روحه بل لا يجد الملبس الذي يكسو به ولده ؟ كيف نطالبه بأن لا يهمل علاج نفسه أو أولاده

وهولايجد ما يمسك به رمقه أو رمقهم. وكيف ننتظر حتى لو أعطيناه الدواء أن ينتج الدواء أثره والمريض خالى الوفاض بادى الانفاض ؟ إلا أننا فى الواقع نضع العربة أمام الحصان ونطلب منه أن يشدها فاذا أردنا لسواد الشعب خيرا فيجب أن نتيح له قبل كل شيء الحصول على ما يقتات به وهذا ما يعبر عنه بتحسين مستوى المعيشة التى يعيشها . بعد ذلك نستطيع أن نبحث فى توفير وسائل النظافة والملبس والمسكن وتوفير التعليم والصحة وما إلى ذلك من الاصلاحات الاجتماعية المختلفة .

وفى تحسين مستوى المعيشة لسواد الشعب ما يساعد على تحقيق المساواة بين الطبقات المختلفة إذ لايقبل أن يتنعم القليل من السكان فى بحبوحة من الرفاهية وسعة الرزق وأن تتضور الأغلبية جوعا — ليس معنى المساواة أن تزيل كل الفوارق بين الناس أو نضرب صفحا عنها بل معناها أن تمكن كل شخص من الحصول على الرزق الضرورى له ولأولاده حتى لا يقتصر خير البلاد على فريق ويبقى الآخر محروما يعيش عيشة السوائم. هذا هو عدم المساواة. وقديما قال ارسطو إن عدم المساواة من أهم الأسباب المؤدية للفوضى . والشرائع السماوية تضع من مبادئها السامية تحقيق المساواة بين الناس . فالشريعة الإسلامية تنادى بهذه المساواة والقوانين الحالية تقضى بها فما علينا إلا أن نثبت قواعد المساواة فى كل ناحية من نواحى الحياة. وأقل أنواع هذه المساواة هى المساواة الاقتصادية وليس الغرض من ذلك أن يملك كل شخص من الثروة ما يساوى ما يملكه غيره من الناس بل يقصد بها أن يتوافر لكل شخص من الثروة ما يتفق مع استعداده ويساعد على تحقيق حاجاته الضرورية وألا تقتصر الملكية مثلا على عدد ضئيل من السكان وتترك الأغلبية الساحقة محرومة من كل شيء كما هو الحال الآن فان مجموع الملاك الذين يمتلكون أرضا تبدأ من أقل من فدان إلى أكثر من خمسين فدانا لايتجاوز ١٥٪ من مجموع سكان القطر المصرى. وبين هؤلاء يملك ١,٧١٨,٠٠٠ شخصا أقل من فدان بينما يملك ١٣,٠٠٠ أكثر من خمسين فدانا و إذا نظرنا إلى تفاصيل توزيع الملكية فى مصر وجدناها أبعد ما تكون عن المساواة فان ٩٣ ٪ من الملاك يملكون ٢٠٪ من الأراضى الزراعية بينما ٧٪ يملكون مساحة تصل إلى ٨٠٪ من مجموع الأراضى ومنهم $\frac{1}{2}$٪ فى الألف من السكان يملك مساحة تصل إلى ٣٨٪ من لمساحة العامة. والذين يملكون أقل من فدان ليس لهم من الملكية إلا لفظها لأن تكاليف مساحاتهم الضئيلة تجعل فائدتهم منها قليلة ومتاعبهم فيها بالغة فالمساحة التى تقل عن فدان لا تنتج إيرادا يقوم بأود مالكها وهو يعول أسرة عدد أعضائها فى المتوسط يتراوح بين الأربعة والخمسة ولا يقتصر عدم التناسب على ملكية الناس للأراضى بل يوجد أيضا فى النسبة بين السكان ومساحة الأراضى. ففى بعض المناطق كالمنوفية مثلا يبلغ عدد السكان فيها ١,٢٠٠,٠٠٠ نسمة فى أرض مساحتها ٣٥٠,٠٠٠ فدان. وإن هناك فدانا واحدا لكل ثلاثة أشخاص فاذا ارتقينا إلى شمال

الدلتا وصلت هذه النسبة إلى ٢٥ فدانا للشخص الواحد . وعدم التناسب هذا تؤدى إلى نتيجة اجتماعية خطيرة إذ لا يجد سواد الناس فى الحالة الأولى ما يكفى لغذائهم الضرورى ولا يجد أكثرهم محلا يعملون فيه أما فى الحالة الثانية فلا تجد الأرض العدد الكافى من عمال الزراعيين ويضطر الملاك إلى نقلهم من المناطق الأخرى الآهلة بالسكان بأجور باهظة تزيد فى التكاليف وتحول دون الانتاج الاقتصادى المفيد .

فلو استطعنا على أساس ما لدينا من إحصاءات وما نقوم به من أبحاث أن نصل الى تحسين توزيع الثروة العقارية فى مصر وتوزيع السكان بين المناطق المختلفة ووصلنا بعد خمس وعشرين سنة الى حالة لا توجد فيها هذه المفارقات لأمكن أن يساعد ذلك مساعدة كبرى فى تحسين الحالة الاقتصادية لسكان المناطق الزراعية فى مصر ، أى للفلاحين الذين يبلغون ٨٠ ٪ من سكان القطر المصرى .

ومما يساعد على تحسين الحالة الاقتصادية وإيجاد تناسب معقول بين الطبقات المختلفة تنظيم الأجور بكيفية توفر الرزق الضرورى للفلاح وعياله . فقد دلت الأبحاث والإحصاءات على أن الغذاء الضرورى للشخص الواحد فى الـ٢٤ ساعة لا يقل ثمنه عن ٥٠ مليما ، وقد يزيد على ذلك تبعا لزيادة الغلاء ، والفلاح فى مصر لا يتناول أجرا فى الوقت الحاضر يصل الى هذا المبلغ . على أنه مما يذكر بالحمد للحكومة الحالية فى هذا الصدد أن قررت بالأمس ألا يقل أجر العامل فى مزارعها عن خمسة قروش فى اليوم ، وهذه أول خطوة جدية عملت لتحسين معيشة الفلاح — على أن الخمسين مليما لا تسد حاجات بقية أفراد الأسرة الذين يعولهم الفلاح وقد أثبتت الإحصاءات أيضا كثرة عدد الأفراد فى متوسط العائلات المصرية نظرا لزيادة المواليد فى مصر — فنسبتها ٤٥ ٪ وهى تزيد عن أية نسبة فى البلاد الأخرى — ولا تقل نسبة عدد العائلات التى يتجاوز عدد أفرادها الستة عن ٣٦ ٪ من مجموع العائلات فى مصر — ولو تركنا إحصاء الملكية جانبا ووزعنا الأراضى الزراعية على السكان لما زاد نصيب الواحد عن عشرة قراريط وهو قدر لا ينتج فى أحسن الظروف ما يقرب من عشر مليمات يوميا ، أى خمس ما يحتاج إليه الشخص ليقى نفسه شر الجوع والأمراض الناتجة من سوء التغذية .

فلو قام مكتب يتولى دراسة أحداث المستقبل على ضوء الماضى والحاضر لوجد أننا نسير من سيئ الى أسوأ ، فمنذ أربعين سنة كان نصيب الشخص الواحد لا يقل عن عشرين قيراطا . وقد بلغ اليوم النصف ، وإذا لم يفكر جديا فى إصلاح هذه الحالة زادت سوءا فى المستقبل ، خصوصا وأن عدد السكان يزيد تباعا بشكل لا يتناسب مع زيادة الثروة ، فقد زاد السكان فى مدة الأربعين سنة الماضية بنسبة ٦٣,٧ ٪ وهى عشرة أمثال زيادة مساحة الأراضى التى لم تزد إلا بنسبة ٦,٢ ٪ . حقيقة قد تقدم الإنتاج الزراعى بسبب

تقدم وسائل الرى والزراعة ، ولكن هذا التقدم لا تزيد نسبته عن ٢٧ ٪ وعلى هذا تستمر زيادة السكان ، وليس هناك ما يقفها لأن الأبحاث المتعلقة بتنظيم النسل لم تأخذ إلى الآن فى مصر صفة جدية ، وقد لا يكون من الخير إدخال هذه النظم إذ أثبتت التجارب الأخيرة أن الدول ذات النسل المحدود لا تستطيع مجاراة العالم فى استعداده وسيره ولا تصلح لدخول الصراع الذى يقوم فى الفترة بين شعوبه وينتظر إذن أن يصل عدد السكان بعد ٢٥ سنة الى عشرين مليونا أو يزيد دون أن تزيد مواد الثروة زيادة تذكر ، ولا يمكن الاتكال على قيام الصناعة بسد النقص ، فالصناعة فى مصر حتى بعد ٢٥ سنة لا ينتظر أن تكون عاملا أساسيا فى رفاهية البلاد ، بل ستبقى الزراعة أكبر مصدر للثروة . وعلى هذا سيهبط مستوى المعيشة عما هو عليه الآن إذا لم نصل الى رفع الثروة القومية العامة بقدر الثلث والثلث قليل لأنه لا يكفى لمواجهة المستقبل فان رفع الثروة بمقدار الثلث فقط يوصلنا الى بقاء الحالة التى نشكو منها الآن وهى حالة لا يمكن الرضاء بها .

ومما يزيد الحالة سوءا أن جزءا كبيرا من السكان مصاب بأمراض متوطنة تحول دون قيامه بعمل مجد يزيد فى ثروة البلاد فان ٨٠ ٪ من السكان تنهكهم الأمراض القاسية كالبلهارسيا والانكلستوما وهذا عدا أمراض سوء التغذية كالبلاجرا وغيرها وعدا الأمراض الأخرى كالرمد الذى يصيب نحو ٩٠ ٪ والأمراض الزهرية وغيرها . فاذا قيل إن بلادنا لم تدخل حربا منذ مدة طويلة فإننا نستطيع أن نضع بجانب أرقام القتلى والجرحى والمفقودين من الأمم المحاربة أرقاما لا تقل عنها ضخامة لمن تودى بهم الأمراض المختلفة أو تقعد بهم عن طلب الرزق فتجعل منهم طائفة أتعس من طائفة المفقودين فى الحروب إذ يصبحون عالة على غيرهم وعلى المجتمع ، وإذا أضفنا إلى ذلك ما نفقده من الأطفال وهو نحو ٥٠ ٪ من عدد المواليد سنويا وما يصيب سكان البلاد من الأمراض المختلفة عادة وهو ما لا يقل عن ثلاثة أمراض للفرد الواحد لأمكن القول إننا أمة تخوض غمار الحرب بصفة مستمرة فنحن لا نستفيد من قواتنا المختلفة ولا الأرض نستخرج منها كل ما يمكن استخراجه من فائدة ولا القوى البشرية تجد من الغذاء ما يساعدها على العمل أو الإنتاج وكل ذلك يرجع لعدم وضع خطة محكمة تقوم على الدرس الصحيح والاستقراء والإفادة من تجارب الماضى والاستعداد لمواجهة المستقبل فاذا بدأنا الآن فى العمل على رفع مستوى المعيشة لسواد الشعب سواء بالعمل على توزيع الثروة توزيعا حسنا وزيادة الإنتاج الزراعى وتشجيع الأعمال الصناعية وغير ذلك من الوسائل التى قتلت بحثا وبحت أصوات المتكلمين فيها ، أقول إذا بدأنا العمل دون الكلام فقد نصل بعد ٢٥ سنة — وهى مدة ليست بالطويلة — إلى إنقاذ المجتمع المصرى من الأخطار التى تتهدده وتفت فى عضده وتخرج منه شعبا قويا متماسكا عاملا على إسعاد بلاده .

هـذا هو ما يمليه علينا واجبنا نحو هـذه البلاد ونحو الأولاد والأحفاد الذين تسبينا في وجودهم على أرضها بل هذا هو ما يمليه علينا الإيمان الصحيح — أليس في إصلاح شأن مواطنينا والعمل على تيسير سـبيل العيش لهم ما يدل على توثيق روابط التساند الاجتماعي. ليس بين أبناء الجيل الواحد فحسب، بل بيننا وبين أبناء الأجيال التالية، وبذلك تتحقق أبسط صور المساواة. وهي عدم استئثار فريق بالخير دون فريق ويتحقق بذلك أيضا الإيمان الذي ورد عنه في الحديث الشريف " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه" .

فليبدأ الأقوياء أو القادرون منا بالأخذ بناصر الضعفاء والعاجزين باعتبار أن هؤلاء هم في الواقع أعضاء في مجتمعهم بل هم جزء منهم .

إننا لا ننعم والبؤس يحيط بنا من كل جانب وهؤلاء البائسون يتمنون زوال ما بيدنا من نعمة ، أما إذا شعرت الطبقات العاملة بأن المجتمع كتلة واحدة متعاونة وأن موارد الثروة موزعة توزيعا عادلا ، وأنه يعطى لكل انسان فرصة صالحة للعمل والإنتاج . فان همتها تتضاعف حتى تزيد الثروة العامة ، إذ تشعر أنها ستنال نصيبا من هذه الزيادة فتحل المحبة بين الطبقات المختلفة محل الحسد والبغضاء . من صور التعاون التي أعتقد أنها ستعم في المستقبل القريب أن يتعاون كبار الملاك أو أصحاب رءوس الأموال مع الحكومة في استصلاح الأراضي البور أو في تحسين أنواع الغلات أو إجراء التجارب العلمية أو الزراعية أو في الأعمال الاجتماعية المختلفة دون أن يتركوا العبء كله على الحكومة ، وأن يتعاون القادرون من الملاك مع غير القادرين في زراعة الأراضي ، على أن تعطى لهم المواشي اللازمة يملكونها مقابل جهودهم أو بثمن يستطيعون دفعه ، ثم تتدرج بهم الملكية إلى مساحات صغيرة من الأرض تزيد كلما زادت جهودهم ونماء إنتاجهم . أتصـور تعاونا وثيقا بين الملاك والزراع يجعل الزراع يشعرون بأنهم غير غرباء عن الأولين ، بل إن هؤلاء يشاركونهم السراء والضراء ، وتعاونا بين العمال وأصحاب الأعمال يجعل من العمال أبناء بررة لمخدوميهم ، ومن هؤلاء آباء عاطفين لا يتوانون عن توفير المعيشة الهانئة لعمالهم ، فيرد هؤلاء ما يلقونه من رعاية أضعافا مضاعفة في عمل متواصل منتج . أتصور تعاونا بين القادرين وبين المنكوبين الذين أصابهم الدهر بويلاته . يجعل للمحرومين حقا معلوما في أموال القادرين ، وهذا التعاون في الواقع هو أساس الزكاة ، وهو كفيل بإزالة ما في نفوس المحرومين من حسد ، إذ يجعلها راضية مرضية تتمنى لذوي الثراء نماء ثروتهم .

هذا التساند الاجتماعي أو التعاون الوثيق بين طبقات الشعب المختلفة هو أكبر منظم لحياة المجتمع ، وأجدى عامل لرفع مستوى المعيشة ، وهو الرباط الوثيق الذي يجمع بين أفراد الأمة وبين أجزائها المختلفة فلا يتوانى فريق عن إعانة فريق آخر ويقف الجميع كتلة واحدة مرصوصة أمام الحدثان .

إنى لأتفاءل كل التفاؤل، فالشعب المصرى لا ينقصه الذكاء ولولا الأمراض لما نقصه النشاط وقديما حمل الشعب المصرى لواء المدنية وكان مثلا أعلى لشعوب الأرض .

لم تحرمنا الطبيعة الوسائل التى يمكن أن تؤدى بنا الى حياة اجتماعية يتعاون فيها الجميع على تحقيق الرفاهية للمجتمع بأسره . فأرضنا بتربتها الخصبة لم يستغل بعد الاستغلال الصحيح إذ هناك أراض يمكن استصلاحها تزيد مساحتها على ثلاثة ملايين ونصف مليون من الأفدنة عدا مناطق البحيرات التى قد تصل الى مساحة أخرى لا تقل عن نصف مليون فدان وبعضها كان يزرع فى عهود التاريخ الغابرة — وبطن الأرض لما يستغل أيضا . وقد أثبت الخبراء وجود المعادن فيها ومياه النيل ومساقطه لما تستخدم للاستغلال المنتج، ثم توجد لدينا بحمد الله رؤوس أموال ولكن أكثرها معطل ، فلو أحسن استغلالها لعادت بأجل الفوائد على أربابها وغيرهم .

قد لا نستطيع الوصول الى النتيجة المرجوة إلا بإنفاق المبالغ الطائلة التى قد تصل الى الملايين، فزيادة الأراضى الزراعية واستصلاح الأراضى البور وما يستلزمه ذلك من أعمال كبيرة، كالمشروعات الكبرى التى يجب إقامتها على النيل، ومنها مشروع كهربة خزان أسوان كلها تحتاج إلى المال الكثير ، كذلك تحتاج تنمية الصناعة فى مصر إلى رءوس أموال كبيرة وخبرة فنية — ولكن هذه الصعوبات من الممكن التغلب عليها ، وقد استطاعت أمم ناشئة قبلنا أن تذللها ولم تقف مكتوفة الأيدى مدعية استحالة إزالة الصعاب فى طريق ترقية مجتمعها ، بل اعتبرت أن ليس هناك مستحيل فى هذا السبيل. وأن الاستحالة الوحيدة هى تعريف المستحيل أو وجوده ، إذ هو معدوم كما قال نابليون، فاذا نقصتنا رءوس الأموال أمكننا أن نحصل عليها بالقرض، سواء كان داخليا كما حصل فى قرض القطن أو خارجيا ونستعين بالأموال التى نقترضها فى تنمية ثروتنا الزراعية والصناعية .

فاذا قامت هيئة أو مكتب بمهمة دراسة حاجاتنا المستقبلة وتبينت القدر الذى تحتاج اليه من المال، لم يكن من العسير الحصول على هذا المال، ولا سيما أنه سيأتى بأطيب الثمرات للبلاد، إذ سيؤدى إلى زيادة ثروتنا ورفاهيتنا — كذلك يمكن لهذه الهيئة أن تدرس الصناعات المختلفة التى تحتاج اليها البلاد والتى يكون هناك أمل فى نجاحها مع مراعاة المواد الأولية التى يمكن أن نجدها فى أرضنا، كالمعادن التى يمكن أن تستخرج من باطن الأراضى المصرية، ومنها الحديد الذى قيل بوجوده بكثرة فى منطقة أسوان، ومع مراعاة اليد العاملة ووسائل الإنتاج والتوزيع ، وطبعا يتناول الدرس كيفية استغلال القوى الطبيعية فى البلاد كساقط المياه وما اليها ، فاذا تم هذا الدرس ، أمكن استغلال الأموال التى تجمع بالقرض أو بأية وسائل أخرى اقتصادية لتنمية الانتاج الزراعى والصناعى والوصول بذلك الى تنمية الثروة فى مصر وهو ما يؤدى حتما إلى رفع مستوى المعيشة فيها .

لقد آن أن نبدأ العمل المنتج فى هذا السبيل وقد يكون الكلام ضروريا فى أول الأمر لتذكية الشعور والإرشاد الى واجبنا نحو الأجيال المقبلة والاقتناع بضرورة الإصلاح وهذه كلها خطوات ضرورية فى أول الأمر ولكن يجب أن يتبع الكلام بالعمل وأول خطوة هى أن نعهد الى هيئة بالبحث والتمحيص على أساس علمى صحيح قائم على الاحصاءات السليمة والتجارب الجدية فى مصر وفى البلاد الأخرى، لكى تخرج لنا خطة مثلى و برنامجا قويما يؤديان فى فترة معقولة إلى إقامة الأساس الذى يمكن أن ينشأ عليه مجتمع صحيح متضامن سعيد ، فلا نجد بعد هذه المدة تلك الأحياء القذرة التى تأوى اليها الطبقات الشعبية ولا تلك القرى لتعسة بدورها وطرقاتها التى تسكنها غالبية أهل هذا الوادى ولا تبقى ذلك البؤس الذى يعيش فى ظله السواد الأعظم من مواطنينا — عندئذ يحق لنا أن نقول إن أهل هذه الكنانة لا يعرف التخاذل ولا الحرمان اليهم سبيلا .

ليس الشعب المصرى أقل من الشعوب التي تقدمت فى مضمار الحياة الحديثة والتى أعتقد أن خطاهم كانت تسير وراءنا حتى لو مشينا على مهل . إننا وقفنا فترة وأعتقد أننا إذا استأنفنا السير، فسيرى العالم منا العجب العجاب . يرى منا شعبا متحدا متراصا فى سيره إلى الأمام يقطع طريقه حثيثا . قد نفخ فى بوق الإصلاح . وبدأ الشعب يصحو و يشعر بواجبه نحو أبنائه وأحفاده الذين سيولدون ولن نضيع سنة من السنين القادمة سواء كانت خمسا أو خمسا وعشرين بل لن نضيع دقيقة حتى نصل بمصرنا إلى المركز الذى كانت تتبوأه والطريق إلى ذلك مرسوم فلنسلكه. لنجعل التعاون رائدنا. فالناس بخير ما تعاونوا. ولنرفع مستوى المعيشة تدريجيا ولنستغل كل ذرة من العناصر الطبيعية التي وهبها الله بلادنا حتى تصبح الحياة الاجتماعية فى مصر هانئة رغدة و يزول عنها الشقاء المخيم على ربوعها .

أرجو أن يتم ذلك فى أقل من خمس وعشرين سنة حتى نصرف الجزء الباقى من هذه المدة فى تكملة وجوه الإصلاح ونثبت ما تم منه ثم نجدد على هذا الأساس المتين نشاطنا فى جميع الميادين فنجعل بلادنا منيعة عزيزة الجانب لا يجسر أحد على انتهاك حرمتها بل لا يطمع طامع فى الاعتداء عليها .

هذه آمالنا .

آمال مصر إليها طالما طمحت هل تبخلون على مصر بآمال

كلا ، هذا ما ستحققه الأيام فى الخمس والعشرين سنة القادمة . أحياكم الله لتروا مصر فيها مزدهرة هانئة سعيدة فى عهد مليكنا المحبوب "فاروق الأول" ، عهد التقدم والإصلاح والتوفيق .

محمد عبد المنعم رياض

الأسرة كوحدة اجتماعية

لحضرة صاحب السعادة عبد القادر الجمال باشا

المستشار الاقتصادى لبنك التسليف الزراعى

تبنى الأسرة على قاعدتين أساسيتين اعترف بهما كل تشريع فى العالم أجمع وإن اختلفت البلدان فى تفسيرهما . فالقاعدة الأولى هى ارتباط الرجل والمرأة بالزواج . والقاعدة الثانية هى سلطة الوالدين على الأبناء ولا سيما سلطة الأب .

وهناك أنواع شتى من الأسر أهمها أربعة :

فالنوع الأول هو الأسرة التى تقوم على أساس تحتيم الزواج بين أفراد القبيلة الواحدة ولكنها تحرم فى الوقت نفسه الزواج بين أفراد العائلة نفسها كما هو واقع فعلا الآن بين قبائل أستراليا الحاليين .

والنوع الثانى هو الأسرة التى تقوم على أساس زواج المرأة بعدة رجال فى وقت واحد كما نراه فى بلاد التبت بآسيا .

والنوع الثالث يقوم على أساس تعدد الزوجات للرجل الواحد كما نراه فى بعض البلاد الشرقية وفى جماعة أطورمونس فى الولايات المتحدة الأمريكية .

والنوع الأخير هو الأسرة التى تقوم على ارتباط الزوج بزوجة واحدة .

ويختلف مركز المرأة عند الأمم باختلاف وجهات نظر هاته الأمم إلى الزواج وماهيته .

واكتفاء الرجل بزوجة واحدة هو أشرف أنواع الزواج وأسلمها عاقبة فى قيام الأسرة على أسس قوية محترمة .

يخبرنا تاريخ مصر القديم فى عهد الفراعنة باحتفاظ الأسرة المصرية بكيانها ووحدتها أكثر منه فى أية دولة أخرى . كما يخبرنا بأن السلطة فى الأسرة وإن كانت للأب وتنتقل بعد وفاته إلى أكبر أبنائه إلا أن الزوجة الشرعية كان لها فى الوقت نفسه مركز ممتازا ونفوذا كبيرا توارثته منذ سريان النظام الذى يعبرون عنه بال Matriarcale أى نظام انتقال الميراث بعد وفاة الأب إلى أكبر بناته وليس إلى أكبر أبنائه . هذا النظام جعل للزوجة مركزا يضارع مركز الزوج ، كما كانت حياة الأسرة المصرية فى ذلك العهد قائمة أيضا على تبادل المحبة والاحترام بين أفرادها ، كما تشهد بذلك النقوش والكتابات الهيروغليفية التى نراها على الآثار المصرية القديمة ، فكثيرا وكثيرا جدا نرى الجملة الآتية منقوشة على

أحجار مقابرهم وهي : "لقد كنت محببا لدى أبي — مكرما لدى أمي — معززا لدى إخوتي" — كما نرى صورة العائلة منقوشة على الجدر يتوسطها الرجل تحيط به زوجه وأولاده فى محبة وعطف مما يدلنا على ما كان للأسرة من شأن فى ذلك الوقت . أما إبان قيام الدولة الروحانية القديمة فقد جاء تشريع الأمبراطور جوستنيان واعترف للزوجة بحق الحلول محل زوجها بعد وفاته فى أكثر حقوقه بقطع النظر عن نظام الميراث الذى كان متبعا وقتئذ والذى بمقتضاه كان الميراث يوزع بين الأولاد والزوجة بنسبة معينة .

وجاء الدين الإسلامى الحنيف فرفع عن المرأة ظلما كبيرا كانت تئن تحت ثقله ، واعترف لها باستقلالها المادى عن زوجها ولكنه احتفظ بقوامة الأسرة للرجل .

أما فى القرن التاسع عشر وأواخر القرن العشرين فكان التشريع الغربى الذى ينظم الأسرة يقوم على أساس عدم الاعتراف بالطلاق وعلى النص على سلطة الأب على الأسرة .

وفى وقتنا هذا نرى ميلا كبيرا لدى المشرع للتدخل فى شؤون الأسرة وتسهيل الطلاق بين الزوجين إلى مدى بعيد والحد من سلطة الأب مستعيضا عنها بسلطة الدولة وذلك تحت ضغط المبادئ الاشتراكية الحديثة التى تفشت فى العالم أجمع ، وتزداد يوما بعد يوم ، وهذه الثورة الحديثة فى المبادئ لم يمض عليها الوقت الكافى بعد للحكم لها أو عليها ، ولكننا فى مصر لم نزل بعيدين عنها نوعا ما ، ولم يجار المشرع المصرى زميله الغربى فيما نزع إليه هذا الأخير بل نراه يسير بخطى وئيدة فى هذا المضمار ، متباعدا ما أمكن عن المسائل التى لها مساس بالدين وأصوله وأحكامه وحسنا يفعل .

* * *

تتكون الأسرة من الوالد والأم والأولاد وبعض من هم فى حكمهم وعلى كل منهم واجبات وله حقوق ، ولعلى لا أكون مبالغا إذا قلت إن الأم هى ركن هام فيها ، فعليها تقع أعظم التبعات ، وعليها يجب أن يكون جل الاعتماد فى إعداد نشء صالح قادر على تحمل المسئوليات ، ومتى كان فى استطاعة الأم إعداد أولادها منذ الصغر للكفاح ، والنجاح والحياة . وإدارة دفة بيتها بعقل وإحكام ، استطاعت أن تنتج لنا وحدة متينة مهيئة لاستقبال الحياة بثبات وإعتداد بالنفس وثقة وأمل : فالأم هى التى تحفز الهمم وتبعث على الرجاء وتوسع أفق الحياة أمام أولادها . وقد سمعنا جميعا عن تلك المرأة العربية التى بعثت أولادها الأربعة إلى ساحات القتال بعد أن زودتهم بروح الثقة والإيمان بالله سبحانه وتعالى من أجل الواجب والوطن . فلما جاءها الخبر بأنهم فقدوا جميعا فى ساحة القتال قالت : " الحمد لله

الذى شرفنى بقتلهم وأرجو الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته " فضربت بذلك مثلا ساميا للمرأة العربية ، ولله در من قال :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبا طيب الأعراق

فعلى الأم يقع أكبر العبء فى تكوين الوحدة الاجتماعية التى هى أساس المجتمع ، ومتى كانت الوحدة سليمة كان المجموع سليما معافى ، أما إذا دبت العلة إليها تسرب الداء إلى المجموع . فعظم أمره واستفحل وعز من أحله الدواء .

كذلك على الأب واجبات كبرى نحو أسرته فهو مسؤول أمام الله والناس عن سلامة عائلته وتوجيهها نحو الكمال ما استطاع لذلك سبيلا . فإذا أردنا إصلاح الجماعة فيجب علينا أن نبدأ بإصلاح حال الأسرة ، ولا تصلح الأسرة إلا بإصلاح الوالدين كما رأينا . ويقول علماء التربية وعلم النفس إن المكان الحقيق للتربية هو " البيت " فيجب العناية الكبرى بكيفية استعمال سلطة الوالدين على الأبناء ، فى السنين الأولى من حياتهم على الأخص ، فهى من أهم العوامل فى التربية الخلقية والاجتماعية وتكوين شخصية أفرادها ، بل إن البعض من هؤلاء العلماء يذهب إلى القول بأن الطفل يتكون بشكل نهائى فى هذه السنين الأولى . ومن هنا نعرف قيمة التربية المنزلية وضرورة حسن استعمال سلطة الوالدين .

كل هذا يظهر لنا بصورة جلية واضحة أهمية الأسرة كوحدة اجتماعية وضرورة العمل على تقوية هذه الوحدة بشتى الوسائل ، وضرورة العمل على تقوية روح التضامن بين أفرادها .

ولا بد لى من أن أنوه عن الفوضى فى مصر فى ألقاب الأسرة الواحدة ، فبعد أن كان لكل أسرة عندنا اسم يميزها عن غيرها أصبحنا و إذا بالأخوة والأشقاء كل منهم يحمل لقبا يختلف كل الاختلاف عن لقب أخيه و بيته . فترى الولد الأول فى الأسرة يدعى محمد حشمت مثلا والثانى أحمد ذو الفقار والثالث سمير عصمت والبنت حورية بهجت ، مما لا ضابط له بينما اسم ولقب الأب هو عبد الرحمن الجرجاوى . فلم كل هذه الفوضى ؟ ولم لا نقتدى بتركيا حيث سنت قانونا يحتم على كل أسرة اتخاذ لقب يتسمى به كل فرد من أفرادها ، و يميزها عن غيرها ؟ فهذا القانون الذى سنته تركيا فيه بعض الحفظ لكيان العائلة يشد من أواصرها ونحن أحوج ما نكون إلى قانون مثله .

كما أريد أن أوجه نظر أولى الأمر فينا إلى ضرورة إحكام نظام المجالس الحسبية ونظار الوقف حتى يكون منه سياج منيع للأسرة عند حلول كارثة وفاة الأب وأولاده قصر وحتى يكون منه نظام يدفع عن الأسرة جشع الطامعين فى مال القصر . حفظا لكيان العائلة

وبحدنا وأخذنا بالنظام الفرنسي بعد تعديله بما يتفق مع عاداتنا القومية" أي نظام مجلس العائلة يحل محل الفوضى " وفي أرى فيه تخفيفاً من ويلات نظام الأوصياء في الكثير من الأحيان .

من أجدر الأسر بالعناية ، وأحوجها إلى تضافر الجهود لإصلاح شأنها ، هي أسرة الفلاح المصري ، فهي أسرة لم تزل على الفطرة ، ولم تتسرب إليها أكثر عيوب أسر أهل المدن ولا يذهب أفرادها إلى دور السينما جماعات أو فرادى ولا يرتاد رجالها المقاهي ساعات طوالا ولا تتبرج نساؤها ، وما كان ذلك من زهد في هـذه الملاهي والملذات ، بل سوء حالتها المالية والصحية والروحية. هو الذي أجبرها على الاستسلام للقضاء ،والقناعة بالقدر اليسير — وكل ناقد تلمس عن قرب أو بعد بؤس هذه العائلات ، وما تعانيه من قسوة الحياة والفقر المتناهي ممـا تنفطر له القلوب حزنا وأسى ، فمسكنها قذر غير صحي ، وغذاؤها تعافه النفس ، ومشربها من ماء آسن كريه ، وملبسها قد بلغ الحـد الأدنى من البساطة والحد الأقصى من القذارة ، لا تعرف من الحياة إلا التعب المتواصل المفنى ، لقاء بضع دريهمات تحصل عليها ،لا تسد رمقها ،وحياة تشبه حياة أدنى الحيوانات ،تنتابها أمراض شتى — فالبلهارسيا والانكلستوما وأمراض العين متفشية بينها وسـوء التغذية يكاد يودى بحياتها،وترى هذه الأسرة مع الأسف الشديد ، تتناسل بكثرة مريعة ، مما يزيد في انحطاط مستوى معيشتها جيلا بعد جيل ، وهي أحوج ما تكون إلى دعاية فطنة منتظمة بينها لتفهم الضرر من كثرة النسل، إذ لا سبيل إلى الوصول إلى هذا الغرض أي ضبط النسل، بالتشريع لأننا نرى المشرع المصري يتباعد ما أمكن عن التدخل في مثـل هــذه الأمور خشية اعتراض رجال الدين، ولا شك بل ولا اختلاف في أن النتيجة الحتمية المنطقية لكثرة النسل في أسرة الفلاح الذي يكون الغالبية العظمى لسكان البلاد ستكون توالى هبوط مستوى معيشتها إلى حد مريع ،ولا تنس أن الحياة الثقافية عند الفلاح تكاد تكون معدومة ، بل وأن كل ما يعرفه من أمور دينه إنما يتلقاه من مأذون القرية ، الذي قد يكون جاهلا ، متعصبا بجهالته هذه الأسرة هي أحق وأولى بعناية أولى الأمر منا ، إذ عليها قوام المملكة المصرية ، ومنها يتكون السواد الأعظم من وحدتنا الاجتماعية ، وكلما بادرنا بالنهوض بها كان ذلك أرجى لإصلاح حياتنا القومية ، فالخطر من هـذه الناحية يهدد مستقبل البلاد وكيانهـا .

وحسبنا أن نعرف أن الغالبية العظمى من رجال الفلاحين قد ثبت عدم صلاحيتهم للخدمة العسكرية ، نتيجة لما يعانون من سـوء التغذية وعدم توفر الشروط الصحية ، في المسكن والملبس — وياحبذا لو عنيت رابطة الشباب بدراسة حال الفلاح وأسرته في أحد مؤتمراتها القادمة إن شاء الله ، فهذه العناية واجبة علينا ،وهي دين في عنقنا نؤديه إن عاجلا

و إن آجلا ، فلا بد والحالة هذه من العمل سريعا لانتشال هـذه الأسرة من تلك الوهدة العميقة بتخصيص جزء وفير من مال الدولة سنويا و بلا انقطاع لإصلاح شؤون الفلاح بدلا من إنفاقها فى الكماليات : تنشئ له المستشفيات بعدد واف وتبنى له البيت الصحى الذى يتفق ومطالبه وتوصل له مياه الشرب النقية إليه وترفع من أجره اليومى وتسهل له سبل اقتناء شىء من الثروة يصلح به حاله وتغذيه بقدر متواضع من الثقافة ، فالموقف جد خطير والمستقبل من هذه الناحية مظلم مكفهر وفى يد القدر .

أريد الآن أن أرفع صوتى ليصل إلى كل محب مخلص لمصر — ليصل إلى آذان أولى الأمر منا — ليصل اليكم شباب البلاد ، عليكم عمادها ، ليخبرهم بأن العناية بأمر الفلاح وأسرته قد تأخرت إلى أكثر مما يجب وأن خطر انهيار كيان الأمة من جراء ذلك أصبح قاب قوسين أو أدنى وأن كل تهاون فى المبادرة بعلاج هذه الحالة يكون إجراما فى حق الوطن وأيما إجرام .

فلتتق الله جميعا فى أمر هذا البائس المسكين ولترحم الفلاح يرحمنا الله .

عبد القادر الجمال

" إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ " .

(قرآن كريم)

النشاط المدرسى

وأثره فى إعداد النشء وتكوين شخصيته

لحضرة صاحب العزة محمد بك فهيم
مراقب عام النشاط المدرسى بوزارة المعارف

طلبت إلىّ مجلة الشؤون الاجتماعية أن أتحدث عن " النشاط المدرسى وأثره فى إعداد النشء وتكوين شخصيته" وإنه ليطيب لى أن أتحدث عن النشاط المدرسى فهو تطور حديث فى أساليب التربية والتعليم يشغل تفكير المربين الذين يخصونه بقسط وافر من عنايتهم ورعايتهم لما ظهر من آثاره ذات الخطر العظيم فى تربية النشء وإعداده وتكوين شخصيته .

وإنى لأشعر بأن الكثيرين لا يدركون تماما ما هو النشاط المدرسى ، حتى لقد قال لى كبير مرة : ما معنى النشاط المدرسى ؟ فقلت لعلك تخبرنى ما هو على حد علمك ومعرفتك. فقال : لست أدرى ، هل معناه أنه إذا كسل ابنى أخطرك لتعمل على تنشيطه . فقلت هذا بعيد عن الحقيقة وإن كان النشاط المدرسى يعمل على محاربة الركود الفكرى والخمول .

والنشاط المدرسى ترجمة لما يسمونه بالانجليزية (School Activities) وبالفرنسية (Les Activités Scholaires أو Les Loisus) ويسميه الأمريكيون عادة (Extra. Curricular Activities) أى نواحى النشاط خارج خطة الدراسة الموضوعة . وعلى ذلك يكون النشاط المدرسى هو أعمال التلاميذ الرياضية والأدبية والعلمية والعملية والفنية والاجتماعية التى يؤدونها خارج الفصول ، والتى يقصد بها تركيز المادة التى يتعلمونها وتفهمها ، والانتفاع بها فى حياتهم . وعلاوة على ذلك تعلم أشياء ليست فى صلب خطة الدراسه والمناهج الموضوعة ، لتعاون فى إعدادهم إعدادا صالحا قويما للحياة العملية ، ليكونوا مواطنين صالحين .

والواقع أن النشاط المدرسى بوجوهه المختلفة يبعث الحياة فى الدراسة العادية ، ويفضلها بما يأتى :

(أولا) بأنه ليس إجباريا بل يستند إلى أساس من رغبة الشباب ، وآرائهم ، وخواطرهم وطموحهم ، فيختار التلميذ من ضروبه ما يناسب ميوله وغرائزه ، فيستطيع المشرفون على تربيته أن يقفوا على تلك الميول ، ويوجهوه الوجهة التى تناسبه ، ويكون لها أحسن الأثر فى تكوينه فى شتى النواحى الجثمانية والخلقية ، والعلمية والعملية ، وفى النهاية فى خلق المواطن الصالح النافع .

(ثانيا) بأنه فى كثير من الاحيان يعاون على تشجيع روح الابتكار فى التلاميذ ، وينمى قوة الإرادة ، ويساعد على الاعتماد على النفس .

(ثالثا) بأنه يعاون المربين على ملاحظة التلاميذ فى أثناء لعبهم واشتغالهم بالجمعيات المختلفة ، فيستطيعون استنباط نتائج ، قد يكون لها شأن يذكر فى تعديل نظم التربية وقواعد التعليم .

(رابعا) بأنه يساعد على احترام شخصية التلميذ ، وتشجيع ميوله ، لأنه يختار من صروبه ما يشاء لا ما يشاء له غيره ، وهـذا له أحسن الأثر فى تكوين تلك الشخصية ، وتنمية تلك الميول .

(خامسا) بأنه يبعث فى التلميذ الروح الاجتماعى ، إذ يشعره بأنه فرد فى مجموع ، فعليه أن يعمل عملا ما فى ناحيـة أو أكثر من ناحيـة لمصلحة المجموع ، لأن نتائج العمل فى نواحى النشاط المدرسى ، تتوقف على جهود الأفراد وإخلاصهم فى القيام بها .

(سادسا) بأنه يدفع المدرس والتلميذ إلى الاستعانة بكل قواهما العقلية والجثمانية فى الإنتاج الفكرى والعملى .

وبعبارة موجزة أن ميدان النشاط المدرسى يهيئ الفرصة للتلميذ ليفهم ما يتعلم بالتفكير فيه ، ثم بالاستفادة منه عمليا ، وبتطبيقه على نواحى الحياة ، فيتبين الحقائق ظاهرة جلية . وهذا يباعد بينه وبين عالم الخيال البحت ، ويجعله يشعر بكيانه وشخصيته .

ولقد أجمل مسيو لويس دوماس Louis Dumas العضو بالمجلس العالى للتعليم بفرنسا فى وقت ما معنى النشاط المدرسى فيما يلى :

"Préparation à la vie parmi les réalitées de la terre."

" إعداد للحياة وسط عالم الحقائق " .

وهذا يحقق ما ذهب اليه John Dewey الأمريكى فى التعليم بأنه يجب أن يكون :

"Learning by doing."

" أى أنه يجب أن يقوم التعليم على أساس عمل الأشياء " .

وقلنا فيما سبق إن النشاط المدرسى يقوم على الرغبة ، وهذا هام جدا ، لأن ترك حرية العمل ، للمدرسة بحسب مايهديها إليه تفكيرها ، وما يتراءى لها أنه أنجع الطرائق وأنجح النواحى وللتلميذ فيختار بحسب استعداده وميوله ، أكبر عون لتكوين شخصيات المدارس وشخصيات التلاميذ على السواء .

وسبق أن قلت إن الفرنسيين يتحدثون عن النشاط المدرسى باعتباره Les Loisirs وهذا يلقى ضوءا على ماهيته ، إذ أنهم يعنون بذلك تنظيم أوقات فراغ التلاميذ .

هذا هو الأصل فى النشاط المدرسى، وأقل ما فكر فيه من عهد بعيد لتنظيم هذه الأوقات هى الألعاب ولست فى حاجة إلى التحدث عن مزاياها، وفوائدها، فى تقوية الجسم، وسلامة العقل وبث روح التعاون بين التلاميذ، وتعويدهم الإقدام والشجاعة، والصبر والجلد، وقوة الملاحظة، وغيرها من الصفات اللازمة لتكوين الرجولة، وإبراز الشخصية. ولقد قيل إن انجلترا تكسب حروبها فى ميادين الألعاب.

على أنه بمضى الزمن تغيرت وجهات النظر فى وسائل التعليم، فلم يعد الغرض منه أن يكون التلميذ أداة استقبال تستقبل ما يلقنه المدرس له، ويصبه فى ذهنه قسرا، ويحشره فيه حشرا، دون أن يكون له فيه أثر، بل تحول إلى أن يكون التلميذ أداة حية، تعمل بنفسها لنفسها، تحت إشراف المدرس، ليثقف عقله، وتهذب نفسه، فتكون شخصيته ولقد قال الفرنسيون:

"Il vaut mieux une tête bien faite qu'une tête bien pleine."

"لأفضل أن يكون الرأس حسن الإعداد، من أن يكون مليئا ومشحونا بالمعلومات".

نعم يجب أن يكون التلميذ أداة حية لها طابعها، وشخصيتها، وميولها، واستعدادها، ومواهبها. والنشاط المدرسى يكشف عن ميول التلميذ واستعداده ومواهبه، لأنه يختار من نواحيه ما يتفق مع هذه الميول، وما ينسجم مع تلك المواهب. وفى هذا عنصر إبراز شخصيته، وعامل نجاحه فى الحياة.

وعلى ذكر نواحى النشاط المدرسى نورد بعضها:

فهناك النشاط الأدبى، وهذا للغات، فتتكون جماعات المحاضرات، والمناظرات، والتحرير، والمطالعة، والتلخيص، والأدب، الخ.

والنشاط الاجتماعى، فتتكون جماعات الجغرافية والتاريخ والخدمة الاجتماعية الخ.

والنشاط العلمى، فتتكون جماعات الطبيعة والكيمياء وعلم الأحياء الخ.

والنشاط العلمى، فتتكون جماعات الأشغال اليدوية وفلاحة البساتين الخ.

والنشاط الفنى، فتتكون جماعات الموسيقى والتمثيل والرسم والتصوير الخ.

فضلا عن الرحلات والإذاعة والسينما المدرسية.

ويتخذ النشاط المدرسى وسيلة لتوجيه التلميذ الوجهة التى تؤدى الى نجاحه، فلا يترك يتخبط فى دياجير الظلام، يدرس برامج المواد النظرية وقد لا يكون قد خلق لها. وكثيرا ما يفشل التلميذ فى المدرسة الثانوية، ويرسب عاما بعد عام فى الفرقة الواحدة، وكثيرا ما يعجز عن الوصول إلى نهاية هذه المرحلة، فاذا ما أخرج منها وألحق بمدرسة صناعية مثلا برز الأقران وكان النجاح رائده. والأمثلة كثيرة.

وهنا يجمل أن أورد ما قاله الأستاذ Dewey في مؤلفه Human Nature and Conduct
"لقد أظهرت أبحاث أساتذة التحليل النفساني أن الميول والمواهب والدوافع إذا حبست ، وتركت كامنة في حنايا النفوس ، قضرت سمت ، وسببت قروحا ، وأفرزت موادا قاتلة مهلكة" والنشاط المدرسي هو الذي يطلق هذه الميول والمواهب والدوافع من عقدها ، ويبعثها حرة طليقة ، فتقطر اكسير الحياة بدل السم ، وتسبب سلامة الجسم ونضارته بدل القروح ، وتفرز كل دواء ناجع لنواحي الحياة بدل المواد القاتلة المهلكة .

أقيمت معارض النشاط المدرسي في العام الماضي في مناطق التعليم ، وقد شهدها آلاف بل ملايين من المصريين . وأقول ملايين ولست مبالغا لأن كل بيت في مصر كان عارضا في أحد تلك المعارض . ولقد بهر الناس ما رأوا من أعمال التلاميذ، حتى لقد ذهب بعضهم إلى القول بأن المعروضات لم تكن من صنعهم . وهم معذورون في ظنهم وريبتهم، اذ لم تعهد مصر من قبل مثل هذا التطور العظيم في أساليب التعليم، ولم يعتد الناس أن يروا تلميذا في المدارس الابتدائية صانعا ، أو في المدارس الثانوية والفنية مبتكرا . والحق يقال إنني أنا شخصيا داخلني الشك في لوحات عرضتها إحدى مدارس القاهرة ، فأتوا لي بالمثال الحاذق من بين تلاميذها ، فقام بعمل لوحتين تحت رقابتي وملاحظتي ، وإذ ذاك غمرني الفرح والسرور ، لأن هذه ثروة فنية ما كنا نستطيع أن نكشف عنها لولا النشاط المدرسي. ومدرسة أخرى عرضت نماذج للسفن الحربية على اختلاف أنواعها صنعت بدقة ومهارة جعلتاني أشك في أمرها ، فأتوا لي بالصانع الصغير وهو أحد تلاميذها ، فقام بعمل بعض النماذج في المعرض ، وعلمت من السيدة الجليلة جدته أن له بالمنزل ورشة معدة إعدادا تاما يقوم فيها بإشباع تلك الموهبة . وهذه ثروة صناعية وفنية لم يكشف عنها إلا النشاط المدرسي، وتلميذ في مدرسة قنا الثانوية اختصته المدرسة بحجرة يعرض فيها أعماله وأجهزته الكهربائية ، وكل من زاره يذكر مقدار ما شعر به من غبطة وسرور لهذا الاتجاه السليم الذي وجهته المدرسة إياه في ميدان النشاط المدرسي . ونحن مازلنا مبتدئين ، ولا بد أن الزمن سيقوي دعائم النشاط المدرسي، ويوسع مجاله ، فتظهر العبقريات والمواهب، وتعمل حرة طليقة في ذلك المجال الواسع ، تصول وتجول في ميادين الفن والأدب ، والعلم والصناعة وتظهر المخترعات والمبتكرات على أيدي تلك الشخصيات الموهوبة ، التي أطلق لها العنان ، ووجهت إلى الطرق التي تناسبها .

فالنشاط المدرسي يحول ما يتعلمه التلميذ الى فوائد عملية وهو فضلا عن ذلك يكشف عن الميول والمواهب في التلاميذ ، فتبدو لكل منهم شخصيته . نعم تبدو شخصيته لأن التلميذ في ميدان النشاط المدرسي يسترد شيئا من الحرية في العمل ، والاستقلال في الفكر،

ويتحرر من نير الكتب المقررة ، واستبعاد المذكرات المهيأة ، وهى كثيرا ما تثنى عزمه عن البحث والدرس والاستقصاء ، وهـذه هى التربية الاستقلالية التى ننشدها لأبنائنا والتى تبعث فيهم الثقة بالنفس ، والاعتداد بالذات ، والاعتماد على الجهود الشخصية .

فهذا تلميـذ يقوم محاضرا بين إخوانه ، أو خطيبا فى مناظرة فهو يبحث ويدرس ويبدى الأسباب ، ويصل إلى النتائج ، وهكذا ، حتى إذا ما غادر المدرسة الثانوية غادرها وقد وثق من أنه يستطيع أن يقف خطيبا فى جمع من إخوانه . ومما يجدره ذكره فى هذه المناسبة أن تلميذا فى مدرسة ثانوية فى الوجه القبلى ، تخرج فى كلية الحقوق ويشتغل بالمحاماة ، تبرع لجماعة الخطابة والمناظرة بتلك المدرسة بجوائز أدبيـة توزع على المتفوقين فيها اعترافا بمـا لهـا من فضل عليه فى حياته العملية .

وهذا تلميذ يدرس العلوم بعمل على تطبيقها على الحياة اليومية ، فيستطيع أن يقوم فى منزله بعمل التركيبات الكهربائية مثلا ، وإصلاحها ، وإصـــلاح الراديو ، وعمل الكولونيا والصابون وهكذا .

وهذا آخر يميل إلى فلاحة البساتين فيعشق الأزهار وتربية النحل والدواجن ويلم بالكثير من الصناعات الزراعية والمنزلية .

وهذا آخر أغرم بالموسيقى أو بالرسم والتصوير فأبدع وتفنن .

وهذا تلميذا جذبته الأشغال اليدوية فأحسن الابتكار بمـا يدل على حسن الذوق .

والواقع أن كلا من هؤلاء كوّن لنفسه شخصية خاصة به تلازمه مدى الحياة ، شخصية كثيرا ما تنـال إعجاب الغير واحترامه وحسن تقديره .

ولو سئلت ماهو أهم مايؤديه النشاط المدرسى فى تكوين الشخصيات ، لقلت هو إشعار التلميـذ بالمسئولية ، ومتى شعر بالمسؤولية قلت أوقات الفراغ التى يقطعها جزافا ، والتى يمضيها عبثا وفيما لايفيد ، لأنه مشغول ، يفكر بعقله ، ويجرب ويعمل بيديه ، فجميع أوقاته مشحونة بحب الاستطلاع والبحث والتنقيب . وهو يسير بعينين مفتوحتين لتريا كل شىء وعقل مستعد لتفهم مايحيط به من ظواهر ومظاهر ، فهو بذلك بعيـد عن مواطن السوء بعيد عن كل ما يقطع عليه السبيل إلى النهوض العلمى ، والسمو الخلقى ، والقوة الجثمانية ، وهو بكل ذلك سعيد ممتلئ غبطة وسرورا . ولايشعر التلميذ بالمسئوليـة إلا إذا تعوّد الثقة بالنفس فيما يبدؤه بنفسه ، وهو نفعه وخطره ، وهذا هو مفتاح الشعور بالمسئولية ، فالتلميذ

الذى يشترك فى النشاط المدرسى ، والذى يساهم فى ناحية أو أكثر ، يجب أن نوحى اليه بالشعور بالحاجة إلى عمل الأشياء ، والرغبة فى القيام بها ، بدافع من نفسه ، لا أن نشعره بأنه يتحتم عليه عملها ، والقيام بها ، ويجب ألا نتدخل معه إلا بالقدر اللازم لمجرد الإرشاد والتوجيه ، أو للتنبيه إلى أشياء لا يعرفها ، أو إلى طريقة توصله إلى النجاح فيما هو بصدد القيام به ، أو لنشجعه على القيام بعمل قد يظنه صعبا . ويجب أن يفهم أنه هو القوة المفكرة والمنفذة وأنه يجب عليه أن يكافح ويجاهد فى التحصيل وفى الدرس ، وفى إعداد نفسه للحياة ، حتى لا تهزمه الصعاب التى تضعها فى سبيله الظروف ، وحتى يستطيع التغلب عليها ، فيشق طريقه ، وتتهيأ له أسباب النجاح والسعادة والهناءة .

الشباب

كان الموسيو بوانكاريه وزيرا للمالية فى احدى الوزارات الفرنسية وهو لم يتجاوز الثلاثين من عمره ، وكان يطيب لبعض أعضاء مجلس الشيوخ أن يعيروه بصغر سنه ليغيظوه وحدث أن قاطعه أحد الشيوخ قائلا : أعذروا الوزير فهو شاب لا يستطيع أن يلم بواجبات وظيفته الإلمام الكافى . عندئذ ضرب بوانكاريه المنبر بقبضة يده وصاح : " والله ان الشباب عيب تودون جميعا أيها الشيوخ أن يكون فيكم " .

تنظيم أوقات الفراغ

للأستاذ حسن رمزى بك

مدير إدارة الخدمة الاجتماعية والشؤون الاجتماعية

تخضع الشخصية العامة فى كل أمة إلى نواميس ومؤثرات ، شأنها فى ذلك شأن الفرد وهذه حقيقة علمية يعرفها كبار المصلحين ويعملون دائما على ضوئها ويتخذونها أساسا لوضع سياساتهم الاجتماعية . فهم يبحثون أسباب الضعف والقوة المادية والأدبية ويدرسون استعداد الأمة وقابليتها للإصلاح ثم يرسمون بعد ذلك طريق الإصلاح .

فلكل أمة حياة كما للفرد . ومظاهر هذه الحياة كانت موضع بحث العلماء كل بحسب اختصاصه ، وما سياسات الإصلاح سوى ربط نتائج الأبحاث بعضها ببعض فى نظام يوحدها ويوجهها نحو غايات معينة .

وقد ألف كثير من المصلحين نظاما معينا من الإصلاح أو أنموذجا يرجعون إليه فى تفكيرهم لإيجاد أمة قوية سعيدة حتى باغتهم ظهور نوع جديد من الإصلاح الاجتماعى مكمل لهذا النموذج وهو " تنظيم أوقات الفراغ " وكان هذا بمثابة اكتشاف اجتماعى يذكرنا بما نعرفه عن حياتنا كأفراد من أن الراحة مكملة للنشاط وأن النوم مكمل لليقظة وأن الإنسان مطالب بحكم طبيعته أن يرتب هاتين الحالتين وأن يوجد التوافق بينهما محافظة على كيانه البدنى والعقلى .

لم يكن هذا النوع الجديد من الإصلاح مباغتا إلا من حيث تطبيقه ، إنما هو ثمرة تجاريب اجتماعية وله أسباب وتاريخ وتطور . فلقد اتجهت سياسة الإصلاح العامة فى كل مكان نحو الإكثار من الإنتاج بأنواعه ورفع مستواه بزيادة النشاط . واستثمار الموارد الطبيعية والمواهب الآدمية بأحدث الطرق . ولما اشتد التنافس بين الدول تطورت هذه السياسات وتخصصت فروعها وظهرت برامج للإنتاج واضحة واشتهر أمرها دوليا . على أن كل نشاط مزايد لن يخلو من إسراف تصحبه آفات وعيوب مهلكة للقوى فيؤدى إلى انحطاطها كما أنه يورث الملل والسقم والأمراض والتذمر والشعور من العمل .

ولقد مرت المدنية الحديثة بتجاريب قاسية قبل أن تدرك الأمم أهمية هذه الحقائق التى سبق للفرد أن أدركها من تجاريبه الخاصة . فكم من اعتصابات حدثت ومنازعات قامت بين المولين والعمال فى المدن والأرياف بسبب تحديد ساعات العمل وأيام الراحة الأسبوعية

والسنوية . فالنشاط — كوظيفة طبيعية واجتماعية — حقوق كما عليه واجبات . ولهذا يجب أن يكون لكل سياسة إصلاحية وجهان متقابلان . أما إغفال هـذا الأمر فهو ستر لعيب اجتماعي حلف العمل والإنتاج وهو في الحقيقة شر ينبت في الأجسام والنفوس ويتضخم على مر الأيام عاملا من عوامل الضعف الاجتماعي . وكان العمال في الدول الراقية أسبق من الحكومات بحكم الضرورة إلى مكافحة هـذا العيب إما عن طريق المطالبة بتشريع جديد وإما عن طريق آخر وهو الرياضة البدنية الشعبية .

فالرياضة الشعبية هي وقاية من الملاهي الضارة لأنها تبعد الإنسان عن أماكن الميسر والخمر وغيرها من مستوى المجتمع ، وهي بذلك وقاية من التبذير كذلك لأنها تزيد الجسم صحة وقوة وتكسب النفس صفات اجتماعية منها روح التضامن والثقة بالنفس والشعور في معترك الحياة بالتفاؤل والمودة والعطف وحب النظام والصبر ، ولكن ظهر في كثير من الدول أنها غير كافية لمواجهة آفات العمل ولم تنقطع شكاوى العمال على الرغم من تحسن حالاتهم وارتفاع مستوى معيشتهم ووجود أنظمة مختلفة لحمايتهم وحماية أسرهم كقوانين التأمين بأنواعه . بل كانت الصفات الرياضية أداة للحزبية وكثيرا ما وقفت في مواجهة الصالح العام . وقد لجأ الى استثمارها وبث الدعاية عن طريقها أحزاب وطوائف أخرى واتخذوا منها أداة لتنظيم الصفوف وتوحيد المجهودات للوصول إلى غايات محدودة . فلها بذلك وجهان وجه للخير وآخر للشر وإنها كالنشاط العام في حاجة الى توجيه يراعى فيه إيجاد التوازن الاجتماعي لا سيما في دول شعرت بوجوب مضاعفة نشاطها والإكثار من إنتاجها ورفع مستواه إلى أقصى حد ممكن .

كذلك توجد أنواع كثيرة من الملاهي البريئة ودواعي السرور يلجأ الإنسان اليها في أوقات فراغه ليعيد إلى نفسه نشاطها منها سماع الموسيقى والأغاني وحضور حفلات التمثيل والسينما والحفلات الاجتماعية المرحة ومنها مشاهدة الجمال في أنواع الفنون . غير أن التمتع بهذه الأنواع غير ميسور لكثير من العمال والفقراء فهم محرومون منها لظروف عديدة أهمها غلاء هذه الملاهي وصعوبة التوفيق بين مواعيدها ومواعيد العمل والراحة . ولهـذا فانهم يقضون أوقات فراغهم فيما لا يعود عليهم بفائدة صحية أو نفسية . فهم يقتلون الوقت وهيهات أن يسلموا من شر الملاهي الرديئة وهم يعطلون في كل حال بعض النشاط المدخر فيهم . وقد تنبهت بعض المصانع الكبرى إلى ذلك فنظمت أوقات الفراغ لعمالها بعد أن ثبت لها أن هذا يعود عليهم بفوائد مادية وأدبية ويقلل من تذمرهم ، كما أنه يزيد من إنتاجهم ففتحت لهم أندية يجد فيها العامل بيئة تلائمه ويستفيد منها صحة وثقافة وحظا وافرا من الألعاب الرياضية والملاهي السليمة والحفلات البريئة بأنواعها ، كما يجد فيها الغذاء الصحي الرخيص وبعض أنواع المعونة متى احتاج اليها .

هذه التجاريب الاجتماعية أظهرت الرابطة بين العمل وأوقات الفراغ وأرشدت المصلحين إلى طريق جديد لمكافحة عيوب النشاط الاجتماعي في البيئات المختلفة، وكان من الضروري الاستفادة من هذه النتائج والجمع بين ما قررناه بشأن الرياضة الشعبية وأندية العمال وتنسيقها في نظام يوحدها ويوجهها إلى خدمة الصالح العام، وهذا ما قامت به بعض الحكومات ونفذته وساهمت في نفقاته . وتأيد نجاحه في مؤتمرات دولية وكان مظهرا من مظاهر التعاون الحكومي الأهلي والتعاون بين الطبقات وأدى إلى زيادة الإنتاج والثروة العامة وإلى رفع مستوى العامل في المصانع والمزارع والمكاتب من حيث الفن والثقافة والشعور بالكرامة الذاتية والقومية، وأكسبه تربية اجتماعية قويمة .

ولم يكن الإكراه أساسا لهذا النظام، إذ للعامل حرية الاشتراك فيه والانضمام تحت لوائه ولكنه ككل نظام يطالب أعضاءه بواجبات كما يمنحهم حقوقا وميزات .

هذا النظام عبارة عن مجموعة من أندية ومؤسسات شعبية منتشرة في أنحاء البلاد تديرها هيئة رئيسية ذات فروع وشعب تشرف عليها وتراقبها وتشجعها طبقا لبرامج موضوعة تناسب البيئات المختلفة . وتنشيء أخرى كلما دعت حاجات البيئات لذلك، كما أنها تستعين بالمدارس والمؤسسات الأخرى القائمة والمسارح وغير ذلك للوصول إلى غاياتها وتتألف هذه الهيئة من رئيس ووكيل وإدارات لكل واحدة منها اختصاص معين، وهذه الاختصاصات هي الشؤون العامة والفنون والثقافة والرياضة والرحلات والمعونة والتأسيس والإدارة. وتستعين في عملها بأقسام للتفتيش والصحة ومكاتب فنية وقضائية . وهي كوظائف عقل مدبر تحركها إرادة فعالة نحو غايات قومية شعبية لتهيء للشعب أحسن الظروف التي تكفل له حياة سعيدة . وذلك بعد درس جميع المؤسسات والأندية الحكومية والأهلية التي يمكن الانتفاع بها لتحقيق هذه المطامح وتحديد طرق الانتفاع ووسائله . وكذلك بعد بحث أنواع الملاهي والمسرات والألعاب ومظاهراتها وحفلاتها في المناطق المختلفة التي تقام فيها ثم تنسيقها وتنفيذ نتائج أبحاثها لتوجيهها توجيها اجتماعيا لمصلحة الشعب على أساس المبادئ التي تقرر نجاحها في الدول المختلفة لمعالجة المشاكل الاجتماعية لا سيما من وجوه الفقر والمرض والجهل .

وتصدر هذه الهيئة أوامر وتعليمات وإرشادات إلى فروعها في المناطق والأقاليم والمدن والقرى وتقوم بالتفتيش عليها ومراقبتها .

توجد في مصر حركة إصلاح كبيرة . ونحن نشعر بضرورة الإنتاج وبحاجتنا إلى تربية اجتماعية سليمة وإلى وجوب تنظيم صفوفنا على أساس توازن اجتماعي بين الطبقات. ونحن نعلم أن ميادين الإصلاح عديدة متنوعة كما نعلم مواطن ضعفنا وقد بدأنا ندرك أن حركة الإصلاح الاجتماعية منشؤها روح قومية تجند الأفراد والجماعات لخدمتها، فيجب أن يعمل

كل راغب فى الإصلاح العام على توحيد أنواعها كلما كانت هذه من طبيعة واحدة وترمى إلى غايات واحدة. فالأمة أصبحت أكثر استعدادا لقبول ذلك وهو فى ذاته قوة وفيه اقتصاد فى الوقت والنفقات والجهود ، وأن ما نسعى إلى إنشائه من أندية رياضية ومؤسسات اجتماعية لإسعاد الفلاح والعامل والفقير والمحروم ورفع مستوى معيشتهم يمكن معالجته فى سياسة موحدة لنشاطها وغاياتها والانتفاع بما هو موجود منها الآن فضلا عن الانتفاع بالمقاصف والمسارح وغيرها — يجب أن نبدأ فى تقرير هذه السياسة اقتفاء لغيرنا وأخذا بتجارب الأمم الأخرى بجميع الوسائل متوافرة لدينا لا سيما ونحن نرى بيننا بعض الجاليات والطوائف الأجنبية تنفذ مثل هذه السياسة لتحقيق أغراضها الاجتماعية التى تعود على أبنائها بفوائد عظيمة والتى تجتذب كثيرا من المصريين إلى الانضمام تحت لوائها . كذلك أن الطريق ممهد لأن حركة إنشاء الأندية حديثة العهد فهى قابلة للتشكيل والتوجيه .

ونحن أحوج من شعوب كثيرة إلى هذا النوع من الإصلاح الذى يعيد إلى هذه الطبقات الفقيرة شعورها بالكرامة ونصيبها العادل من ثمرة جهودها وينهض بها من تلك المدرج السحيقة التى هبطت إليها ويسعف ضحاياها المنتشرين فى كل مكان. وغير كاف أن تسمعها أناشيد الإصلاح تعلو أنغامها يوما بعد يوم ونطالبها بالتضحية فى سبيل الوطن وإعزازه دون أن يعود عليها ذلك بفوائد محسوسة ، بل على العكس أنها ألفت الشعور بأن الغرم نصيبها والغنم من حظ سواها . ويدلنا لسان حالها على يأس وسوء ظن بما يدور حولها .

لم تكن هذه الحالة نتيجة عيوب فى استعدادنا القومى ووحدتنا ، بل إنه أثر من آثار المدنية الحديثة التى باغتتنا بخيرها وشرها ولم نسرع إلى الأخذ بنظمها الضرورية لمكافحة آفاتها .

يجب أن يكون الإصلاح مناسبا للنهضة القائمة وللروح الاجتماعية الجديدة وأوسع أفقا من الإصلاحات السابقة ، يراعى فيه التوازن بين الطبقات وألا يكون محصورا فى أجزاء أو طبقات أو مناطق، أو بتعبير آخر حديث يجب أن نكون أكثر جرأة فى الإصلاح والجرأة فى هذا المقام سوى الاعتدال فى حدود التضامن الاجتماعى الذى هو صفة العصر الحديث .

حسين رمزى

عوائق تقدّم الفنون الجميلة الشعبية فى مصر

للأستاذ أحمد شفيق زاهر بك

الإنسان منذ بدء التاريخ يبدى ميلا ظاهرا إلى التزيين والتجميل ، ورغبة واضحة فى تنميق ممتلكاته . ولم يكن يكفيه أن تؤدى أدوات أكله وأسلحته وسائر حاجياته أغراضها النفعية ، بل كان يعنى بأن تكون هذه الأشياء مصنوعة بطريقة تشبع ميوله الجمالية . والفنون فى أول شأنها لم يكن يقصد بها التسلية ومتعة النظر ، ولكنها نشأت وليدة الغريزة الفنية فى الإنسان . وجاءت نتيجة طبيعية لحياته الخاصة فامتزجت بها وأصبحت جزء منها . ولم يكن يهديه فى أعماله الفنية إلا خبرته ونزعته العملية من غير أن يتأثر بنوع من التقاليد سبقه إليه غيره . على أن عقائده وأوهامه وما كان يراه من مظاهر الطبيعة التى تحيط به ، وما لم يكن يدركه من أسرارها الغامضة — كل ذلك كان مصدر إلهام له فى ابتكاراته المختلفة .

والفنون مظهر من مظاهر تقدّم الشعوب ورقيها ، منها تتبين نوع ثقافتها وحضارتها . وهو قول لا يقصد به تلك الصور والتماثيل التى يخرجها الفنان الحديث لتزيين القاعات وإرضاء النزعات الحديثة المختلفة . ولكن المقصود هو تلك الفنون التى تنشأ عن أساليب الأمة فى المعيشة . فالمساكن والمعابد والملابس والحاجيات هى التى تلقى ضوءا تتبين منه مظاهر التقدم والرقى ونوع الثقافة والتقاليد .

والفنون الشعبية هى التى تصدر عن الشعب نفسه دون أن يكون لفنون شعوب أخرى تأثير مباشر فيها . وهى تصدر منه معبرة عن مزاجه الخاص ووجهات نظره إلى الحياة تنعكس فيها عقائده الدينية وتقاليده الاجتماعية ، كما يظهر فيها تأثير البيئة المحلية وما يتبع ذلك من أساليب المعيشة فى شتى نواحيها . وفى الجملة هى الفنون ذات الطابع القومى التى تميز هذا الشعب أو ذاك عن غيره من الشعوب ، حتى لقد قيل إن الفنون فى إقليم من الأقاليم إذا ما شابهت فنون إقليم آخر كان ذلك دليلا على أن سكان الإقليمين قد انحدروا من جنس بشرى واحد ، غير أن الأخذ بهذا الرأى معناه إغفال ما للعوامل التاريخية والسياسية والاقتصادية من التأثير فى تكوين الفنون الشعبية وتكييفها .

ومما لا شك فيه أن الشعوب تتفاعل بعضها مع البعض الآخر بالوسائل الإقتصادية ويكون من نتيجة هذا التفاعل أن تتبادل السلع وتقتبس العادات فتتأثر بذلك الفنون الأصلية وتتطور تدريجا فى بطء أو فى سرعة إلى فنون مختلفة يختلف قدر ما فيها من الشوائب الداخلية تبعا لقوة المؤثر الخارجى وما لا يحصل نتيجة للتفاعلات الاقتصادية السلمية قد يأتى نتيجة لغزو حربى أو سيطرة سياسية . ويمكن للباحث أن يجد أثر هذه التفاعلات فى الفنون المصرية .

وتظهر الفنون الشعبية فيما يبتكره الفنان الشعبي من الأشياء التي لها صلة مباشرة بحياة الناس وطرق معيشتهم ، ومن هذه الأشياء قطع الأثاث المختلفة التي أبرز أمثلتها عندنا (الطبلية) والصندوق الخشبي المعروف ذو الألوان البهيجة الذي لا زال إخواننا في الريف يحرصون على اقتنائه ،وهو يذكرنا بالصناديق التي وجدت على قبور قدماء المصريين مما يدعو إلى الظن بأنه قطعة من الأثاث شقت طريقها إلينا هذه الآلاف من السنين .

والسلال والمراحين والمراوح التي لا زال أبناء الصعيد يصنعونها من الخوص والقش تشبه في ألوانها وأشكالها ما كان يصنعه القدماء منها ، وما زالوا يصنعونها بنفس الطريقة بل يختارون لها الألوان بعينها .

وعقود الخرز الجميلة والحليات المعدنية الطريفة التي تتزين بها السيدات في الوقت الحاضر تسترعي النظر لما بينها وبين الحليات الفرعونية من شبه واضح يجعلنا نعتقد في انحدارها الينا من أصل قديم .

والآنية المصنوعة من الفخار، على اختلاف أنواعها ، كالزير والقدر والبلاصي والقلة — كل هذه قد ارتبطت بالبيت المصري أجيالا متعاقبة حتى أصبحت بحق من مميزات الفن الشعبي في مصر .

وعند ما نتكلم عن القلل المصرية لا ينبغي لنا أن ننسى (شبابيك القلل) فلقد وجد الفنان الشعبي فيها مجالا للتفنن والابتكار ؛ وفي دار الآثار العربية مجموعة كبيرة من هذه الشبابيك بها نقوش غاية في الدقة وجمال التكوين وهي أشبه ما تكون في شكلها بقطع الدنتلا .

ومن هذه الأشياء أيضا الحصير ذو الزخرفة الهندسية الملونة بالألوان الساذجة المرحة التي تطيب بها النفس وترتاح لها العين ؛ والحصير فراش للأرض يلائم طبيعة البلاد لسهولة تنظيفه مما يعلق به من التراب ولعدم احتفاظه مادته بحرارة الجو في الصيف .

وفي الريف يقوم الفلاحات بعمل (طواقي) للرجال ومناديل للرأس للسيدات يطرزنها بوحدات هندسية وغير هندسية وهي تمتاز ببساطة الفرزة وحسن التنسيق .

هذه بعض لأمثلة مما أخرجته يد الفنان الشعبي لمواجهة مستلزمات معيشته. على أن هناك علاوة على ذلك مناسبات قومية وتقاليد جرى عليها الناس في مواسم خاصة أتحت هي الأخرى للفنان الشعبي فرصا للإنتاج الفني ؛ ففي مولد النبي تصنع عرائس من الحلاوة وتكسى بالورق الملون وفي رمضان تستخدم فوانيس محلاة بالزجاج الملون ؛ فعرائس المولد من الفنون الشعبية المصرية الرائعة ، إذ أن في إنشائها تجريدا فنيا يسترعي النظر وأن في ملبسها المصنوع من الورق أناقة ورقة وأنوثة تليق بالعروس حقا وهي في جملتها تجذب النظر وتثير الشعور بالإعجاب .

أما فوانيس رمضان وكانا يعرف الغرض الذى كانت من أجله تستعمل ففيها تفنن فى الأشكال والألوان ومن منا لم يستهوه منظر مجموعة منها مضاءة فى ليل حالك وهى تتأرجح فتختلط لأضواء الملونة فتبعث فى النفس السرور والانتعاش .

ومن هذه المظاهر الاجتماعية رجوع الحجاج وما يتبع ذلك من إعداد واجهات المنازل لاستقبالهم ، فترى الأسد مشدودا إلى محلة فى الصحراء ، وترى الفارس شاهرا سيفه ، والجمل يحمل الهودج على ظهره وغير ذلك من الصور التى توحى بمعانى القوة والشهامة والنصر ، ولا يخفى ما لارتباط هذه المعانى بما يلقاه الحاج من مشاق السفر ووعورة الطريق .

ولست أبغى من هذه العجالة أن أتكلم عن الموسيقى الشعبية ، فهى من الفنون التى لم تتأثر بالدرجة التى تأثرت بها الفنون الشعبية الأخرى نتيجة للتفاعلات التى سبق ذكرها ، ولكنى أود أن أضيف إلى ما ذكرت بعض الآلات الموسيقية الشعبية (كالدربكة) الطبلة البلدية والأرغول المصنوع من القاب والربابة بحجر الزاوية فى مجالس الربابة المعروفة ، وكلها من صنع الفنان الشعبى ابتدعها لحاجته إليها ، فجاءت أصواتها متفقة مع طبيعة موسيقاه الشعبية .

كل هذه الأشياء التى ذكرنا وغيرها هى من مبتكرات الفنان الشعبى نفسه ، فهو لم يكن مقلدا ولكن مبتكرا يغالب الطبيعة وتغالبه ، ويكيف موادها بقدر ما تطاوعه الآلات الأولية التى ابتكرها هى الأخرى ، وهو يختار لهذه المواد الأشكال والأوضاع التى تحقق أغراضه وتعبر عن الموضوع الذى يعالجه فتخرج القطعة من بين يديه ناطقة بمختلف المعانى والعواطف ، مليئة بالأحاسيس يتجلى فيها مبلغ تأثره بالفكرة . وما التجريد وما التحريف والمبالغة التى نشاهدهما فى الفنون الشعبية إلا نتيجة لتغلغل الفكرة وثبات العقيدة .

والفنان الشعبى لا يقلد الطبيعة فى أشكالها وأوضاعها ، بل هو يوضح المعانى ويعبر عن الوجدانات المختلفة ، فاذا استخدم الطبيعة لهذا الغرض فانما يستخدم من عناصرها وأشكالها وأوضاعها مادة يودعها من ذكرياته وأحاسيسه المختلفة مايجعلها حقيقة ملموسة شاخصة أمامه ، لذلك امتازت الفنون الشعبية بالبساطة التى جاءت نتيجة لعدم التقيد بمظاهر الأشياء الطبيعية .

كل هذه الفنون بمزاياها التى ذكرنا رغما عن اتفاقها مع بيئتنا وعاداتنا وتقاليدنا ومزاجنا عاقها عن التقدم والاستمرار والرقى عوائق جمة ، فلقد تقدمت العلوم وكثرت الاختراعات الحديثة حتى أمكن الاستعاضة عن كثير مما كان يقوم به الفنان الشعبى بأشياء أخرى هى أسهل استعمالا وأقرب الى تحقيق غرضه وقد تكون أكثر إمتاعا له من كل النواحى إلا الناحية الفنية . وليس معنى هذا أن كل السلع الحديثة خالية من عوامل التجميل والحساسية بالفن ولكن كثرة الإنتاج وتعدد المصانع والمراحات الاقتصادية جعلت الناحية الفنية فى السلع تتضاءل إلى حد كبير أمام أصول التجارة ومستلزماتها التى لها الكسب بكل الوسائل دون

مراعاة لأى اعتبار آخر لذلك انزوى الفنان الشعبي وهزلت الفنون الشعبية ولم يعد يتوارث الأبناء صناعة الآباء وانصرف الناس إلى تقليد الفنون القديمة يشكلون العاج وسن الفيل بأشكال فرعونية قديمة كقطع الزينة وأيد للمنشات، ويصنعون قطعا منونة من القماش تقليدا لما وجد منقوشا فى قبور الفراعنة وينقشون النحاس وغير ذلك فنشأت صناعات فى خان الخليلي أساسها تقليد الفنون الفرعونية والقبطية والإسلامية هى أقرب ما تكون إلى مسخ تلك الفنون منها إلى فنون شعبية .

ولقد طغت المدنية الأوروبية على البلاد المصرية بسبب سهولة المواصلات وإيفاد البعثات وغير ذلك من الأسباب وامتلأت الأسواق بالواردات الأجنبية ، فأعجبنا بالأجنبي فى كل شيء . وقلدناه فى كل شيء . وأصبح نفر منا يباهى غيره بمبلغ ما وصل إليه من التقليد . قلدنا الأجنبى فى ملبسه وفى مسكنه وفى طريقة معيشته . على الرغم مما بين جونا وجو بلاده . وعاداتنا وعاداته ، من اختلافات شديدة . وسلم نفر منا أطفاله للمدارس الأجنبية ينشؤونهم نشأة بعيدة عن أن تكون مصرية قومية . فلم نعد نعير أعيادنا القومية الأهمية التى تتفق إيماننا بها ، وتحمسنا لها ، ولم نعد نعتز بقوميتنا كما كان يعتز بها آباؤنا الأولون .

ولسنا ندعو من وراء ذلك ، إلى عدم الأخذ إطلاقا بأساليب المدنية الحديثة ، أو إلى عدم الاستمتاع بمخترعات العلم الحديث . بل إن الواجب علينا أن نعمل على كشف المواهب الفنية الدفينة . وتعهدها . لكى تنمو وترتقى . حتى تكون حاجياتنا متفقة مع بيئتنا وتقاليدنا ومزاجنا وقد نصل إلى هذا الغرض بالوسائل الآتية :

أولا — الاهتمام بالأعياد القومية والمناسبات الوطنية كما يفعل الأجانب فى أعيادهم ومناسباتهم ، ولكن بطريقتنا نحن لا بطريقتهم هم . فان الذوق لينفر من أن يحتفل بموسم شرقى مصرى صميم على طراز أجنبي غربى ليس بينه و بينه صلة ولا سبب .

ثانيا — تكوين متحف يجمع أمثلة من الفنون الشعبية التى اندثرت أو التى فى طريقها إلى هذه النهاية يتردد عليه أفراد الشعب عامة ، والصناع بوجه خاص فيعملون على إحياء ما مات من تلك الفنون وعلى إنعاش ما زال منها باقيا .

ثالثا — تعهد الفنون الشعبية . واحترامها من طبقات الخاصة والهيئات الفنية التى عليها الإشراف على الفنون .

رابعا — القيام بدعاية واسعة النطاق لتعويد النشء الاعتزاز بقوميته والحفاظ لها ، حتى يقول كل مصرى بلسانه وبقلبه القول المأثور : (لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا) .

أحمد شفيق زاهر

مدير مدرسة الفنون الجميلة العليا

كيف نستغل غلاتنا الزراعية فى الصناعة

للأستاذ حسين عارف

أستاذ الصناعات الزراعية بكلية الزراعة

لقد اقتصر اتجاه سياستنا الزراعية الحالية خلال القرن الأخير نحو التوسع فى زراعة القطن فقط ، وأهملت الأركان الأخرى من الإنتاج الزراعى السليم ، وإذا كان نظامنا الحالى قد صلح لعهد مضى فإنه لا يصلح لعهدنا الحاضر ولن يصلح للمستقبل ، فان مساحة أرضنا الزراعية محدودة وعدد سكاننا فى ازدياد مستمر ونفقات الحياة فى ارتفاع مستمر أيضا يهدد مستوى المعيشة بالهبوط عن معدله الحالى المنحط بطبيعته ، وان الضائقة المالية التى حلت بالبلاد منذ عام ١٩٣٠ ، إنما تدل فى الواقع على سوء السياسة الزراعية التى جرينا عليها فى حشد جميع قوانا للعناية بالقطن فقط ، حتى أصبحت له أكبر مكانة فى شؤوننا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ولقد تكون علة تمسكنا بالقطن خلال القرن الأخير وجمود سياستنا الزراعية طول تلك المدة ، ترجع إلى إنتاج مصر فى ذلك الوقت قطنا طويل التيلة ممتاز الصنف مع اشتداد الطلب عليه ، فأفادنا ذلك التخصص كل الفائدة وصحبنا فى سبيله بكل مرافق الإنتاج الأخرى ، غير أن الوضع الماضى لتجارة القطن قد تغير ، فأصبح السوق لا يقبل على القطن الممتاز إقباله السابق ونجحت بلدان كثيرة فى زراعة القطن وخصوصا الأصناف قصيرة التيلة وأخذ الطلب يخف نسبيا على محصولنا وفقدنا بالتدريج مركزنا الذى تمتعنا فيه بالتخصص مدة طويلة من الوقت . ولا شك فى أن القطن لا يزال سلعة دولية هامة ، ولا شك كذلك فى اضطرارنا للاعتماد عليه كمورد رئيسى من موارد ثروتنا القومية ، غير أنه يجب فى الوقت نفسه تعديل نظامنا الزراعى وتنويع أركانه وتنظيمه على أساس أكثر مرونة وإنه لحسن الحظ تستغل بعد نواح كثيرة .

وتتلخص طرق الاستغلال الزراعى القويم فى استثمار الأراضى الزراعية على أكمل وجه اقتصادى ممكن وذلك بالعناية بزيادة غلة المحاصيل الرئيسية وتحسين حالة الإنتاج الحيوانى والتوسع فى استغلال الصناعات المتعلقة بالمنتجات الزراعية والحيوانية وهى ما تعرف بالصناعات الزراعية وصناعات الألبان .

ولا يعنينا هنا غير الصناعات الزراعية وهى ركن أساسى فى الإنتاج الزراعى عرفته مصر من القدم واستثمره الفلاح على حالة أولية لكفاية حاجته ، غير أن الرغبة فى استغلال هذه الصناعات إلى أكبر حد اقتصادى مستطاع يلجئنا إلى التفكير فى طرق الأسواق الدولية

وإمدادها بمختلف المنتجات الغذائية وغير الغذائية ، لإيجاد موارد مالية جديدة للبلاد فضلا عن كفاية السوق المحلى بحاجته التى تبلغ نحوا من ثلاثة ملايين من الجنيهات سنويا .

وتتكون الصناعات الزراعية من جزأين رئيسيين ، أولهما يشمل الصناعات التى يمكن للفلاح العادى مزاولتها واستغلالها بنجاح تام ، كتجفيف البلح وتجفيف الخضروات وصناعة العجوة وتقطير المياه العطرية النباتية وصناعة الخل وصناعة العسل الأسود وحفظ البيض وتعرف مثل هذه الصناعات بالصناعات الزراعية الأولية ، وتتميز ببساطة عملياتها وتيسر تحضيرها بواسطة الفلاح البسيط بعد إرشاده وتدريبه عمليا عليها ، وتوجد منها صناعات قائمة فى بعض مناطق القطر غير أنها تتطلب بعض التحسين اليسير ، ويجب أن يكون المعول فى هذا النوع من الصناعات ونشرها بالريف على بساطة عملية الصناعة وقلة التكاليف وأن يراعى فى انتاجها القوة الشرائية للبلاد .

وأرجو من حضرات القراء عدم الاستهانة بشأن هذه الصناعات ولعل الأرقام تقوم بايضاح بعض ما أريد بيانه فى هذا الشأن ، فإن مصر تنتج نحوا من ١١٠٠ مليون رطل من اللبن فى العام الواحد قيمتها نحو أربعة ملايين من الجنيهات ، غير أن استغلال ٦٠ ٪ من هذا المقدار فى صناعة الزبدة والمسلى واستغلال ٢٠ ٪ منه فى صناعة الجبن ، يرفع قيمة ثروتنا من الألبان من أربعة ملايين الى سبعة ملايين من الجنيهات سنويا ، وعلى هذا الأساس يمكننا رفع قيمة بعض حاصلاتنا الزراعية عن سبيل الصناعات الزراعية ، فمثلا نجد أن محصول النخيل بمصر تتراوح قيمته السنوية مابين ٦٠٠ — ٨٠٠ ألف جنيه مصرى ، وهو محصول نحو أربعة ملايين نخلة ، ويجفف تقريبا نصف المحصول السنوى للبلح ، ويؤدى تهذيب طريقة التجفيف المتبعة الى رفع قيمة البلح الجاف الى ضعف قيمته الحالية ، وترتبط بهذه الصناعة الأخيرة العجوة وهى مادة غذائية محبوبة تقبل عليها جميع الطبقات وخصوصا الفقيرة ، غير أن طريقة تحضيرها فى حاجة شديدة للتهذيب الكثير ، وليس هناك شك فى توفر العناصر الغذائية بالبلح والعجوة فلو تيسر انتاج المادة الأخيرة تبعا للقواعد الصحية ، لأدى ذلك الى توسيع مجالها التجارى ، كذلك نجد أن سعر الطماطم الطازجة ينخفض فى فترات معينة من السنة انخفاضا شديدا غير أن زراعة الصنف الصالح للتعبئة الطازجة والتصدير مع مراعاة الاعتبارات المختلفة المتعلقة بالتصدير يؤدى الى رفع قيمتها التجارية الى حد كبير ، ولقد بيع فى عام ١٩٣٧ الطن الواحد من الطماطم تسليم رصيف الاسكندرية بسعر ٢٢ جنيها مصريا ، فى حين كان يباع الطن الواحد من الطماطم البلدية بسعر يقرب من ٢٦٠ قرشا ، هذه أمثلة بسيطة أردت ذكرها للتدليل على أثر بعض هذه الصناعات الأولية .

وأرى نشر هذه الصناعات عن سبيل إحدى الوسيلتين الآتيتين :

(١) الإرشاد العملي — وذلك باختيار عدد محدود في مبدأ الأمر من المناطق الزراعية المركزية المشهورة بانتاج محاصيل معينة والعمل على اقامة هذه الصناعات أو ما يتيسر منها . وإرشاد سكان تلك المناطق الى أهميتها الاقتصادية والى الفوائد المادية التي تعود عليهم من جراء استغلالها والى بساطة عملياتها وقلة ما تحتاج اليه من مال وتدريبهم عمليا والعمل على ازالة ما يعترض سبيلهم في هذا الشأن . ويؤدي نجاح قيامها في المناطق المركزية الى انتشارها تدريجيا في النواحي المختلفة القريبة منها من تلقاء ذاتها تبعا لسليقة الفلاح في ذلك عند اقتناعه عمليا بفائدة عمل من الأعمال وخصوصا عندما يتيسر له أسبابه . وتقوم بهذا العمل في الوقت الحاضر المراكز الاجتماعية التي تم انشاؤها في بعض المناطق .

(٢) لمدارس المتنقلة — وهو نوع من المدارس الزراعية معروف بالبلاد الانجليزية وخصوصا في المناطق الزراعية منها التي تهتم بانتاج الألبان وتربية الماشية وهذه المدارس عبارة عن وحدات دراسية متنقلة كاملة المعدات تزور سنويا عدة مراكز في كل أقليم وتدرس فيها طرق صناعة الزبدة ومختلف أنواع الجبن وانتاج اللبن المظيف الخ وتستغرق الدراسة من عشرة أيام الى أسبوعين ويتولى التدريس فيها اخصائيون في الألبان . والغرض الأساسي من مثل هذه المدارس هو تثقيف المزارعين وأولادهم وخصوصا الفقراء منهم وعمال المزارع ومن على شاكلتهم الذين يحرمون من التعليم الزراعي تبعا لحالتهم المالية أو بسبب ظروفهم الخاصة التي لا يتيسر لهم التفرغ للدراسة بالمعاهد الزراعية وبذلك يتسنى تثقيف الفلاح في داره وامداده بثقافة زراعية عملية بسيطة .

أنتقل بالقراء الى الجزء الثاني من الصناعات الزراعية . وهو جزء يشمل مختلف الصناعات التي يحتاج الى رأس مال كبير وخبرة فنية وطويلة . وتعمل هذه الصناعات كسابقاتها على استغلال الجزء الزائد من الخامات الزراعية الطازجة في الصناعات وهي في الواقع تزيد دخل المزارع عن سبيل غير مباشر . ومثالها حفظ المواد الغذائية في العلب الصفيح وحفظ اللحوم بالتبريد الصناعي وصناعة السكر والنشا والجلوكوز والزيوت والمركبات الكيماوية المستخرجة ولا تقتصر السياسة الإنشائية لمستقبل هذه الصناعات على الفاكهة والخضروات ، بل يجب أن تشمل أيضا حاصلات الحقل والمنتجات الحيوانية . وكذلك منتجات الأسماك الى حد ما . كذلك يجب أن تشمل هذه السياسة زراعة بعض حاصلات أخرى على نطاق واسع لاستعمالها في صناعة بعض المبيدات الحشرية والمواد الطبية وفي صناعة الروائح العطرية وغير ذلك من المنتجات التي تتطلب انخفاض نفقات الانتاج ورخص أجور الأيدي العاملة وهي عوامل تتوفر لنا تماما . غير أن هذ النوع من الصناعات يتطلب لسير بخطوات بطيئة ثابتة في مبدأ الأمر

حتى يتسنى معرفة جميع الاعتبارات الفنية والاقتصادية والتجارية التى تحيط بها وحتى يمكن اكتساب خبرة صحيحة قبل التوسع فيها .

ولاشك هناك من فائدة هذه الصناعات بجميع أنواعها وحاجة البلاد الى قيامها على نطاق اقتصادى واسع ، خصوصا وأن مجالها فى مصر يكاد أن يكون بكرا ، غير أن سبيلها لا يزال شائكا ، فهى أولا فى حاجة كبيرة للتوجيه الاقتصادى الصحيح على أساس الاحصاء الدقيق ويعتبر سعادة محمود توفيق حفناوى بك أول وزير للزراعة اهتم بوضع وتنفيذ مشروعات لتوطيد الصناعات الزراعية بالبلاد فتقدم فى عام ١٩٤٠ الى مجلس الوزراء بمشروع مجلس دائم للصناعات الزراعية لوضع السياسة التى تكفل النهوض بها والإشارة على الحكومة بما يكفل حمايتها وتشجيعها . وقد أقر هذا المشروع وأنشىء لأول مرة بالبلاد المصرية مجلس دائم للصناعات الزراعية . وهذا المجلس هو الهيئة الاستشارية العليا لهذه الصناعات ولن تختلف حقوقه عن أمثاله بالبلدان الأجنبية ، وقد شكل فى أشد الأوقات حاجة له ولسوف يسيطر على التوجيه العام للصناعات الزراعية على أساس الحاجة الاقتصادية للبلاد فضلا عن أنه سوف يكون الهيئة المركزية لجميع الأعمال والشؤون المتعلقة بهذه الصناعات .

ويتوقف الانتاج الصناعى مبدئيا على مدى توافر الخامات الزراعية التى يتطلبها هذا الانتاج. ولقد لجأت بلدان كثيرة الى سياسة التركيز حتى يتسنى لها استغلال تلك الحاصلات استغلالا مربحا وحتى ينتظم تسويقها كحاصيل طازجة وتحويل ما يتخلف منها الى نتيجات غير قابلة للتلف وبذلك فإن الصناعات الزراعية بما يتوافر لها من الانتاج المركز تعمل على استغلال الجزء الأكبر من الحاصلات المختلفة دون التسويق الطازج وتعمد بالثانى الى رفع القيمة التجارية للخامات الزراعية الأصلية .

ونظرا لشدة المنافسة بالأسواق الأجنبية فانه يحسن بمصر أن تختص بانتاج مواد لا يتيسر انتاجها فى البلدان الأخرى ، منعا للمنافسة وحتى يزداد ربحنا التجارى. ويجب أن يكون المعدل فى نجاح أية مادة حالة الاقبال التجارى عليها وقبول جمهور المستهلكين لها ولذلك يحسن الأخذ بمبدأ التجربة العملية الواسعة وترقية التجارة عن سبيل الاختبار العملى قبل الحكم على نجاحها التجارى .

وتتلخص العقبات الرئيسية القائمة فى سبيل الصناعة المحلية التى لا تزال فى دور التكوين بمصر عدا ما تقدم ذكره فى عدم توفر أوانى التعبئة كالعلب الصفيح والأوانى الزجاجية وارتفاع ثمن السكر فوق طاقته الصناعية وخلو البلاد من تشريعات غذائية تنظم طرق الصناعة والتعبئة وكذا من تشريعات منظمة للوحدة النموذجية فى الصناعة والتجارة فضلا عن حاجة هذه الصناعات وخصوصا فى دور التكوين على الأقل إلى حماية جمركية تكفل قيامها

وثباتها . وهذه الحماية حق وطني للصناعة المحلية ويجب الأخذ به إذا أردنا إنجاح هـذه الصناعات بالبلاد، فان كل منافسة غير مشروعة قوية الجانب وتؤدى دائما إلى وأد أية صناعة ناشئة .

وختاما أرى أنه يجب تشجيع الصناعات الزراعية فى مصر عن سبيل البدء بالصناعات القائمة منهـا فعلا وأن نبدأ بسـد حاجتنا منها أولا ما دامت تتوافر لهـا الخامات الزراعية محليـا .

وأعتقد بضرورة توجه الأبحاث الفنية المتعلقة بالصناعات الزراعية نحو مساعدة هذه الصناعات الأولية وأن نعمل على رفعها من مستواها الحالى وأن تكون سنتنا فى ذلك التحسين البطئ دون التغيير الشديد، حيث إن معظم هذه الصناعات مصرية فى بيئاتها وفى أسواقها .

حسين عارف

" إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه " .

حديث شريف

هل نحن متحضرون ؟

الفوارق السحيقة بين مظاهرنا وحقائقنا .

بقلم الأستاذ سيد قطب

لن يصدقنا أحد حين نزعم أننا أمة متمدنة، بينما يرى فى عاصمة البلاد وفى أهم أحيائها ما يراه كل سائر من المناظر المخجلة، المناظر الآدمية الشائهة، التى لا يمكن أن تعيش فى شعب متحضر ؛ والمناظر المادية القذرة التى لا تعيش فى بيئة المتحضرين .

فبجانب الجدران وفى محطات الترام وفى الميادين وعلى أبواب المساجد والحدائق العامة والمقاهى وحيثما يقع نظر الجالس أو المار أو الراكب ، يجد طوائف من القطع الآدمية الزرية الهيئة والمظهر ، تكفى كل قطعة منها لتشويه حضارة بأسرها ، بينما هى فى مصر مبعثرة بالآلاف فى كل مكان .

هناك المشوهون المبتورو الأيدى والأرجل والمسمولو الأعين والمصمولو الآذان وقد ربطت أجزاؤهم المبتورة والمشوهة بخرق قذرة بالية وهم مطوعون بجوار الجدران يعرضون عاهاتهم على أعين المارة استدرارا لعطفهم بطريقة وجيعة ، ويؤذون بمنظرها إحساس الناس وعواطفهم — وهم معذورون ولا شك فيما يصنعون . ولكن ماذنب هؤلاء الذين تؤذيهم تلك المناظر فى الذهاب والإياب . بل ماذنب البلد الذى تتأذى سمعته ولا ريب بمثل هذه الأشكال ؟ .

وهناك المرضى المتهالكون تتداعى أبدانهم من الهزال وتغور أعينهم من الجوع ، وفيهم المصابون بأمراض معدية كالسل ، وبعضها قذر كالزهرى فى أدواره المتقدمة والجرب والجذام والأكزيما والتقيحات العفنة ، يحوم الذباب حولهم ويحط على قروحهم ويتطاير من حولهم ، فيصيب من يدنو منهم وينقل إليه جراثيمهم فى سهولة ويسر . والمارة مجبرون على مقارفة هذه المناظر الدامية تتقزز نفوسهم وتثور معداتهم ، ولكنهم لا يستطيعون تحويل أبصارهم عما يؤذيهم أشنع الإيذاء ، لأن فى القبح جاذبية تقسر الناظر على النظر وهو كاره مشمئز .

وهناك العجزة المسنون المتهالكون والعجائز الضريرات أو القعيدات ، تهان شيخوختهم بالسؤال وتذل إنسانيتهم بالعجز وترخص كرامتهم بالمتربة ، وفيهم من كان عاملا فأقعدته

الشيخوخة عن العمل وقذف به المصنع إلى الطريق ، وفيهم من كان ذا مال فأنفقه فى علاج المرض أو نزوات الشذوذ وشارف شيخوخته مجردا من كل سلاح . والكرامة الانسانية وحدها كانت تقضى بكفالة هذا الحطام الآدمى فى نهاية المطاف .

وهناك الأطفال المشردون من الجنسين ، وهم قطع آدمية صغيرة شوهاء ، مغبرة ذابلة كئيبة ، تسترها أسمال قذرة أو تعرى من تلك الأسمال ، قطع آدمية لا تحس لنفسها كرامة ولا تستشعر لها فى ضمير الشعب عطفا ، زائغة الأعين ، سريعة الخطوات مختلسة النظرات والحركات ، تحس أنها طفيليات فى هذه المجتمع ، غريبة منبوذة عن صميمه . وكان من حق هذه الزهرات أن تترعرع وتتفتح وتتضوع ، وكان من حق الأمة أن تنتفع بها فى الانتاج والعمل بدل أن تتأدى بها فى الإجرام والتعطل .

وهناك الفتيات الشاردات اللواتى يقفن على حافة الهاوية ، تتلقفهن الذئاب الجائعة فى وقفتهن المترددة الشاردة . وعما قليل يسلكن طريق الرقيق الأبيض ، والمجتمع فى غفلة عنهن وعن بواعث الجريمة فى نفوسهن ومحيطهن ، حتى إذا سلكن طريق البغاء الصريح قامت الضجة من هنا ومن هناك تطالب بإلغاء البغاء ، وتحتج بالدين والكرامة ، وتتذمر بالويل والثبور ؛ وكان فى استطاعة المجتمع أن يحسم الداء قبل استفحاله لو أراد .

ودعك من الحفاء ومن منظر هذه الأقدام التى تأخذ من أديم الأرض وتعطيه مادة متبادلة من طينة واحدة ، هذه الأقدام التى لم تبلغ بعد من القيمة ما بلغته الأقدام فى حيوان الجر والركوب ، فهذه تقيها الخفاوى والنعال وتلك تغطيها الأقذار والأوحال .

ودعك من اختلاف الأزياء وتنوع أشكال الرداء ، كأننا شعب يعيش حياته فى "كرنفال" تلك الأزياء التى تفرقنا شيعا وطوائف ، كأننا شعوب متباينة فى رقعة أرضية ، والتى يقابلها الأجنبى عنها بالدهش ثم بالاستهزاء ، لأنه لا يجد لها نظيرا على ظهر الأرض فى بلد من البلدان .

ودعك من الأحياء القذرة تحاور العمائر الشاهقة ، ومن أكوام القمامة والمزابل الدائمة فى كثير من أهم شوارع العاصمة ، هذه المزابل التى كثيرا ما ترى حولها جماعة من الكلاب الضالة والقطط الجائعة والأطفال المشردين والعجائز القاعدات والجائعين المهزولين جنبا لجنب يعثون جميعا : حيوانات وآدميين : عن لقمة أو عظمة أو قشرة بطيخ ، على مرأى من الشعب الراقد البليد .

ودعك من الأزياء فى الملابس والعمارة فالحديث عنها الآن ، يبدو ترفا ورفاهية ، قبل أن نستطيع تنظيف الطرقات من العجزة والمرضى والمشردين والمشردات . أجل ترف أن نطلب

نظافة المبانى وتوحد الأزياء ، قبل أن نلتقط منها ذلك الحطام الآدمى من كل نوع وصنف فالآدمى — مهما حقر — أجل شأنا من الزى والبناء !

* * *

لن يصدقنا أحد حين نزعم أننا أمة متمدنة ، وحين نحتج على زعمنا بأن لنا دستورا من أحدث الدساتير وقوانين تساير تطور التشريع العالمى ، وبرلمانا فخما ينتخب الناخبون نوابه حكومية بملء حريتهم ، وقضاء عادلا راقيا يضاهى أرقى قضاء على ظهر الكرة . وإدارة وشيوخه تسير وفق أحدث مبادئ الحكم والنظام .

لن يصدقنا أحد حين نزعم أننا أمة متمدنة ، وحين نحتج على زعمنا بأن لنا جامعة تقوم فى بناء فخم وتتبع أحدث نظم الدراسة وتتابع آخر التطورات الفكرية . ووزارة معارف تنفق نحو خمسة ملايين من الجنيهات على نشر الثقافة فى البلاد . ومدارس ومعاهد فنية وصناعية وثانوية وابتدائية والزامية ورياض أطفال . ومجامع لغوية وعلمية وهيئات أدبية وفنية .

لن يصدقنا أحد ونحن نقدم اليه عمائرنا الفخمة ودورنا العظيمة وأحياءنا الراقية ، وحين نشير بأصابعنا الى تمثال نهضة مصر ودار الأوبرا ودور السينما والتمثيل ، والى العوامات الراسية فى النيل والروارق والبحوث التى تشبه مراكب القياصرة ، والى النعيم المقيم الذى يمرح فى ظله المترفون .

لن يصدقنا أحد حين نأتى له بألف دليل ودليل من هذا القبيل ، فان قطعة آدمية واحدة من هذه القطع المشوهة المنتفخة القذرة كفيلة بنقض جميع البراهين ، فما تطيق أمة متمدنة حقا أن تصبر سنوات وأجيالا على هذه الأوضاع الشاذة وهذه المناظر المؤذية ، إلا أن تكون مدنيتها قشورا ، وحضارتها رياء ، ورقيها مظهرا لا يتعدى الاباس . وإلا أن تكون فروة الحيوان كامنة فيها على مدى سنتيمتر واحد من بشرتها الناعمة !

نحن فى عصر لا تقاس المدنية فيه بهذه المظاهر ولكن تقاس بالخدمات الاجتماعية ومدى أثرها فى رفاهية الشعب كله بجميع طبقاته ، وتقاس بمقدار التضامن الاجتماعى بين الطبقات والأفراد ، وبقرب الفوارق بين الجميع وتوافر الضروريات للجميع ، على عكس ما كانت تمتاز به عهود الإقطاع من استمتاع أفراد مخصوصين بالمال والجاه والشرف وحرمان سائر الشعب من هذا المتاع .

ولا بد أن يقيسنا العالم بذلك المقياس ، فماذا نكون عندئذ ؟ نكون ولا شك أمة متخلفة فى مضمار الحياة وفى ميدان الرقى ، فكلمة الرقى الآن ، تعنى الرقى الاجتماعى قبل أن تعنى

شيئا سواه . أى قبل أن تعنى الرقى العلمى أو الإدارى أو القضائى ، إذ لا جدوى من ذلك كله ما لم ينعكس على حياة الشعب العامة فينهض بها .

وكثيرا ما لاحظت أن بعض الأجانب حين يمر بهم قطار الترام أو قطار الضواحى على العمائر الفخمة والأحياء الراقية ثم ، تفجؤهم بعدها مباشرة الأكواخ القذرة والمباءات المنحطة. كثيرا ما لاحظت دهشتهم واستغرابهم و إشاراتهم التهكمية للجدران المهشمة والبيوت المتداعية وأكوام القمامة بجوار الدور والقصور والحدائق الغناء .

ولا بد أنهم سيعتقدون أن فى عقولنا خبلا ، وفى أذواقنا خللا ، وإلا فما بالنا نبقى على هذه الفوضى العجيبة ؟ ما بالنا لا نحاول التنسيق بين مظاهرنا وحقائقنا ، والتوفيق بين ظاهرنا و باطننا ، إن كنا أمة من العقلاء ؟

* * *

ما علة هـذا البلاء ؟ لم تخلفنا وحدنا فى مضمار الرقى الاجتماعى ، بينما نتقدم عقليا وعلميا ونخطو الى الأمام فى مظاهرنا العامة : فى قوانيننا وشرائعنا وفى عمارتنا وأزيائنا .وفى كل شىء ما عدا الجانب الذى تهتم به أمم الأرض جميعا فى هذا العصر وهو الجانب الاجتماعى ؟

العلة الأولى فى ذلك ، هى عدم نمو الروح الاجتماعية فى نفوسنا بجانب نمو الروح العلمية والفنية والمدنية . فالتضامن الاجتماعى مفقود بيننا أو ضعيف ، وللتضامن الاجتماعى طريقان : اختيارية و إجبارية ، وكلتاهما مهملة فى مصر منذ زمن بعيد .

فالجانب الاختيارى للتضامن مظهره الهيئات والجماعات التى تقوم بما يسمى " الخدمة الاجتماعية " و بمقدار تقدم هذا الجانب الاختيارى ، يقاس تقدم الأمم فى هذه الأيام . ونحن ما نزال فى الدور البدائى فى هذا المجال. ولا تزال تشكيلاتنا الاجتماعية قليلة الموارد محدودة النشاط لأن روح الخير الايجابية ضعيفة وغير منظمة . فالمحسن منا يفضل أن يعطى بعض المتسولين قرشا أو شيئا من الطعام أو اللباس على أن يسلم ما تجود به نفسه لجمعية من الجمعيات التى تنهض بالخدمة الاجتماعية المنظمة ، وكثيرا ما يضع الإحسان فى غير موضعه ويحرم منه من يستحقه ، لأن ازدحام وقته وضآلة المبلغ الذى يتبرع به لا يجعلانه يهتم بالفحص عن حقيقة من يقدم له الاحسان الوقتى الضائع .

وأما الجانب الاجبارى للتضامن فتتولاه الحكومات . تتولاه فى صورة ضرائب على بعض الطبقات وضمانات اجتماعية لبعض الطبقات ، فأما الضرائب الإضافية التى تجبيها من بعض الأثرياء فتخصص قسما أساسيا منها لخدمة الاجتماعية المنظمة الدائمة يستمتع بها المحتاجون اليها . وبذلك تختفى هذه الكتل البشرية المشردة لأنها تجد المأوى ودور العمل المناسبة ، وفى الوقت نفسه يستغل المجتمع انتاج كل فرد منهم فلا يضيع عليه سدى .

وأما الضمانات الاجتماعية للطبقات العاملة ، فتعصم أفرادها من الفقر والحاجة والمرض وتحفظ لهم شيخوختهم كريمة ، وتقدم لهم المعاونات فى حينها ، فلا يستدبرون الحياة منبوذين من كل عطف ورعاية ، كما هو حال الطبقة العاملة فى مصر .

والطبقة العاملة فى مصر، لاتغلو فى مطالبها من هـذه الضمانات ، فهى تطلب إصدار مشروعى قانون النقابات وقانون عقد العمل اللذين قدمتهما الهيئة التنفيذية منذ أمد طويل ولا يزالان يتعثران فى خطاهما الى اليوم وهما أبسط القوانين المبدئية لتنظيم حياة العمال فى جميع البلاد .

وقد بلغ عدد العمال فى الاحصاءات الأخيرة نحو مليون، وهو عدد لا يستهان به وفريق ضخم من الشعب يجب تنظيم حياته بما يضمن له بعض وسائل الحياة الكريمة .

ويطلب العمال سن قانون بوضع حد أدنى للأجور ، إذ أن الأجور الحالية ومتوسطها نحو ثمانية قروش فى اليوم لا تمكن العامل من كفالة أسرة مؤلفة من أربعة أو خمسة أفراد وهو بطبيعة الحال لا يستطيع أن يوفر شيئا لشيخوخته أو مرضه هو أو أحد من يعولهم . ولسنا فى حاجة لذكر العمال الزراعيين فى هذا المجال، أولئك الذين نطلق عليهم اسم " الفلاحين " فقد كثر الكلام فى شأنهم بما يجعل كل حديث عن سوء حالهم معادا مكررا لاغناء فيه .

ويطلب العمال تعديل الحد الأقصى لساعات العمل بما يتفق مع الطاقة البشرية ومع صحة هؤلاء العمال بحيث لا ترهق وتستهلك فى عدة أعوام يعود بعدها العامل متسولا أو مريضا أو عاجزا عن العمل ممن نراهم ملطوعين بجوار الجدران .

ويطلب العمال تعديل قانون أصابات العمل بما يجعل الضمانات التى كفلها حقيقة واقعة لا مجرد نصوص قانونية فتكليف العامل الحصول على شهادة طبية تكلفه نحو جنيهين ونصف الجنيه وجعل الحـد الأعلى للتعويض ثلثمائة وخمسين جنيها تدفع مرة واحدة لا على صورة معاش دائم للعامل المصاب ، واقتصار التعويض على حالة الإصابة فى أثناء العمل بدون نظر الى العاهات التى تنشأ ببطء . . . كل هذه الأشياء تجعل قانون إصابات العمل غير كاف للضمان .

إن الفقر العام هو الذى ينشئ تلك المظاهر المنافية للدنية والضمانات الاجتماعية للطوائف العاملة تعالج هذا الفقر من إحدى النواحى ، ولكنها لا تكفى لعلاج الحالة علاجا حاسما مالم تتم روح الخدمة الاجتماعية ، التى تنظف الشعب من هذه الأدران .

فمتى يأتى اليوم الذى يسير فيه السائر فلا يبصر ذلك الحطام الآدمى القذر ، ولا تقذى عينه بتلك المظاهر الشنعاء ؟

الجواب عند الهيئات الرسمية وعند الهيئات الشعبية وعند المحسنين الأغنياء .

سيد قطب

كلمة الأستاذ محمد بكرى بك

مدير المطبعة الأميرية

" ألقاها حضرته على موظفى وعمال المطبعة
فى يوم ٩ مارس سنة ١٩٤٢ بمناسبة توليه إدارتها "

بسم الله الرحمن الرحيم

إخوانى ، أبنائى :

منذ نحو أربعة أعوام حينما وليت إدارة هذه المطبعة ألقيت على مسامعكم كلمة ، ونظرا لما حوته من عهود قطعتها على نفسى ، ومن دستور ارتضيناه للتعاون فى العمل من جميع نواحيه ، فإنى أرى — وقد أراد الله أن نلتقى وأن نتكاتف من جديد على الإنتاج للصلحة العامة — أن أعيدها على مسامعكم الآن ليتذكر من نسى وليعرف من لم يعرف أن العلاقات بيننا فى العمل بنوع خاص ليست علاقة رئيس بمرءوسيه فقط ، وإنما هى فوق ذلك علاقة أبناء بررة بوالد شفيق .

وبعد ، فهاهى كلمتى السابقة :

إخوانى :

أحمد الله جلت قدرته ، وأشكر لحكومة الشعب إصغاءها لشكايتكم و إنصافكم ، وأحمد الله على أن وقفت بينكم هذا الموقف ، موقف الأب الشفيق من أبنائه البررة المخلصين ، فواجب الأب أن يخلص النصح لأبنائه ، وينير لهم طريق الحياة ليتجنبوا مواطن الزلل ، ويتقوا مواقع الخطل ، وإن خير ما أوصيكم به ألا يحمل أحدكم لزميل له

ضغينة فى نفسه ، وألا يتألم مرءوس من رئيسه إذا كلمه فى مصلحة العمل ، فواجب المرءوس أن يطيع أمر رئيسه ويحترم أمره وإرشاده ، وواجب الرئيس أن يخلص النصح لمرءوسيه ، وأن يعاملهم بالعطف واللين كما يعامل أبناءه ، تاركا العنف والشدة ، فإنهما لا يجزان إلا الأحقاد ، ولا يثيران إلا الضغائن ، فتصافحوا وتسامحوا ، وكونوا إخوانا صادقين متحابين لنوجه جهودنا جميعا إلى العمل الصحيح المنتج ، فبذلك نرضى خالقنا ونرضى ضمائرنا ، ونرضى حكومتنا الساهرة على راحتنا .

إخوانى :

سأعمل جهدى على إنصاف المظلوم ونصرة الضعيف ، وثقوا أن لا قيمة عندى لواش ولا مركز لدساس ، فلن يجد هؤلاء منى أذنا صاغية ، ولا لفتة واعية ، حتى ولا سبيل إلى بابى .

ثقوا بأنى سأعمل ما استطعت على تحسين حالكم ، وسأنظر بروح العدالة إلى كل ما تطلبون وسأوصى باجابة طلباتكم متى كانت فى حدود العقل والحكمة .

إخوانى :

اعلموا أننى أمقت العقاب ، وعلى الأخص ما يتناول الأجور والمرتبات ، لأنى أعتقد أن أجر العامل أو مرتبه ليس ملكا لشخصه فحسب وإنما هو رزق أجراه الله على يديه لقاصر أو ضعيف ، فاذا ما أصيب العامل فى أجره أو مرتبه نتج عن ذلك إصابة أفراد لا ذنب لهم ولا جريرة ، فأرجو ألا يكون منكم ما يحملنى على تغيير خطتى ، بل راقبوا الله وحافوا وخز الضمير وكونوا عند حسن ظنى بكم .

هذا ، وأشكركم جميعا على الحفاوة التى قابلتمونى بها ، وأرجو الله أن أكون عند حسن ظنكم ، كما أرجوه أن يوفقنا جميعا إلى ما فيه خير العمل وصالحه

محمد بكرى

الصحة النفسية

كيف نحافظ عليها وكيف نعالج أمراضها

للأستاذ سلامة موسى

صحة النفس لاتقل فى قيمتها عن صحة الجسم ، بل ربما تزيد عليها ؛ وهى حين تعتل تؤدى إلى عقم الحياة وأحيانا إلى الانتحار . وإحصاء الأسرة فى المستشفيات يدل على أن مرضى النفس لا يقلون عن مرضى الجسم بل أحيانا يزيدون. ولكن المرض النفسى لايدعو إلى الاهتمام سواء من المريض نفسه أو من المحيطين به مثل المرض الجسمى، لأن أعراضه خفية ليس لها جرح واضح فلا سعال ولا قرحة ولا بصاق دموى ولا تورم ولا نحو ذلك مما ينبه المريض ويجبب عطف المحيطين به . ذلك لأن المريض النفسى يبدو كغيره من الناس بل هو أحيانا فى المجالس قد يضحك ضحكات هستيرية كأنه فى قمة السعادة . وأوقات الاغتمام عنده تجىء مفاجئة وبلا سبب ظاهر فبدلا من أن يجد العطف من عائلته أو أصدقائه يجد التأفف والضجر من سلوكه ، وقد تنتهى به الحال إلى أنه ليس به مرض وأن كل ما يحسه من كظم وضيق إنما هو أوهام ، ولذلك يكافح فى غير فائدة ، لأن هذا الكفاح يزيد الكظم والضيق .

ووصف الأمراض النفسية بأنها " وهمية " يشتمل على الصحة والخطأ ، فهى وهمية من حيث أنها تحمل المريض أحيانا على اعتبارات واعتقادات ليس لها أصل فى طبيعة الواقع ولكن مثل هذا الوهم نجد أمثلة كثيرة له فى المجتمع مثل ذلك الثرى الذى يتعب نفسه وأهله فى جمع المال بالتقتير أو بالاجهاد الذى لاتبرره الزيادة على ما عنده ، أو فى تلك المرأة التى تبعثر مالها فى شراء التراويق الانثوية من جواهر أو ملابس ولو اقتضاها هذا إيقاع زوجها فى الديون ، والواقع أن كلا هذين الشخصين مريض ، ويمكن بالتحليل الوصول إلى بؤرة هذا المرض النفسى الذى يجعله عضوا غير اجتماعى ، ويجب أن يعالج منه كما يعالج أى مريض آخر يلتزم السرير .

فالمريض النفسى قد يجرى وراء أوهام ، ولكنه مع ذلك يتألم ، فلا هو قادر على التخلص من هذه الأوهام ولاهو يتخلص من هذه الآلام التى قد تحمله على البكاء أو الهرب من الحياة بالانتحار أو المخدرات أو الخمر أو التدخين . وهناك ألوان أخرى من الهرب كالإجرام أو الشذوذ الأخلاق .

وكما أن الصحة الجسمية الكاملة لا توجد، كذلك الصحة النفسية الكاملة بعيدة فى مجتمعنا عد السعادة المطلقة ، لأننا نجد من العنت والإرهاق فى معاملاتنا ومن الصدمات لطموحنا وأمانينا الصغيرة قبل الكبيرة ما يجعلنا ننطوى فى قلوبنا على كثير من الكظم الذى تبدو أعراضه فى ألوان من السخط أو الغضب .

والأمراض النفسية فى عصرنا تتفشى بأكثر مما كانت تتفشى فى العصور الماضية ، لأن البيئة التى نعيش فيها كانت ريفية قروية فى العصور الماضية وكانت الحياة محدودة الطموح وكان نبضها بطيئا والقناعة عامة وكان الشباب يعملون و يكسبون منذ صباهم بعيدين عن إرهاق الدراسة وعنت الامتحانات (وجدت قاضيا سابقا فى السبعين من عمره يحلم حلما متكررا مؤلما بامتحانات مدرسة الحقوق) وكان الشباب يتزوجون قبل العشرين فلم يحسوا هذا الكظم الجنسى الذى يحسه الشباب فى عصرنا حيث تتأخر سن الزواج أحيانا إلى ما بعد الثلاثين ، وصحيح أن الشباب قد عرفوا ألوانا جديدة من الحرية لم يعرفها آباؤهم ، ولكن هذه الحرية لا توازى التبعات الجديدة الكثيرة التى ألقيت على عواتقهم فى عصرنا والتى تحدث الأمراض النفسية المتعددة .

وأرجو القارئ أن يستبعد من ذهنه تلك الأمراض الخطيرة التى تؤدى إلى المارستان حين نذكر الأمراض النفسية ، ونحن نذكر هنا أكثر من عشرين مرضا كلنا تقريبا قد وقع فى بعضها دون أن يصف نفسه بالمرض . هى :

غياب الذهن — الخجل — البكاء — أحلام اليقظة — الخوف من الأماكن المرتفعة المشرفة — الخوف من الظلام — الكابوس — كثرة الأحلام المتكررة — أخطاء النطق — الهموم — الإحجام عن المشروعات — الكراهة لبعض الأطعمة — التقزز العصبى — العقائد الخاصة — التسويف — كراهة الاختلاط — الشعور بالوجدان الذاتى — النشوز الجنسى — الخرافات — التضخم الجسمى — الكسل — القحة .

ونحن فيما يلى نحاول أن نبين فى كلام مفهوم الوسائل والظروف التى تؤدى إلى الشخصية المريضة أو الشخصية السليمة :

١ — قيمة الطفولة .

أول ما يشترط للصحة النفسية السليمة أن قد يكون الانسان قد حظى بطفولة سعيدة بعيدة عن التدليل وعن الاضطهاد معا فى حضن أبوين قد عاملاه بانصاف ونزاهة ، فلم يميزاه على إخوته ولم يميزا إخوته عليه ، وقد قيل عن العمر الطويل إنه يحتاج إلى أن يختار الطفل أبوين من المعمرين قبل أن تحمل أمه به . وهذا القول مع غرابته حقيق لأن التعمير

إلى حد كبير وراثى، والصحة النفسية ليست بيولوجية إلى هذا الحد ولكنها تراث اجتماعى وهى تحتاج الى أبوين صالحين يعيشان المعيشة البيتية الهادئة . بل لقد اتضح أن الحال النفسية للأم وقت الحمل تؤثر فى الطفل .

وبدهى أن الطفل يتعرف الى الدنيا و يكون أقيسته عن الحسن والسيء من بيته وأبويه وأخوته . وأسلوب حياته بعد ثلاثين أو أربعين سنة يتقرر من السنوات الأربع أو الخمس الأولى فى حياته . والرجعات العاطفية تتكون فى هذه السنين . فنحن حين نزجر طفلا أو شابا أو رجلا قد نجد منه رجعا معينا هو الطاعة أو التحدى بالكلام أو التحدى بالحركة أو السباب أو الفرار . وكل هذه الرجعات العاطفية قد تكونت واستقرت منذ الطفولة وهى سوف تكون سببا للسعادة أو الشقاء فى مستقبل العمر .

بل إن أهداف الحياة العاطفية تتكون منذ الطفولة ولا يصيبها فى المستقبل غير التنقيح والتخصيص . فالطفل يتعلم منذ سنيه الأولى هل هو ينظر الى المساواة أو التفوق من حيث أن أحدهما غاية وعلى هذا الأساس يتعين سلوكه فى شبابه وكهولته .

ومن هنا قيمة التربية فى سنى الطفولة ، أى قيمة القدوة الحسنة من الأبوين والمعاملة النزيهة للطفل وعشرة الصبيان الآخرين فى الشارع والجو الاجتماعى عامة . وإهمال هذه السنين هو إهمال العمر . لأن الطفل الذى اضطهد أو الذى دلل أو الذى تركت له الفرصة لكى يغار من إخوته أو الذى أخيف وروع بالظلام أو الحيوان — كل هؤلاء سوف ينشأون وهم مرضى بقليل أو كثير من الأمراض النفسية .

فاذا شئنا أن يعيش أبناؤنا فى المستقبل بريئين من الأمراض النفسية فيجب أن نهيء لهم الجو السعيد أيام طفولتهم فى البيت . كما أنه يمكن أى منا أن يعالج فى نفسه تلك الخصال السيئة التى يعرف — بعد التحليل — أنها ترجع الى سوء تربيته المنزلية .

٢ — الكظم :

نعنى بالكظم حبس الإحساس وقهر العاطفة ومنع النفس من تحقيق غاياتها . ولا بد من كظم ما لكل مرض نفسى تافه أو خطير . و بيئة الحضارة التى نعيش فيها تضطرنا الى ألوان مختلفة ومتعددة من الكظم الذى يخدر الى العقل الباطن ويحاول الخروج برموز عاطفية أو ذهنية أو حتى جسمية .

وأسوأ أنواع الكظم الذى تجلبه علينا حياة المدنية هو الكظم الجنسى . لأن الشاب يتأخر فى الزواج فيقع فى عادات سيئة كالعادة السرية أو كالتشرد الجنسى أو هو يتحمل العزوبة فى ألم مستمر قد ينتهى بالمرض النفسى . وليس هناك من علاج لهذه الحال سوى إيجاد الوسائل الاقتصادية لتمكين الشباب من الزواج المبكر . فيجب مثلا ألا يعوق الزواج

تلك الاعتبارات السخيفة الخاصة بمقدار المهر أو الجهاز . كما أننا يجب أن نجد فى " ضبط التناسل" وسيلة للتشجيع على الزواج المبكر إذا كان الزوجان يخشيان كثرة الأولاد وعجزهما عن الانفاق عليهم .

ولكن هناك ألوانا أخرى من الكظم تؤدى الى المرض النفسى. فان فى البيت والمدرسة كظما يحسه الطفل ، ثم الصبى، ثم الشاب من المباراة القائمة وترقب الامتحانات يحدث كظما قد ذكرت بعض نتائجه فى ذلك القاضى الذى لا يزال يحلم بامتحان مدرسة الحقوق قبل نحو ٤٥ سنة . وهناك الكظم الاجتماعى من طموح مقهور أو من مباراة الحرفة .

وقليل من الكظم مفيد. لأنه يعبىء القوة للنشاط. كالغضب يحركنا الى العمل والانجاز . ولكن الكثير منه يخمد النفس ويشيع الخلل فى العواطف . والمجتمع الأمثل هو ذلك الذى يقل فيه الكظم الى الحد المعقول .

٣ — نصيب المجتمع فى الصحة النفسية :

للمجتمع نصيب — بل نصيب كبير — فى صحتنا النفسية . وكذلك للفرد نصيب آخر. ولكنه ليس فى قدر الأول. فالمجتمع هو الذى يربينا فى طفولتنا حيث تستقر عندنا الاستجابات والرجعات العاطفية ويتقرر لنا أسلوب الحياة الذى يشق علينا التخلص منه فى المستقبل . والمجتمع هو الذى يرهقنا بتكاليف اقتصادية تجبرنا على تأخير الزواج ، فنكابد من ذلك كظما جنسيا خطير العواقب . والمجتمع هو الذى يرسم لنا الأهداف ويعين ألوان الطموح ، وقد تكون فوق طاقتنا فيحدث لنا قلقا نفسيا دائما . ثم هناك القلق الاقتصادى وما يجره من خوف المستقبل خشية الافلاس أو العوز . فانها جميعها تحدث هموما تفتك بالنفس . بل هناك أيضا الحرفة التى نكره والتى لم نعد إلى جانبها هواية تخفف من ضغطها وتفرج عنا . والمباراة فى المدرسة والمجتمع كثيرا ما تحتد وتجعلنا فى هم لا ينقطع وتبعثنا على جهود مضنية.

والمجتمع الأمثل من الناحية السيكلوجية هو ذلك الذى لا يحدث من الكظم إلا أقله. أى الأقل المفيد لحبس القوة التى تنطلق فى نشاط آخر . ذلك أن الكظم الشديد يحدث جمودا يعقبه كسل وتراخ كذلك الطفل الغاضب الذى ينزوى لا يتحرك ولا يرد على أسئلتك. أما الكظم الخفيف فيحركك وينشط . فتأخير الزواج مثلا بضع سنوات بعد المراهقة مفيد. ولكن تأخيره عشرين سنة يؤذى وأحيانا يحطم الشخصية . والمباراة المعتدلة مفيدة، ولكن التناحر فى المباراة يؤدى الى الانهيار الفجائى . ومصالبة الطفل بالنظام والترتيب فى المنزل مفيدة . ولكن إرهاقه بالأوامر وقسره على النشاط أو السكون مضر .

فالمجتمع — سواء فى العائلة أو خارجها — مسئول عن كثير من صحتنا أو أمراضنا النفسية . ولكن للفرد أيضا نصيبا فى ذلك .

٤ — نصيب الفرد فى صحته النفسية

عند ما يتجاوز الصبي العاشرة من عمره يأخذ فى تصفح الدنيا متفهما منتقدا. وهو يأخذ بأقيسة المجتمع، ثم يعود فينبذ منها بعض ما لا يحب أو مالا يتفق ومنطقه. فاذا بلغ العشرين أحس مسئولياته المختلفة. فهو يربى نفسه على تحملها أو على قبول ما يستطيع تحمله ورفض ما لا يستطيع. وهو يعالج العقبات التى تعترضه. فهو ليس مادة جامدة تنفعل بالمؤثرات الميكانيكية أو الكيماوية. بل هو نفسه عامل يؤثر فى وسطه، كما يتأثر به. حتى الكوارث يمكنه الانتفاع بها.

انظر مثلا فى حال رجلين قطعت ساق كل منهما فصار أعرج. والعرج يحدث فى النفس عقدة نسميها "مركب النقص" أى أنه يجد نفسه مشوها معيبا فى جسمه يحس فى كل وقت أن الناس يشيرون اليه: هذا أعرج.

فهذا الأساس للنقص يؤدى الى أحد طريقين. طريق المرض النفسى بأن يلجأ الأعرج الى أساليب طفلية لكى يثبت تفوقه ويزكى كرامته فيتسلق الجدران للسرقة كأنه يقول: أنتم مغفلون تظنون أنى ناقص. ها أنا ذا أفعل مالا تستطيعون، أتسلق الجدران. ولكن هناك طريق الصحة النفسية، وهو أن هذا الأعرج يعمد الى ترقية نفسه بالدرس والمرانة والاستقامة حتى نعترف له بالرياسة ونسلم له بالتفوق الاجتماعى.

فهنا مجال للاختيار. وصحيح أن للمجتمع أيضا أثره فى هذا التوجيه ناحية البر أو ناحية الإجرام. ولكن للفرد أيضا شيئا من الاختيار. وكذلك كظم الشهوة الجنسية. فإنا نرى أنه يؤدى فى بعض الشبان الى أسوأ الآثار كما يمر به غيرهم دون أن يحسوا منه سوى أقل العنت.

ولا نستطيع فى مجتمعنا الحاضر أن نحقق السعادة. ولكنا نستطيع أن نتفادى من كثير من الاضطرابات النفسية بأن نرسم بيدنا ما نستطيعه من خارطة حياتنا. مثال ذلك أننا نستطيع أن نكون العادات التى ننتفع بها بدلا من العادات التى تؤذينا. وأن نختار الزوجة التى تزاملنا وتعايشنا فى سلام. وأن نختار الحرفة التى نحب. وأن نتعلم كيف نشغل فراغنا بهواية أو هوايات تكون متنفسا لنا نتخلص به من الكظم.

وقد كان "أدلر" السيكلوجى المعروف يقول إن الإنسان يحتاج الى ثلاثة أشياء لكى يحقق بها سعادته أو ما يمكن منها. وهى العائلة والحرفة والمكانة الاجتماعية.

أى يجب أن تكون علاقته بأفراد عائلته — وهو يعنى الزوجة والأطفال — حسنة تبعث على الرجاء. كما يجب أن يحب حرفته كأنها هوايته. وكذلك كرامته الاجتماعية تقتضيه بعض الجهد الذى يجب الا يضن به. وعلى كل إنسان أن يوزع مجهوده بين هذه الاعتبارات

الثلاثة فلا يجعل أحدها يطغى على الآخرين . ولكن هذا لا يمنعنا من أن نقول إن الاضطراب النفسى يعود فى أكثره الى كراهة البيت أى النفور من الزوجة والزوج أو من إليهما من قرابات . وقلما يضطرب الإنسان نفسيا اذا ساء حظه فى حرفته . بل الواقع أن المكانة الاجتماعية تهمنا أكثر مما تهمنا حرفتنا .

٥ — تأثير الجسم فى النفس :

كان المثل اللاتينى القديم يقول : إن العقل السليم فى الجسم السليم والرأى العلمى يتجه الى عكس هذا المثل . لأن العقل يمكن أن يحتفظ بسلامته فى أسوأ الأمراض الجسمية . ولكن الجسم كثيرا ما يختل عقب الاختلال العقلى — النفسى .

على أننا مع ذلك يجب الا نستهين بشأن الصحة الجسمية فى صحة النفس . فكلنا مثلا يعرف مقدار التعس النفسى الذى نحسه وقت الزكام أو الإمساك أو الخفقان . وكذلك كلنا يعرف مقدار الانتعاش النفسى والتفاؤل عقب الحمام البارد فى الصيف ، وكيف يذهب عنا الحور والخمول . والجسم عندما يؤدى وظائفه فى عافية وقوة ونشاط يشعرنا بما يسميه الطب (يوفوريا) أى ذلك الانتعاش النفسى الذى يحبب الينا الحياة و يضفى على الكون جوا من البهجة والحبور .

فيجب لذلك ألا نبخل على أنفسنا باللذات المادية فى النزهة الأسبوعية الى الملهى أو الى الريف . وكذلك الاجازة السنوية ، يجب أن تكون اجبارية لكل انسان ، وأن تقضى بعيدة عن جميع ما يلابس أعمالنا . كما يجب أن نعنى بطعامنا . فان كثيرا من ضغط الدم العالى الذى يؤدى الى النقطة أو السكتة كما يؤدى الى سرعة الانفعال — هذا الضغط يعود معظمه الى كثرة الأكل والانغماس فى الطعام ، لهذا السبب قد لا يقل ضررا عن الانغماس فى الشراب .

وعند ما نتأمل العالم الحيوانى نجد أن أكلة اللحوم منه تتهيج بسرعة وتتفزز فى حين أن أكلة النبات هادئة . ومثل هذا الفرق نجده بين الناس أيضا . وللصوم تأثير نفسى يعرفه جميع الذين اختبروه .

ونحن قلما نفكر فى طعامنا إلا بعد الأربعين أو الخمسين . ولكن اذا كان يجب علينا أن نؤمن شيخوختنا من المرض ، فانه يتعين علينا أن نتخذ عادات خاصة فى الطعام والشراب تعيننا على الوصول الى شيخوخة سليمة من الأمراض .

سلامة موسى

قاسم أمين ومكانة المرأة فى المجتمع المصرى الحديث

وسائل الاصلاح بترقيتها — وتطور الفكرة فى ذهن المصلح الاجتماعى

للأستاذ محمد لطفى جمعه المحامى

مضى على وفاة المرحوم قاسم أمين ثلاث وثلاثون سنة أى جيل كامل فان علماء التاريخ يعتبرون القرن ثلاثة أجيال generation. وكان عمره عند وفاته فى أبريل سنة ١٩٠٨ خمسا وأربعين سنة وما تزال السيدة المصون حرمه على قيد الحياة فى الثالثة والسبعين وقد تفضلت وشرحت لبنات هـذا الجيل وأبنائه حقيقة أفكار زوجها وبأب مقاصده من دعوته إلى تحرير المرأة ، وقبل أن نتناول هذه الناحية من البحث نذكر لقراء العربية تاريخ تطور الفكرة الخاصة بالمرأة فى ذهن هذا المصلح الاجتماعى العظيم .

بعد أن عاد قاسم أمين من تعليمه فى أوروبا إلى مصر فى العقـد الأخير من القرن التاسع عشر (١٨٩١) زار مصر رجل فرنسى اسمه دوق داركور و بعد أن عاد إلى فرنسا وضع كتابا بالفرنسية حمل فيه حملة شعواء على مصر والاسلام وانتقد الدين والأخلاق انتقاد مرا. وكان يقال فى ذلك العهد إنه كان يعزز مركز فرنسا فى شمال أفريقيا و يبرر استعمار الجزائر وتونس فضرب بسهمه أرقى البلاد العربية وهى مصر ليسهل عليه الاجهاز على من كان أقل منها من الأمم أو من يعترف لهـا بالزعامة الشرقية . فلم ينبر للرد على دوق داركور بلسانه ولغته فى كتاب مطبوع غير قاسم أمين على كثرة من كانوا يتقنون التحرير والتعبير بتلك اللغة ولكنهم آثروا جانب السلامة بعدم التعرض واختبأوا وراء مناصبهم أو دفعهم حرصهم عليها إلى التزام الصمت .

وقد أسهب المرحوم قاسم بك فى الدفاع عن المرأة المسلمة المصرية والتشريع القرآنى الخاص بها حتى ألزم الدوق الحجة فى كثير من المواطن ، وقيل فى بعض المحافل والصحف إن قاسما جار على الدوق . و يظهر أن انتقاده لكتاب داركور أثر فى نفس قاسم تأثيرا شديدا أدى به إلى تأليف كتابيه "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" فقد روى المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا وكان من المتصلين به بحكم صلتهما بالمغفور له الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده قال : "أخبرنى قاسم أنه كان يوم أطلع على ما كتبه[1] الدوق داركور غافلا عن حال النساء بمصر

---

(١) أطر عدد صفر سنة ١٣٢٦ من مجلة المنار .

فآلمه ذلك النقد والتشنيع فاندفع إلى الرد بوجدان الغيرة وبعد أن شفى غيظه وأرضى غيرته بذلك عاد إلى نفسه وفكر فى الأمر فرأى أن كثيرا من العيوب التى عاب الدوق بها البيوت المصرية صحيح فى نفسه فبعثه ذلك إلى أن درس هذه المسألة قائلا فى نفسه "إنه لاينفعنا إذا كان العيب فينا أن نرد على من يعيبنا ونبحث عن عيوب قومه وإنما يجب علينا أن نبحث عن عيبنا فنعرفه ونسعى فى إزالته" وطفق يبحث ويسأل ويفكر فى حال البيوت بمصر ويقرأ ما كتب الإفرنج فى شأن النساء وانتهى به البحث والتنقيب إلى تأليف كتاب تحرير المرأة الذى هز مصر هزه شديدة وشغل جرائدها فى تقريظه ونقده زمنا طويلا وبعث همة غير واحد من حملة العمائم والطرابيش جميعا إلى التصنيف فى الرد عليه وبذلك طار صيت قاسم أمين فى الآفاق وعرف اسمه فى الشرق والغرب وعد من المصلحين الاجتماعيين .

كان تحرير المرأة أول مؤلفاته باللغة العربية فلما تعرض عشرات الكتاب لنقده وزعم بعضهم أنه نتيجة امتزاج مجهوده بمجهود صديقيه الشيخ محمد عبده وسعد زغلول بك (وكان كلهم قضاة فى محكمة الاستئناف) عزز كتابه الأول بكتاب ثان " المرأة الجديدة " وهو يفوق الأول فى قوة الحجة ووضوح الدليل وقد أخلاه من الشواهد الدينية من القرآن الكريم والحديث الشريف لأن الذين كانوا يخالفونه فى الرأى لم يتعذر عليهم أن يأتوا بأدلة دينية تنقض أدلته وتنفى نتائجه كما حدث فعلا فى كتابى الأستاذين محمد فريد وجدى بك وطلعت حرب بك (يومئذ) .

وقد حدثت وفاة المرحوم قاسم أمين عقيب حفلة أقيمت فى نادى المدارس العليا فى أوائل أبريل سنة ١٩٠٨ تكريما لوفد من الطلاب والطالبات الرومانيات جاءوا وجئن من بخارست إلى مصر لزيارة الآثار فخطب بعضهن فى النادى بالفرنسية فعقب عليهن المرحوم متمنيا أن يعيش حتى يرى اليوم الذى تخطب فيه الفتاة المصرية خطبة بليغة بلغتها وبغيرها من اللغات . ثم عاد إلى داره فجلس فى بهو الدار ودخن لفيفة من الطباق (سيجار هافانا) وشرب قدحا من الماء ثم فاضت روحه .

لم يرق قاسم أمين إلى درجة المصلح الاجتماعى فى مصر عفوا ، ولم يذع صيته ويظهر فضله مصادفة وهو فى الخامسة والثلاثين بل كان منذ شبابه دائبا فى البحث والتنقيب عن وسائل الاصلاح الاجتماعى فى الشرق عامة ، ومصر خاصة فتثقف ثقافة أوروبية بعد ثقافته العربية ، ودليلنا على ذلك أسلوبه الكتابى والخطابى فى كتابيه الآنفين وفى أحكامه القضائية وخطبه الرنانة فى مجلس ادارة الجامعة المصرية عند إنشائها . وفى كتبه الأخرى (أسباب ونتائج) و (ومذكراتى) ففى الكتاب الأول رسم صورة دقيقة للمجتمع المصرى وفى الثانى أوضح كثيرا من العلل الاجتماعية وسجل اختلاجات نفسه وخواطره أثناء شبابه ورجولته . وكان أكبر همه حث الأمة والحكومة على رفع المستوى الخلقى والعقلى فلما وقف حسن زايد باشا أطيانا كبيرة الريع على الجامعة المصرية عند إنشائها وذهب قاسم بك

مع لجنة لتسلم حجة الوقف خطب فقال : إذا نظرنا إلى طائفة المتعلمين فى مصر وهم متخرجو المدارس العليا نجد أنهم يعملون على مبدأ " كسب كثيرا وتعب قليلا " ولا نجد فيهم العامل المحب لعلمه أو فنه والعاشق الذى تحتل شهوة العمل قلبه وتتمدد فيه وتملؤه برمته ولا تقبل منافسا أو منازعا أو شريكا أو ضيفا بجانبها . وقد وصف فى مذكراته أجناسا وألوانا من الناس الذين يتهربون من المسئولية حتى جعلوا الفرار من التبعات نوعا من العقيدة (culte d'irresponsabilité) هؤلاء الذين يجثون ويدأبون لحصول على المغانم وينفصلون من الواجبات التى قد تجر وراءها بعض المغارم " .

ثم تطور فكر المصلح الاجتماعى وسار بخطى واسعة نحو غايته الأخيرة فكتب يقول " إن عدم استعداد طلبة العلم لحب العلم لذاته هو عيب عظيم فينا يجب أن نفكر فى إزالته وهو نتيجة من نتائج التربية المنزلية التى غفلت عن تربية إحساسنا وأهملت تربية قلوبنا وشعورنا فأصبحنا ماديين لا نهتم إلا بالنتائج المادية فى جميع أمورنا حتى فى الأشياء التى بطبيعتها يجب أن تكون بعيدة عن الفوائد كعلاقة الأقارب والأصدقاء وليس من المنتظر أن تتغير أخلاقنا فى هذه الجهة تغيرا محسوسا إلا إذا تم إصلاح العائلة المصرية ! أرأيت أنه انتقل من بحث إلى بحث ومن مسألة إلى أخرى حتى بلغ فكرته الأصيلة وجعل انحطاط المرأة وجهلها سبباً فى تأخر الأمة بأسرها . وآية ذلك أن المرحوم قاسم بحث فى المسائل الاجتماعية بصفة عامة فكان رأيه فيها أنها خاضعة دائما للقوانين الطبيعية وسنن التحليل والتركيب والنمو التدريجى والانتقال بالتطور لا بالطفرة وبحث فى المسألة الاجتماعية لمصر بصفة خاصة فوجد أن حلها متوقف على نظام العائلة المصرية ووجد أن المرأة هى الأساس الأول لبناء العائلة .

وبعد ثلاث وثلاثين سنة من خطبته التى ألقاها باللغة الفرنسية على منبر نادى المدارس العليا فى تلك الليلة التى لا تنسى من ربيع ١٩٠٨ تحقق أمل قاسم وبلغت الفتاة المصرية الدرجة التى كان يتمناها فتلقت العلم فى مدرجات الجامعة المصريه التى كان فى مقدمة منشئيها مع الشبان على مقاعد متحدة ومتجاورة ثم تخرجت بعد أن أتقنت اللغات وكتبت بها وخطبت وإن يكن قاسم أمين قد لفظ أنفاسه الأخيرة عقيب خطبته وكانت آخر ما نطق به فاستجيبت دعوته وتجسدت أمنيته ولا يضيره أنه ذهب من ناديه إلى داره فصعدت روحه إلى بارئها فى تلك الدار التى قال حافظ ابراهيم يصفها فى حفلة تأبينه :

واها على دار مررت بها قفرا وكانت ملتقى السبل
أرخصت فيها كل غالية وذكرت فيها وقفة الطلل
سائلتها عن قاسم فأبت رد الجواب فرحت فى خبل
متعثرا يتنابى وهن مترنحا كالشارب الثمل [1]

---

(1) موقع هذه الدار الآن فى شارع الخديو اسماعيل عن يمين السائر إلى ميدان اسماعيل وقد حلت محلها عمارة جديدة تحمل رقم ١٧٠ وكان اسم الشارع " قصر النيل " .

فاعتقد المرحوم أن الرجل لاينجح بغير معونة المرأة والمرأة لاتعينه إذا كانت كما مهملا أو مخلوقة محقرة وقد قال صاحب مجلة القرن التاسع عشر الانجليزية وهو من كبار المفكرين عندما قامت فيدا جولد ستاين إحدى زعيمات النساء " إن الذين وقفوا على أحوال البلاد المتأخرة عرفوا أن لتأخرها سببين لاثالث لهما: حالة المرأة وحالة الصناعة ولاتفلح بلاد والمرأة والصناعة محقرتان فيها مهما كان غناها الطبيعي متوافرا " . ونقول إن الله أتاح قاسم أمين لإصلاح حالة المرأة فى مصر فى مستهل القرن العشرين ولو كان قاسم مقلدا أو ناقلا عن غيره ما أفلح قط فى دعوته ودعايته، فلم يكن ممن يجعلون عقولهم مستودعا لآراء الغير فإذا حضرتهم المناقشة أودعتهم الكآبة فى موضوع اجتماعى أخذوا يسردون على السامع والقارئ من محفوظهم من من أسلافهم من المنشئين والمتكلمين دون أن يكون لعقولهم نصيب من الرأى والحكم بل كان رحمه الله مفكرا أصيلا منقادا اجتماعيا ومصلحا إنسانيا عالميا وقد لا يستغنى عن أفكار غيره ولكنه لاينتحلها إلا إذا اعتقدها وآمن بها وصارت جزءا من تفكيره بما نهض فى نفسه من براهين اليقين والأدلة التى لاتنقض. وإنما جاءت شهرته باصلاح حال المرأة لأنه كتب فيه كتابين ولقى فى سبيله من الاضطهاد والألم مالم يلق إلا كبار المصلحين فى العالم . وقد اتخذ إصلاح المرأة بالتربية والتحرير والسفور وسيلة لاصلاح الرجل و إصلاح الأمة . كان يبغض أن يكون طلب العلم فى مصر وسيلة لمزاولة صناعة أو الالتحاق بوظيفة بل كان يتطلع الى أن يرى بين أبناء وطنه وهم أخلاف "المرأة المنشودة " طائفة تطلب العلم حبا للعلم والحقيقة وشوقا الى اكتشاف المجهول .

روت زوجة المرحوم فى هذه الأيام بعد وفاته بثلاث وثلاثين سنة أنه حرص على أن تتلقى بناته دروسهن فى المنزل على أيدى أساتذة ومربيات ولم يتلقين العلم فى المدارس قط وأن زوجها كان يقصد من الدعوة الى تحرير المرأة أن ينهض جيل جديد يقاوم متاعب الحياة بأخلاق وتقاليد مبنية على الكرامة والاعتداد بالنفس ولم يكن يقصد الى أن تنزع سيدات عصره حجابهن وقد حرصت على بقاء الحجاب بعد وفاته .

روت السيدة حرم قاسم أمين هذه الذكريات. التى تنطوى على تفسير لبعض مبادئه لمحرر إحدى المجلات . والواضح من أقوالها أن سيدات وفتيات هذا الجيل الحاضر قد فهمن التحرير على غير حقيقته وأنها تنعى عليهن الخلاعة والمخاصرة واستباحة بعض المحرمات فى الحفلات العامة وفى بيوتهن والمبالغة فى الزينة والتبرج .

نعم ان السيدة المصون حرم المرحوم قاسم أمين لم تشاركه فى النضال الحامى الذى لقى فيه من خصومه كثيرا من النقد القاذع والهجوم العنيف والأذى المعنوى ولكنها كانت مطلعة على دقائق فكرته وقد عاشرته عشرين عاما فلا يجوز أن يهمل رأيها أو يضرب المعاصرون والمعاصرات برأيها عرض الأفق . والحقيقة التى لا شك فيها أن قاسم أمين أراد

بتحرير المرأة، فك قيود الجهل عنها بالتعليم والتربية، وهذا مستفاد من كتبه ومن خطبه ، لأنه لو قصد أن التحرير المادى لكان هـذا اعترافا منـه بأنها مقيدة وأسيرة وسجينة ولم يكن هذا من الحق فى شيء فان المرأة المسلمة ولا سيما فى مصر كانت طوال عهودها متمتعة بحرية واسعة النطاق فسيحة المدى (انظر كتاب ابن اياس وحسن المحاضرة وتاريخ الجبرتى وفى اللغة الانجليزية " المصريون المحدثون تأليف الأستاذ ادوارد وليام لين عن حقوقهن فى مصر وزواجهن وحياة الحريم وحريتهن صفحات ١٦٣و٢٨١و١٥٩و١٧٥و١٢٠و١٤٢ من الأصل الانجليزى طبع وارد لوك بلندن) فان مصر منذ دخلت فى دائرة الاسلام خلعت على الجنس اللطيف من أسـباب التدليل والترفيه والاسـعاد والتنعيم ما لم يكن من نصيب امرأة أخرى فى كثير من أنحاء العالم .

وفى عهدنا هذا صرحت بعض زعيمات النساء الفضليات باستحقاقهن تمثيل الأمة عن سبيل الانتخاب فى مجلس النواب ، لا مجلس الشيوخ ، لا لعلة إلا استحالة وجود من تعترف منهن بأنها جاوزت حد الأربعين ! ولا يتنافى ما ذكرته السيدة المصون أرمل المرحوم وأمنيته التى قضى عشية صرح بها على منبر نادى المدارس العليا وهى أن يعيش حتى يرى فتيات مصر كفتيات رومانيا يسافرن ويتعلمن ويخطبن باللغات الأجنبية فان السياحة والاغتراب فى طلب العلم والخطابة والكتابة بلغة التعليم لا تخدش الكرامة ولا تؤثر فى الطهارة ولا تجرح شخصية الفتاة المستمسكة بالفضيلة ولم يكن قاسم يريد غير هذا . فلو بعث الآن من مرقده لوقعت عينه على ما تقر به وهو تهذيب الفتاة وتثقيفها وأيضا على مظاهر الاستهتار التى أصيب بها بعض الآخر . فكان يقر الأولى ويفرح بها وينكر الأخرى ويتنكرها . لأن قاسم أراد فى صميم فكره فتاة تصلح أما لتهذيب أبناء المستقبل الذين ينهضون بالأمة ويحققون آمالها . ولم يرغب قط فى بنات خليعات أو متبرجات لا يصلحن إلا زينة لأبهاء القصور أو حفلات الزفاف أو ليالى الأفراح .

ولم يكن قاسم رحمة الله عليه يريد جيلا من النساء على شاكلة السـيدة بانكهرست التى كانت فى سبيل دعوتها لانتخاب جنسها فى مجلس نواب انجلترا تجلد مشاهير الساسة بالسياط فى الأماكن العامة فان المرأة الظريفة المهذبة لا تنقلب جلادا ولا أداة للتنكيل والعذاب ، ولا كهذه التى رسخ فى عقلها أن المرأة التى تستطيع أن تدير مهام البيت لا يصعب عليها أن تدير مهام المملكة (أنظر مقالة ايفا جونستدين فى مجلة نساء استراليا ١٩٣٨) وكانت البلاد التى تعطى حق الانتخاب ثلاثا فى العقد الأول من هـذا القرن فى أوروبا وأمريكا فصرن سبعا فى مقدمتها بريطانيا العظمى (عدا عن استراليا ونيوزيلاندا) . ومن العجب العاجب أن فرنسا التى اشتهرت بحرية نسائها وظهور نابغات منهن فى العلم والأدب والسياسة من قديم الزمان لعصرنا هـذا ، مثيلات مدام دى ستايل ومدام رولان ومدام فاييت (راشيلد)

وكونتس دى نواى ومدام جوليت آدم ومارسيل تينير وما كسميلين بييه وكونتس دى روشبرون ومدام سافيى ومدام تالين وعشرات غيرهن، لم تفكر واحدة منهن فى الدعوة للانتخاب لمجلس النواب الفرنسى، دع عنك مجلس الشيوخ. لم لم ينهضن بذلك فى فرنسا ولا ايطاليا ولا أسبانيا فى عهد الديموقراطية السابق لهذه الحرب والتى قبلها ولم يقلدن البلاد الانجلوسكسونية ؟ الجواب أن المرأة الفرنسية مهما بلغ ذكاؤها وفضلها وميلها للمنفعة العامة فهى سيدة الدار و" ست البيت " من قبل ومن بعد ولا يهون عليها أن تفرط فى عرشها الخاص وعشها وعش زوجها وأولادها لقاء شهرة وقتية وضجة عامة خارج الدار .

والمرأة الثانية شبه مترجلة لا تبالى بالحياة الخاصة وقد تترك الدار تنعى من بناها وقد تبالغ فتميد عهد الكفالة والأمومة وسيادة المرأة حيث تسود بعلها . وقد يفسد على النساء طمعهن فى السلطة السياسية شدة الغيرة الفاشية فى جنسهن لا على الرجال والأزواج والثياب والحلى والحلل بل على النفوذ فيصعب على الواحدة منهن أن تسلم قيادها لأختها أو جارتها ويستحيل أن يكون النساء كلهن ناخبات ونائبات ويصعب عليهن أن يتنازلن بعضهن للبعض الآخر عن هـذا الحق . أما فى فرنسا فان النساء يرين فى خدمة البلاد مشقة كبيرة فيحجمن عنها لما ذكرنا آنفا وتخلصا من المشقة وتفضيلا للراحة على التعب. ولذا نرى المرأة المصرية فى الوقت الحاضر و إلى خمسين سنة تأتى لا تفكر فى هـذا المشروع ولا تعمل له ولا تناضل بسبيله ، لأنها و إن لم تشترك فعلا فى سياسة الأوطان فانها تعين على حيرها بخدمة الزوج وتنشئة النسل خير تنشئة .

كان قاسم أمين يريد أن يراها خطيبة ولم يفكر أن يراها نائبة وشيخة أو وزيرة مفوضة أو قائمة بأعمال (chargée d'affaires) غير أعمال بيتها. يصح فى الأفهام أن تصير المرأة ظل زوجها السياسى أو المصلح ولكن لا يجوز أن يصبح الزوج ظل زوجته حتى ولو كان من أضعف الرجال وكانت هى من ذوات العبقرية . لأن الزواج فى مثل هذه الحالة لا يستقيم ولا يدوم وليست كل نساء الشرق كشجرة الدر ولا كل نساء أوربا كاليزابيث أو كاترين الثانية .

ولكن فى العالم نابغات كمدام كورى وفلورنس نايتنجيل ومارى باسكير تشيف ومسز ما تشيل ومدام كايافيه وغيرهن ممن أطهرهن الله بالعلم والفضيلة فأضفن إلى التقدم الإنسانى ثروة جديدة وعرفن كيف ينفعن الناس بغير تفاخر ولا مباهاة وجمعن بين إسعاد الرجال والقيام بأجل خدمة للمجتمع ، متناسيات فى معظم الأوقات شخصياتهن فكان ذلك أدعى إلى تقديرهن .

لقد كان هذا هو المثل الأعلى لقاسم أمين ، الذى يثب إلى ذهن القارئ إذا لم يكتف بتصفح كتبه ، بل عمل على درسها وتأملها . لأنه كان يحب العمل الصامت، لا التظاهر

الصاخب ولذا كانت حياته على هذا النمط . كان رحمه الله من العظماء الذين لم يمهل لهم الأجل حتى تظهر كل مواهبهم .

لله درك كنت من رجل ... لو أمهلتك غوائل الأجل
فاذا الكنانة أطلعت رجلا ... طاح القضاء بذلك الرجل !
يا ذولة الأخلاق رافلة ... من قاسم فى أبهج الحلل
كيف انطويت به على عجل ... أكذا تكون مصارع الدول ؟

كما قال فيه حافظ بحق . فلو أنه عاش وعمر لأفاد وطنه فوائد جمة . ومهما تكن الحال فقيمة الرجل الحقيقية لا تعرف إلا بعد مرور الزمن وتمحيص الأقوال والأفعال بنار الفحص والتدقيق فى البلاد اليقظة المقدرة لموازين الرجال فكيف برجل مثله فى بلادنا ؟ ولكنه دل على نبوغه وحاجة وطنه اليه فى فترة قصيرة من الزمن وأثمرت جهوده فى جيل واحد . وإن تكن بضع نساء قد أسأن فهم مقاصده أو تعمدن اتخاذها تكأة لمآربهن فإن الزمن كفيل باظهار فضله وتنقية آرائه من الزيف وابقاء خيره وتخليد ذكره .

محمد لطفى جمعه

بين القول والعمل

لحضرة الأستاذ الشيخ سليمان نوار

شيخ معهد القاهرة

أقوالنا وأعمالنا بمرأى ومسمع ، إن من أقوالنا لأقوال الإصلاحية الاجتماعية الخطيرة ، تلكم الأقوال التى دوت فى أسماع الزمان، وتضاءلت بإزائها أقوال كثير من زعماء الأمم وقادة الشعوب ، أقوال معجبة مدهشة سجلها على أنفسهم المسئولون وغير المسئولين . فى أسلوب لا يرتاب سامعه فى أنه أسلوب الإيمان والإخلاص ، ومنطق العقيدة والخلق ، وصيحة العزم والحزم ، ثم ماذا بعد هذا ؟ إما أن تكون تلك الأقوال أصواتا ذهبت فى أجواز الفضاء، فلم يعمل أصحابها شيئا مما سجلوه على أنفسهم فى تلك الأقوال ، بل ولا هم حاولوا أن يعملوا ، وتلك المحاولة أقل درجات الصدق فى الأقوال، وإما أن تشفع تلكم الأقوال الإصلاحية العظيمة بأعمال ضعيفة مضطربة لا ثبات لها ولا استقرار ، وربما ألح بها الضعف والاضطراب وعبثت بها الأهواء حتى درست فيما درس ، وألم بها ما ألم بأمثالها من العفاء والفناء. ذلك لأن هذه الأعمال لم تتأسس على الإخلاص، ولم تتركز على دعائم القوة والثبات ، وهى الغيرة على العمل والمثابرة والاصطبار .

يستطيع كل واحد منا أن يرجع الى تلك الأقوال الاصلاحية الخطيرة التى أرسلتها أفواه المنابر والمجتمعات ، ووعتها آذان الوجود ، ويستطيع بعد ذلك أن يزن هذه الأقوال بموازين الصدق والإخلاص والعزم والتنفيذ ، ولا أرتاب بعد هذا فى أن كل واحد منا سيسأل نفسه لا محالة هذا السؤال : أين أعمالنا من أقوالنا ؟ وأين قلوبنا وعزائمنا من ألسنتنا وأفواهنا ؟ ولعلنا ننتفع بأن نسأل أنفسنا هذا السؤال .

رجوعا إلى الماضى القريب لنستعرض قليلا من أقوال المسئولين فى مواقف عظيمة مشهودة ، مواقف الإصلاح الاجتماعى — ويكفينا أن نرجع الى الأقوال التى قد تدفقت فى ناحية واحدة فقط من نواحى ذلك الإصلاح — هى ناحية الإصلاح الاقتصادى .

من ذلك إصلاح الأراضى — الأخذ بيد الفلاح — إصلاح مسكنه — توفير ثروته — تصريف حاصلاته إصلاح حاله الصحى والخلقى والاجتماعى بوجه عام وقفة قصيرة عند تلك التصريحات الهامة ، ثم نظرة بعد ذلك إلى ضعف الأراضى الزراعية — إلى الفلاح وفقره — إلى كساد حاصلاته — إلى ملابسه الخلقة — إلى مسكنه القذر — الى حالته الصحية

والخلقية المحزنة ، نظرة إليه فى جميع أحواله التعسة المؤلمة ولا أريد حاله فى خصوص وقتنا هذا . فبحالة العالمية قسوتها وحكمها وشذوذها المعم . ولكنى أريد حاله فى الماضى وقبل هذه الكارثة العالمية الحاضرة ، فى ذلك الماضى القريب الذى طبقت فيه صيحاتنا الإصلاحية جميع الآفاق . لا ريب أن حال الفلاح كان سيئا ولم يزل سيئا إلى هذا الحين . ولا أرتاب فى أنه لم ينل قسطا ولو يسيرا من تلك التصريحات المسئولة ، وهذا ما أعرفه . وكم كنت أود وما زلت أود أن أكون مخطئا فى تقديرى ، فأسمع صيحة من صيحات الحق تقول : لا لا ! إن الفلاح قد نال .

ستقول إننا عاجزون عن تنفيذ الوجوه الإصلاحية للفلاح ، ولغير الفلاح فى هذا الوقت الذى نخشى ألا يبقى على ما نحن فيه فى شتى النواحى والجهات .

وهذا اعتذار إن يسمع الآن فلا يسمع عن الماضى . وإلا فما الذى أعجزنا عن التنفيذ إذ ذاك ؟ ما الذى أعجزنا عن إصلاح حال الفلاح والأخذ بيده فى جميع شؤونه حينما كان الرخاء العالمى ، والطمأنينة العامة ، والسلام والأمن الشاملان تلقى ظلالها الوارفة على معظم أقطار الدنيا ، على جميع الطبقات والهيئات ما عدا مثل ذلك الفلاح ؟

الفلاح اليوم هو الفلاح أمس ، وشقاؤه أمس هو شقاؤه اليوم ، والأقوال والأعمال اليوم هى الأقوال والأعمال أمس ، ولم نر تبدلا يذكر فيما ألفناه وفيما عرفناه .

هذا وصف قيل لبعض أقوالنا وأعمالنا التى تتصل بناحية واحدة من نواحى الاقتصاد . فأما الأقوال السياسية والاستقلالية التى كانت ولم تزل تتدفق من أفواه جريئة كأنها عقائد القلوب صاغتها البلاغة أقوالا ، ونشرتها على صفحات الأثير مبدأ وتضحية وإيمانا ، هدفها نيل وأسمى الحريات العالمية ، والوصول إلى قمة العزة القومية والاجتماعية . فتلك خطب ومقالات ورسائل ومحاضرات صاغتها الحزبية السياسية ودبجتها الأهواء الشخصية ، تبدأ بحديث الوطنية الهادئة التى تؤكد استعدادها للتضحية بالأرواح والأموال وتتجه إلى وجهة واحدة هى الصالح العام . ثم تنتهى تلك الخطب والمقالات ، وهاتيك الرسائل والمحاضرات عند وصول الساسة المقاويل إلى غرض من أغراض الدنيا الحقيرة كما تتلاشى حينما تتلاقى عند المناصب الزائلة والمراكز التى لا تدوم — مبادئ أو شبه مبادئ تقال وتنشر ، وتختلف وتأتلف ، وتتخاصم وتتصادق ، ثم تتحطم عند حطام الدنيا وعرضها الحقير الزائل ! ما هذا ؟

كأنى ببعض هؤلاء الساسة يحتقر العقلية الاجتماعية ولا يكترث بالمسئولية الخلقية ، فإن صح هذا فعلى هذه العقلية الاجتماعية أن تغضب لهذا الاحتقار ، وأن تعالج تغيير هذا الخال السيء بمحاسبتها المسئولين عن أقوالهم ، وبتدقيقها فى ذلك الحساب .

ترون أيها القراء الكرام أن الأقوال السياسية الاستقلالية والقومية قوية جدا في بلدنا هذا في جميع المحافل والأندية ، في جميع المناسبات . أما الأعمال إذا قيست بتلكم الأقوال فحالها ، كما ترون ، ضعف واضطراب والتواء وانحراف ، أو لف ودوران ، ثم اتجاه بعد ذلك إلى تحقيق الأغراض والأهواء بدون نظر إلى ما ينجم عن ذلك من الفساد العام ومن التحلل والفناء .

لن تفلح أمة يكثر فيها القائلون الذين لا يعملون بما يقولون ، فكيف بأمة يكثر فيها العاملون بعكس ما يقولون ؟

الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، علم أحوال القائلين في هذه الحياة . وأن منهم من يقول ولا يفعل ، وأن منهم من يفعل عكس ما يقول ، فأنزل في كل من القسمين آيات من كتابه الحكيم ، بانت تلكم الآيات عن أحوال هؤلاء القائلين ، وكشفت عن أعراضهم ، وفضحت نواياهم ، وأنذرت بعضهم بجهنم وما بعد جهنم من عذاب .

نزل فيمن يقول ولا يفعل ما يقول قول الله تبارك وتعالى :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۞

وفي هذه الآية كما ترون عبرة اجتماعية عظيمة ، ودعوة إلى فضيلة لها خطرها في كرامة الاجتماع وشرفه . يسأل الله الناس في هذه الآية سؤال تحبيز وتقريع ، يقول لهم : أي سبب يدعوكم إلى أن تقولوا مالا تفعلون ؟ ويبين لهم في إلزام حاسم أنه ليس هناك من سبب مطلقا يبرر أن يقول الإنسان ما لا يفعل ، ما دام للقول معنى وللصدق قيمة ، وللخلق تقدير واعتبار . ذلك أنه لا يبرر القول إلا احترام العمل بمعناه ، والأخذ في تنفيذ مقتضاه . وأنه ليس وراء التنفيذ والعمل من سبب آخر يمكن أن يستند إليه منطق الإخلاص ، وتعتمد عليه كلمة الصدق . فأما منطق النفاق — وهو الداء الاجتماعي العضال — فله دواعيه الحقيرة وهو كدواعيه من أشد الأمور مقتا عند الله ، ولا يعقل مع مقت الله أن يحسن حال أو يستقر نظام .

تدعونا الآية الكريمة إلى أن نفكر في الكلمة قبل إلقائها ، فان المرء حر قبل أن يتكلم فاذا تكلم كان أسير كلمته ، فان كان عازما على أن يحقق ما يقول تكلم ولا تثريب عليه . مادام الوفاء قصده ، ثم هو لا يألو جهدا بعد ذلك في تنفيذ ما قال ، وإلا فليمسك لسانه ، ولا يرخ

له عنانه ، وفى كل من لحالين الفضيلة والنبل والكرامة والمجادة . فأما قول بلا اعتزام ولا تنفيذ فمنشؤه ضعف الخلق ورداءة الطبع والاستهتار . وأما من يفعل عكس ما يقول فقد أنزل الله فيه الآيات :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۞ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۞ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞

هذا صنف خطر من القولين . إذا تكلم يفيض لسانه بالغيرة على الإصلاح ، والنزوع إلى الخير العام ، منطقه فى إصلاح الشؤون الاجتماعية والسياسية جميل رائع ساحر . ذلك قول الله يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ، وعمله شر مستطار ، يخادع الناس بسحر بيانه ، ثم يجترئ على الله فى غضون هذا الخداع فيقول : الله شهيدى على أن ما فى قلبى مطابق لما نطق به لسانى ، وإنه الإخلاص للناس وحب الخير لهم ، ولو انى وليت أمرهم لكانت ولايتى عليهم أمنا ورخاء وعدلا ورحمة .

فاذا أتيح له أن يلى أمر الناس ، وظفر بأربه ظهرت صورته الحقيقية ، فأمعن فى طرق الضلال ، وتفنن فى ضروب الفتن ، حتى أتى على الأخضر واليابس . ذلك قول الله جل وعلا :

" وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ "

وهل بعد هذا إلا أن يختل النظام وتسود الفوضى ويستشرى الفساد ؟ مثل هذا الساحر المفسد إذا قيل له اتق الله وارجع عما أنت فيه من بغى وإفساد ، واذكر أنك إنما وليت لتصلح ، وأنك أشهدت الله على أنك لا تضمر للناس إلا الخير والإصلاح ، أحفظته النصيحة فزاد إثمه وفساده ، وأبى عليه اعتزازه بسلطانه إلا أن يبالغ فى الضلال .

ذلك أخطر أنواع المنافقين ، وأشدهم فتكا وتمزيقا لكيان الاجتماع . إذا كثرت أمثاله فى أمة ذلت بعد عزة ، وافتقرت بعد غنى ، وأفلست بعد يسار ، وسيطرت عليها أطماع أجنبية ، لا تبقى ولا تذر .

هذا أيها المستمعون الكرام بعض ما تشير إليه الآيات الكريمة من عظات وعبر . ومنها تعلم أن الناس أقسام : قائلون خداعون يعملون ضد ما يقولون ، و يفسدون بعد أن يقولوا إننا مصلحون ، وهؤلاء إن أفلتوا من عقاب الله فى الدنيا — ولا إخالهم يفلتون — فعقابهم فى الآخرة حتم لا ريب فيه . وقائلون لا يعملون بما يقولون ، وخطرهم كذلك على المجتمع عظيم . وقائلون يعملون بقدر ما يقولون ، أو يعملون كثيرا ولا يتحدثون عن أعمالهم إلا إذا اضطروا إلى الحديث لغرض من الأغراض السامية . وهذا القسم الثالث هو الذى يدعو إليه القرآن لأنه عماد الاجتماع الصحيح فى كل زمان . وقد بين القرآن وفصل ووصف كل شؤون الدنيا والدين ، ورسم لنا أسمى الخطط الاجتماعية والتشريعية والتهذيبية . فهل آن للناس أن يرجعوا إليه فى كل شؤون الحياة ؟ فى التشريع ، فى الاجتماع ، فى الأخلاق وفى الآداب ؟

فإلى الأخذ بتعاليم القرآن أيها المسلمون . و إلى العمل الصالح النافع أيها المؤمنون .

" وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ " .

والسلام عليكم ورحمة الله .

سليمان نوار

ارقام معبرة

عن مدى عنايتنا بالطبقات المختلفة

بقلم الاستاذ س . ق

بلغ مجموع ما أنفقته الدولة على "تسوية الديون العقارية" منذ سنوات قليلة أربعة عشر مليونا من الجنيهات دفعت كلها لخزائن البنوك والشركات العقارية لإنقاذ مدينيهم من كبار الملاك الذين دعتهم الأزمة مرة كما دعاهم سوء التصرف أو الإسراف مرات إلى الاقتراض على أطيانهم من هذه الشركات والبنوك ، ثم عجزوا عن أداء دينهم فى مواعيده حتى أشرفت أملاكهم على الضياع . وباتوا مهددين بنزع الملكية .

وعندئذ هدتهم الحاجة الملحة إلى حيلة بارعة ، وهى أن يبادوا بالخطر على ثروة البلاد العقارية التى توشك أن تتسرب إلى أيدى الأجانب ؛ واستصرخوا الحكومة أن تتدخل لإنقاذ ما أسموه " ثروة البلاد " واستطاعوا بفضل نفوذهم الشخصى ونفوذهم البرلمانى أن يقنعوا الحكومة والبرلمان بدعواهم ، فكان أن أنفقت هذه الملايين !

هذه هى القصة باختصار ، بل هذه بعض فصول القصة ، فما تزال فصولها تمثل وستظل فى دور التمثيل ما دامت الحكومة ماضية فى " تسوية هذه الديون ، التى تتجدد كل يوم . ويعتمد المدينون عليها فلا يؤدون ديونهم إلا بالقدر الذى يسمح بأن تشملهم التسويات ، ولا يزال ملاك جدد يقعون فيما وقع فيه المدينون السابقون اعتمادا على هذه التسويات !

والآن فلننظر : كم عدد المصريين الذين انتفعوا أو ينتفعون بهذه التسوية ؟

يبلغ عدد الملاك فى مصر ٢,٤٤٦,٠٠٠ من مجموع تعداد المصريين بنسبة ١٥ ٪ من السكان بينما هناك ١٣,٤٦٤,٥٢٥ لا يملكون شيئا من الثروة العقارية . وتبلغ مساحة الأرض المنزرعة خمسة ملايين ونصف مليون من الأفدنة منها ٢,٣٠٤,٧٦٠ يملكها ١٢,٥١١ بينما هناك ١,٧٨٠,٠٠٠ لا يملكون أكثر ٧٠٠,٠٠٠ فدان بواقع ثلث فدان لكل منهم .

ومعلوم أن الذين تستديون من البنوك والشركات ، والذين ينتفعون بالتسويات ليسوا من هؤلاء الذين يملكون أقل من فدان ولا من الذين يملكون فدانا أو أكثر إلى خمسين فدانا ، فالمدينون جميعا من أصحاب الثروات الكبيرة التى تجاوز هذا الرقم وهؤلاء الذين

يتجاوزونه لا يزيد عددهم عن ثلاثة عشر ألفا . وليسوا جميعا ممن تتناولهم التسويات ، بل الواقع أن عدد هؤلاء لا يكاد يتجاوز الالف ، وهم الذين أنفقت عليهم الدولة أربعة عشر مليونا من الجنيهات !

فكم مليونا أنفقت على الملايين الكثيرة من أصحاب الملكيات الصغيرة وممن لا يملكون شيئا ؟ كم مليونا أرصدت لخدمة الاجتماعية التي ينتفع بها من هم في أشد الحاجة اليها من العمال الزراعين والعمال الصناعين، ومن الأطفال المشردين والعجزة والمرضى وسائر الطبقات التي تقاسي الأمرين في مواجهة مطالب الحياة الضرورية ، وتفتقر أشد الافتقار الى هذه " الخدمة الاجتماعية " في جميع مرافق الحياة ؟

لقد عجزت ميزانية الدولة عن تخصيص مليون واحد من الجنيهات لإنشاء المراكز الاجتماعية التي جاءت التجارب الأولى في خلال عام واحد شاهدة بصلاحيتها وبضرورتها ؛ والتي أنتجت في هـذه المدة القصيرة إنتاجا ملموسا في التخفيف من قسوة الظروف المحيطة بالريف، والتي أقبل عليها الريفيون أنفسهم بالتبرعات لإنشائها بعد ما لمسوا فائدتها في الدائرة الصغيرة التي سمحت بها الميزانية !

ولقد عجزت الميزانية من قبل ولا تزال عاجزة عن تخصيص مليون واحد من الجنيهات للوحدات الصحية التي قامت وزارة الصحة بإنشائها ؛ والتي حملت الى الريف المنبوذ بعض وسائل الوقاية والعلاج ، وبعض الثقافة الصحية مع عقاقير الدواء ، والتي كانت كفيلة لو عممت في كل مكان أن تنقذ البلد من الخسارة التي لاتعوض في الأرواح وفي قوة الإنتاج !

ولقد عجزت الميزانية عن تقديم أربعة ملايين من الجنيهات لتوفير المياه النقية لأربعة عشر مليونا من السكان في الريف بعد ماثبت أن المياه الراكدة التي يشربونها معناها البلهارسيا والانكلستوما والإسكارس والدوسنتاريا وحفنة من الأمراض المتوطنة التي تهد الحيل ، وتقصف الأجل ، وتضيع على البلاد أكثر من خمسين في المائة من قوة الإنتاج أي نحو خمسين مليونا من الجنيهات كل عام !

ولقد عجزت الميزانية عن تخصيص مليون واحد من الجنيهات لإطعام مليون من تلامذة المدارس الإلزامية ؛ بعد ما ثبت أن الملايين الكثيرة التي تنفق على تعليمهم هي ملايين ضائعة ، لأن حالتهم الصحية تمنعهم من الاستفادة مما يلقى عليهم من الدروس وتحرمهم لذة الصحة وتخرجهم من المدارس أشباحا هزيلة ، وإن جنيها واحدا في العام كفيل بأن يرد لكل طفل من هؤلاء صحته وقوته ويمكنه من الانتفاع بالمدرسة والانتفاع بالحياة !

ولقد عجزت الميزانية عن تخصيص مليون من الجنيهات للانفاق على شؤون الوقاية من الغارات الجوية لحفظ ملايين الأرواح ولبث بذور الطمأنينة فى النفوس ، ولم تكد مسائل الوقاية تتحرك وتنهض إلا بعد التبرع الانجليزى بهذا المليون الذى عجزت الخزانة عن تدبيره!

ولكن هذه الميزانية التى لم تستطع تخصيص مليون لهذا الشأن أو مليون لذلك ينتفع به الملايين من السكان ، استطاعت — بقدرة قادر — أن تخصص أربعة عشر مليونا كاملة للتسويات العقارية ينتفع بها عدد لا يتجاوز الألف من الملاك ، بحجة المحافظة على "ثروة البلاد العقارية" من التسرب والضياع .

وليس هذا الا نموذجا لما ينفق فى كل اتجاه، فالنسبة محفوظة بين الأربعة عشر مليونا التى تستطيعها الميزانية والمليون الذى لا تستطيعه . النسبة محفوظة دائما فيما ينفق على وسائل الزينة والترف وما لا ينفق على وسائل الإنشاء والتعمير . تجدها محفوظة بين ما ينفق على تزيين الأحياء الراقية لتزيد رقيا وجمالا ورفاهية وبين ما لا ينفق على الأحياء الوطنية المحتاجة الى الشمس والهواء لتتنفس بشيء من الحرية .

وتجدها فيما ينفق على التعليم الابتدائى والثانوى والعالى الذى تنتفع به قلة قليلة بالقياس الى مجموع السكان ، وبين ما لا ينفق على التعليم الإلزامى لرفع مستواه وتوفير وسائل الانتفاع به فى أوساط الفقراء الذين هم الملايين الكثيرة فى الأرياف !!

وتجدها فيما ينفق على السيارات الفخمة وأثاث الغرف الديوانية لمجرد الزينة والفخمة ونفخة الحكم، وبينما لا ينفق على سيارات الوحدات الصحية وأثاث المستشفيات المجانية التى تؤدى الخدمات للألوف العاجزين عن نفقات العلاج ، وعن الانتقال الى المراكز البعيدة التى تضم المستشفيات !!

وتجدها فيما ينفق على المآدب والحفلات والسياحات للتظاهر والرفاهية والاستمتاع الفردى، وبين ما لا ينفق على مطاعم الشعب وعلى الخدمات الاجتماعية للمشردين والمشردات والعجزة والعاجزات ، وسائر الطبقات التى تخصص لها الأمم الراقية أرقاما عالية فى ميزانيتها الحكومية والشعبية كل عام !!

وتجدها فيما ينفق على الألوف من الموظفين ، بل على المئات المحظوظين منهم إذ أن غالبيتهم من الصغار الذين لاتكاد مرتباتهم تكفيهم مع نمو عائلاتهم المطرد، وبين ما لا ينفق على مليون من العمال الصناعيين وثلاثة ملايين من العمال الزراعيين لتوفير بعض الضمانات الاجتماعية لهم فى حياتهم ولأطفالهم ولنسائهم ، حتى لا يضطروا إلى التسول أو التشرد أو الاجرام !!

وتجدها كذلك فى كل ناحية من نواحى الحياة المصرية ، وكل مرفق من المرافق العامة ؛ ففى كل مكان ينطبق المعنى الظاهر — لا الحقيق — لقول الانجيل : " الذى له يعطى ويزاد والذى ليس له يؤخذ منه ما معه ! " . وقد رأينا فى آخر الزمان أن عددا من علاوات صغار الموظفين يحذف ويؤجل لتوفير علاوات ضخمة لبعض الكبار ، وأن درجات تاسعة وثامنة وسابعة تلغى من الميزانيات لتوفير درجات أولى وثانية لبعض المحظوظين . وهذا تطبيق كامل للمعنى الظاهرى لآية الانجيل !

* * *

وقد كان هذا كله مفهوما يوم كانت الطبقة الحاكمة والطبقة المثرية من جنس آخر غير الجنس المصرى . يوم كان الحكام والملاك من السادة المترفين والمحكومون والأجراء من الفلاحين والعبيد . ويوم كان هؤلاء السادة يعنون بمصالحهم ومرافقهم ووسائل رفاهيتهم ، مهملين مصالح العبيد وصروراياتهم ، هؤلاء العبيد الذين كان مطلوبا منهم أن يشتغلوا كما تشتغل الحيوانات ليأتوا لسادتهم بالمال الذى ينفقونه على الترف والزينة .

كان هذا مفهوما يوم كان السادة ينظرون إلى المصريين من أعلى فيرونهم يدبون على الأرض كما تدب السوائم والحشرات والهوام ، فيضحكون عليهم ويتفرجون بالضنى الذى يصيبهم ، والعرق الذى يهطل من أجسادهم ؛ فاذا أعجبهم المنظر تفضلوا عليهم "بالبقشيش" و "بالإكراميات" ليريدوا فى سرورهم من جديد !

أما اليوم فقد تغيرت الحال ، وأصبحت الهيئة الحاكمة من أبناء أولئك الفلاحين فيجب أن تتغير هذه العقلية القديمة ، وأن تعدل هذه الأوضاع الشاذة ، وأن ترد إلى الشعب إلى هذه الملايين الكثيرة بعض حقوقها ، وأن تبذل لها بعض الرعاية الواجبة للشعوب مصدر السلطات .

وهذا يقتضى أن تقوم الحياة فى مصر على دعامتين أساسيتين ، تنهض الميزانية العامة عليهما ، ويتجه التفكير إلى تقويتهما ، وتتجه السياسة العامة وجهتهما . هاتان الدعامتان هما :

أولا — توزيع التكاليف العامة بنسبة الثروة ، فالثروة الصغيرة تنهض بعبء صغير والثروة الكبيرة تنهض بعبء كبير ، كما يقع فى جميع بلاد العالم المتمدن ، ولاسيما البلاد الديمقراطية التى نزعم أننا نأخذ بوسائلها فى نظامنا الديمقراطى .

ثانيا — توزيع الإنفاق بنسبة عدد المنتفعين به ، بحيث لا تضن الميزانية الحكومية والشعبية على الملايين الكثيرة بمليون من الجنيهات ، وتجود على مصالح الآحاد والعشرات بالملايين الضخمة ؛ وهناك بالذات أربعة ملايين من عمال الزراعة والصناعة وبضعة آلاف

من العجزة والمرضى والمشردين ، فى مقدمة من يستحقون السخاء فى الإنفاق على تحسين حالهم وتيسير وسائل الحياة الكريمة لهم .

ويجب أن يرسخ فى أذهاننا أن الديمقراطية السياسية أولى خطوات الديمقراطية وأن هناك خطوات تالية فما لا تتم إلا بها ، تلك هى الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية ؛ ولا تتم الديمقراطية الاقتصادية إلا بتوزيع التكاليف وتوزيع النفقات على النحو الذى أشرنا إليه فى الفقرتين السابقتين ؛ ولا تتم الديمقراطية الاجتماعية إلا بتحقيق الديمقراطية الاقتصادية .

وإلا فأية فائدة فى النص على أن جميع المصريين متساوون أمام القانون ، إذا كانت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لا تحقق هذه المساواة ؟

وأية مساواة تتحقق بين من يملك المال والصحة والعلم ، وبين من لا يملك شيئا منها وهى عدة النضال فى هذه الحياة ؟ كيف تتيح فرص النجاح فى الحياة للجميع — وذلك معنى المساواة الديمقراطية — إذا أعطيت أحد المتنافسين كل وسائل النجاح وحرمت الآخر منها جميعا ؟ بل كيف تكفل مجرد المساواة القانونية بين متخاصمين يملك أحدهما المال لتوكيل محام واستحضار مستندات كما يملك العلم لضمان حسن التصرف ودقة الأداء ، وأحدهما لا يملك المال ولا العلم ، ولا يستطيع إبراز حقه أمام القضاء ؟

إن الديمقراطية السياسية تغدو حبرا على ورق مالم تتبعها الديمقراطية الاقتصادية والاجتماعية فى معترك الحياة ؛ ومصر الناشئة فى حاجة إلى تعديل الأوضاع التى خلفتها لها القرون والأجيال .

* * *

ونعود إلى قصة " التسويات العقارية " فنرى أنه لابد من العدول عن هذه السياسة ؛ وإذا كانت هناك خشية من تسرب العقارات إلى أيد أجنبية ، فيجب سن قانون يمنع تملك الأجانب للعقار كما هو حاصل فى بلاد كثيرة . ولا زلت أذكر أن محاولة شراء "بيوت هاوس" فى لندن لتكون دار المفوضية المصرية لاقت عقبات كثيرة بسبب مثل هذا القانون.

فلن يعترض أحد إذن من الأجانب على سن قانون له نظائر وأشباه فى مختلف بلاد العالم المتمدين ويكفى أن توجد الضمانات الكافية لسداد الديون من ريع هذه العقارات كما هو الحال فى الأوقاف .

لقد كانت هذه الأربعة عشر مليونا من الجنيهات كافية لاستخراج الكهرباء من خزان أسوان ولتوفير كميات ضخمة من المياه ببناء خزانات جديدة ، ولتحسين وسائل الرى والصرف

فى جميع أنحاء المملكة ، وهذه الأعمال الثلاثة الضخمة كانت كفيلة بزيادة الأراضى المنزرعة وإصلاح الأراضى الرديئة بما يعادل نحو مليونين من الأفدنة .

فهل استطاعت هذه التسويات أن تردلمصر مليونين من الاراضى الزراعية؟ كلا ولاشك. فما تزال عشرات الألوف من الأفدنة مرهونة ، وما تزال الديون باقية ، ولا تزال تتجدد من ناحية كلما سويت من ناحية كساقية عجا المشهورة .

فالعامل الاقتصادى وحده كان يقتضى إنفاق هذه الملايين فى وجوه أخرى أهم وأنفع للبلاد والتى تعانى من ضيق المجال الزراعى والصناعى أزمة تهددها بتضخم السكان وعدم كفاية الثروة لإعاشتهم فى الوقت الذى لامهجر لهم ولا مستعمرات !

ولكن الدولة لن تسير فى الطريق القويم إلا يوم أن تتخلص من العقلية القديمة : عقلية السادة والعبيد ، أو عقليـة : " الذى له يعطى ويزاد والذى ليس له يؤخذ منه ما معه " وهى السائدة الآن كما كانت منذ أجيال .

س . ق

" وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ " .

قرآن كريم

فى مصر أزمة أمهات !
الأطفال فى مصر وأمريكا

قرأت مرة فى إحدى الصحف المصرية تحت عنوان : " طفل ضال " أن طفلا فى السابعة أو الثامنة من العمر عثر عليه البوليس ضالا فى إحدى الطرقات وهو يبكى وقد عجز عن الإرشاد إلى أهله أو مسكنه .

وقرأت مرة فى إحدى الصحف أن بضعة أطفال فى أمريكا تتراوح أعمارهم بين السابعة والعاشرة تغيبوا عن دور أهليهم الذين أبلغوا إدارة الشرطة عنهم ؛ وقد ضبطتهم دوريات الميناء وهم يستقلون زورقا بخاريا على بعد أميال من الشاطئ ، ولما سئلوا عن سبب وجودهم هناك قرروا أنهم اعتزموا القيام برحلة بحرية إلى أوروبا . وقد وجدت معهم بوصلة وبعض الخرائط البحرية ! ! !

والفرق بين الحادثين هو الفرق بين ثقافة الأطفال فى مصر وفى أمريكا وبين نمو شخصياتهم هنا وهناك . وهو الفرق كذلك بين شخصية الشعب المصرى وشخصية الشعب الأمريكى ، فما الأطفال إلا رجال المستقبل وما هؤلاء الرجال إلا الشعب فى صورة أفراد .

ففى الحادث الأول نلمح الجهل والقصور والضعف ، وفى الحادث الثانى نلمح المعرفة والطموح والاعتداد ، وهذه هى عدة الصراع العالمى فى هذه الأيام ، وللنشأة الأولى دخل كبير فى غرس هذه الصفات أو تلك فى نفوس الأطفال ، حيث تؤثر فى شبابهم ورجولتهم وكهولتهم ، وتجعلهم إما أدوات سليمة قوية للنضال وإما حطاما متداعيا لا يقوى على مواجهة الحياة المعقدة المجهدة .

وهذا الطفل الضال الذى لا يستطيع الإرشاد عن أهله وعنوانه ، والذى يبكى ويخاف من كل غريب ، والذى هو من باب أولى لا يستطيع سؤال أحد عن الطريق أو لا يلجأ إلى رجل البوليس ليستعين به على الخروج من ورطته ، هو نفسه الشاب المنزوى عن المجتمع الذى يغادر المدرسة باحثا عن وظيفة حكومية معروفة سهلة فاذا لم يظفر بها لم يجد أمامه متسعا لأية مخاطرة — بل تجربة — فى العمل الحر ، وبطبيعة الحال لا يفكر فى أية مغامرة خارج بلاده التى يخاف فراقها ولو لبضعة كيلو مترات !

وقبل أن نلوم هذا الشاب على فقدان روح الثقة بالنفس وروح التجربة والمغامرة يجب أن نلتفت إلى ذلك الطفل الذى نشأ فى عزلة عقلية ونفسية ، والذى لم يدرب فى طفولته أى تدريب على الخروج من بيته أو حارته إلا وهو معتمد على سواه ، فاذا فارقه هذا المرشد المعين ضل عن مسكنه واضطرب وخاف فلم يستطع الإرشاد إلى أهله !

وهذه ثمرة لازمة لوضع المنزل المصرى ولعاداتنا الخاطئة فى تربية الأطفال لا الى طبيعة الذكاء المصرى الذى لا يقل عن مثله فى العالم . فكلنا يعرف ذلك البيت المصرى الذى ينشأ فيه الأطفال جاهلين بكل ما حولهم ، يسألون عن الأشياء المحيطة بهم فيزجرون وينهرون ويحاولون مرافقة الكبار فى أثناء خروجهم فيتهرب منهم هؤلاء الكبار : الأب لأنه ذاهب إلى المقهى وليس لديه من الفراغ ما يقضيه مع طفله بعرفه فيه بعض المسالك القريبة من الدار ويدرس معه جغرافية المنزل والمنطقة . والأم لأنها ذاهبة إلى حفلة أو زيارة ولا يصح أن يرافقها طفلها ، وقد قضت الوقت السابق لتلك الحفلة أو هذه الزيارة أمام المرآة تتزين وتتبرج لتكون فتنة الطريق أو فتنة الحفل وليصنع الطفل ما يشاء .

فاذا أطاع الأطفال غريزة حب الاستطلاع وأرادوا الخروج منفردين تكاتف جميع أفراد الأسرة على تحويفهم من الخروج تارة من " العسكرى " وتارة من " الحكيم " وتارة من " العفريت " حتى ليخيل لهؤلاء المساكين أن الشوارع تعج بالمخاوف ، وأنهم متى تجاوزوا عتبة الدار تخطفتهم الشياطين أو ذهبوا الى عالم غريب لا مخلص لهم منه ولا فرار .

وبعض الآباء والأمهات يدللون أطفالهم تدليلا سخيفا فيحسبونهم لعبا لا أحياء . يخافون عليهم من النسيم يجرح خدودهم والحرير يدمى بنانهم ، ولو استطاعوا أن يضعوهم فى علب وورق شفاف وأن يعرضوهم لمجرد الزينة لكان ذلك خيرا فى نظرهم من تركهم يتحركون وينشطون !

يريد الطفل أن يداعب القطة أو الكلب فيمنع خوفا عليه من أظفارها . يهم أن يطل من النافذة فتصرخ الأم خيفة أن يسقط أو يتعرض لتيار الهواء . يأخذ فى صعود السلم أو النزول فتولول خيفة أن يسقط فتهشم أضلاعه . يسقط على الأرض فى أثناء قفزه أو جريه فتصيح فى ذعر يتوهم معه الطفل أنه أصيب إصابة بالغة فيأخذ هو نفسه فى البكاء . تقطع له هى اللقمة وتناوله الأدام بحجة المحافظة على نظافته فينشأ وهو لا يعرف كيف يأكل أو كيف يستخدم أدوات المائدة .

وهكذا يتعلم ذلك الطفل المدلل الخوف والارتباك كما يتعلم الرخاوة والكسل والتواكل ، فاذا شب ظل طفلا فى طباعه وعقليته ، وعجز عن مواجهة الحياة الصاخبة التى تتطلب الجهد والكفاح .

ونخلص توحيد من هذا الوضع الأسيء للبيت المصرى هو الأم المتعلمة . فهذه الأم هي المنقــذ الأعظم للجيل. ولكن أى تعليم هو الذى يهيئ للفتاة أن تنهض بذلك الواجب الخطير وأن تخرج لنا أطفالا تملؤهم روح الثقــة بالنفس والمرانة على الحيــاة والدربة على النضال والتطلع الى الآفاق البعيدة ؟

ليس هو التعليم الحالى بكل تأكيد !

فقصارى هذا التعليم أن يخرج لنــا فتاة تصلح للديوان كما يصلح الفتى ، ولكن الشاب الذى يتعلم هذا التعليم لا يصلح لرعاية البيت وتكوين الأطفال فكذلك الفتاة التى تنشأ نشأته وتتعلم تعليمه وتسلك طريقه فى الحياة .

ونحن مبتلون ببعض السفسطائيين الذين ينقلون وضع المسألة فى تعليم المرأة من الدائرة العملية إلى مناقشات أفلاطونية. فيتســاءلون : ـ لا يتساوى الفتى والفتاة فى الحقوق؟ وإذا كان لا بد من المساواة بينهما فلم يحال بينها و بين الاشتراك معه فى التعليم ؟ وكيف يحــال بينها و بين جميع الدراسات وقد دلت التجربة على أنها لا تقل عنه ذكاء ولا تتخلف فى الامتحانات بل تسبقه فى أحيان كثيرة ؟

والمسألة ليست أن الفتاة تصلح لمثل هذا التعليم أو لا تصلح ، ولا مسألة أنهــا صاحبة حق من الوجهة النظرية فى سلوك أى طريق تعليمى أو مسلوبة الحقوق .

المسألة مسألة وظيفة يؤديها كل فرد للمجتمع ، ومسألة استخدام أحسن المواهب لأداء هذه الوظيفة فى كل ظرف من الظروف .

ولا يجادل أحد فى أن حاجة البيت للأم المتعلمة أشد بكثير من حاجة الديوان والمكتب للوظيفة والمحاماة ، ولا يجادل أحد فى أن الأم المتعلمة تستطيع أن تقــدم للمجتمع فى شخص أطفالها خدمات أجل وأنفع بمــا لا يقاس — مما تستطيع أن تقدمه لهذا المجتمع بالخطب والمحاضرات وأعمال الديوان وعضوية البرلمــان .

ومن البلية أن تفهم بعض الفتيات — بتأثير إيحاء خاطئ من الكتاب السفسطائيين — أن العمل الخارجى أجل شأنا وأكثر نفعا وأدعى إلى الاحترام من سياســة المملكة الصغيرة فى العش الدافئ ، فذلك الفهم فوق أنه تشويه للفطرة الإنسانيــة ، مؤذ للمرأة كامرأة ومسقط لفضائل الجنس التى تدركها الفطرة السليمة .

يجب أن يكون مفهوما أن خروج المرأة للعمــل ضرورة واضطرار ، وإقصاء لها عن مكانها الطبيعى الذى تستطيع خدمة جنسها وخدمة المجتمع فيــه خدمة صادقة ، فاذا لم تكن الظروف الاقتصادية أو الحربية تقتضى هذا الاقصاء — بل هذا النفى — فمن الحمق التطوع به لمجرد الجرى وراء مناقشات نظرية لا تنطبق على الواقع ولا على الوضع الاقتصادى للأمة.

حق ، ولكننا ننظر إليها من ناحية حاجة المجتمع ، ومن ناحية المقدرة الإنتاجية لكل فرد واستخدام أفضل المواهب لإبراز هذه المقدرة .

والشاب يستطيع النهوض بالعمل الخارجي دون معاونة الفتاة — في الطور الحالي من تطورنا الاجتماعي والاقتصادي — بل يضيق به مجال العمل ، ولا تستطيع الدولة أن تنتفع بجهود كل الشبان. بينما هذا الشاب عاجز عن النهوض بأعباء البيت وتكوين الجيل الجديد. فيكون من الإسراف إذن في وظائف الشعب التي تشبه وظائف الجسم الواحد أن يتكالب جميع الأعضاء على أداء وظيفة معينة ، وأن تبقى وظائف أخرى لا يؤديها عضو من الأعضاء ولا سيما حين يستقر في الأذهان أن الأمومة ليست أقل شأنا ولا أحقر مقاما من العمل في المكتب والديوان .

هذا كلام واضح ، وله نتائج معينة ، أقربها إلى التناول أن يكون تعليم الفتاة — وبخاصة بنات الطبقتين الفقيرة والمتوسطة — مما يساعدها على أداء وظيفتها كاملة لا أن يشذبها إلى مسلك آخر من مسالك الحياة .

والاتجاه العقلي له قيمته في الاتجاه النفسي ، فالفتاة التي تدرس دراسة خاصة تجمع بين الثقافة العامة والثقافة النسوية ، تتهيأ نفسها للحياة المنزلية ، وتستعد وظائفها للعمل في عش الأمومة بخلاف الفتاة التي تنشأ نشأة الفتى فتذلل غرائزها وتحول اتجاهاتها وترى في البيت قيدا وسجنا ، كما ترى الكثيرات الآن ممن يفتن بالآراء الرخيصة والاتجاهات الجامحة والسفسطة العابثة .

فأما إذا اقتضت الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أن تزيد الفتيات المتعلمات على حاجة البيت فحينئذ يجب أن يخرجن إلى ميدان العمل ، لأن اعتزالهن في هذه الحالة يكون إسرافا في قوى الشعب وتبذيرا في وظائفه، كما هو الحال الآن لو هجرن البيوت وهي في أشد الحاجة إلى الأم المتعلمة ، أو لم يهجرنها ولكنهن لم يتهيأن لها بثقافة خاصة كما هو واقع كذلك !

فعلى الدولة أن تنظم استخدام الثروة الآدمية بأن تخصص كل عضو للعمل الذي يحسن أداءه ولا تدع الجميع يتكاثرون في ميدان ضيق ، والميادين الأخرى خاوية . وعلى جماعة الكتاب أن يضعوا في الميزان حقائق الواقع وحالة المجتمع قبل أن ينساقوا في نظريات جوفاء لا تصلح في الحيوي من الأمور .

إن في مصر أزمة "أمهات" حقيقية ، على كثرة من فيها من "الوالدات" "فالأمومة" وظيفة أكبر مما يقاس من وظيفة "الولادة" ولن تعالج هذه الأزمة إلا بأن تعمر البيوت

الماضى والجيل الحاضر . جيل لا يضل أطفاله فى الطرقات على بعد مائة متر من عتبة الدار ولا يعجزون عن الإرشاد إلى أهليهم أو عنوانهم فيستسلمون للبكاء . جيل مثقف ثقافة منزلية قوى الشخصية ، يغامر على الأقل فى رحلة من قلب مدينة القاهرة إلى الإهرامات !!!

مصر فى حاجة إلى "أمهات" قبل حاجتها إلى محاميات وموظفات ونائبات فى البرلمان هذه هى الصيحة التى يجب أن تصل إلى كل أذن من آذان أولئك الذين يزعمون أنهم يعرفون التقدم الاجتماعى ، وهم بعيدون كل البعد عن روح البحث الاجتماعى الذى يقوم على دراسة الواقع واستشارة الأرقام قبل أن يقوم على الجدل النظرى والإغراق فى الأوهام.

—

شعر عبد الله بن الزبير بضيق الحصار عند ما خرج على عبد الملك بن مروان فقصد إلى أمه وهى عجوز قد حطمتها الشيخوخة فقال : "يا أماه. خذلنى الناس حتى أهلى وولدى . ولم يبق معى الا اليسير ومن لا دفع له أكثر من صبر ساعة من النهار . وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا . فما رأيك ؟ " .

فقالت : " الله الله يابنى . ان كنت تعلم أنك على حق تدعو اليه فامض عليه ، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية فيلعبوا بك . و إن كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلكت نفسك ومن معك . و إن قلت : إنى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس هذا مثل الأحرار ولا من فيه خير . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن مايقع بك يا ابن الزبير . والله لضربة بالسيف فى عز أحب إلىّ من ضربة السوط فى ذل " .

دراسة السير والشخصيات

فى التاريخ العـام وفى تاريخ الآداب

بقلم الأستاذ س . . .

الشخصية الحيةُ تجتذب الانتباه وتستوجب الاهتمام أكثر من الحادثة المجردة ، ولا سيما فى عالم الأطفال والمراهقين من الشبان ، ولكننا فى المدرسة المصرية لا نحاول الانتفـاع بهذه الخاصة النفسية ، التى تبرز بخاصة فى التاريخ العام وفى تاريخ الاداب .

فنحن نكلف التلاميذ فى مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى دراسة عصور متطاولة من الزمان تمتد من أقدم عصور التاريخ إلى العصر الحاضر فى مصر وفى أوروبا ، وهى عصور مديدة تضم آلاف الحوادث وآلاف الشخصيات وآلاف التواريخ الرقمية للحوادث وللأشخاص بحيث يكفى أن يوضع فهرس تفصيلى لها فيكون هو المنهج المقرر .

والذى يقع فعلا هو أن ما يدرس للتلاميذ لا يتعدى أن يكون فهرسا للموضوعات التى تتناولها هذه الأحقاب ، ومن هنـا تصبح دراسة التاريخ مملة متعبة للتلاميذ وللطلاب على السواء ، ويصبح حفظ هـــذه الأسماء والأرقام عبئا على الذاكرة لا تنهض به ؛ أو تنهض ولكن فى عسر وإعياء .

وكذلك الحال فى دراسة تاريخ الآداب فى مرحلة التعليم الثانوى ، فهى تضم مرحلة تبدأ من الجاهلية إلى العصر الحديث ، يمر بها التلاميذ ركضا ، فى صورة مقتطفات سريعة عن كل عصر وعن بعض الشخصيات لا تؤدى إلى تكوين صورة ما فى ذهن التلميـذ عن هذه الشخصيات وعن تلك العصور ، ومن هنـا تستحيل دراسة الأدب عبئا على الذاكرة يعوق النمو الأدبى و يتسد النفس عن الاطلاع .

ولو أن المنهـاج استعاض عن دراسة الحادثة بدراسة الشخصية ، وعن دراسة العصر بدراسة السيرة لاستطاع أن يحقق جملة أغراض فى وقت واحد

فهو بهذه الطريقة يضمن الجاذبية بين الشخصية موضوع الدراسة و بين قلوب التلاميذ والطلاب ، لأنه يعرضها عليهم ذاتا حيـة ، فيها النمو والحركة والتشويق ، فيضمن تتبعهم لها وحرصهم على معرفة خصائصها والظروف التى أحاطت بها ، وتعمق جوانبها ، والمؤثرات فيها .

و يستطيع أن يحقق غرضا آخر وهو دراسة العصر الذى عاشت فيـه هذه الشـخصية فى ثنايا دراستها فينسحب شوق التلاميذ والطلاب لمعرفة سيرتها الى معرفة الحادثة والعصر فى صورة حية بريئة من الجمود والتفكك الملحوظين فى دراسة العصور .

ويبقى بعد هذا وذلك التأثير الروحى لدراسة الشخصيات الحية . فهذه الدراسة ولا سيما فى التاريخ القومى تجسم للتلميذ وللطالب مثالا يقتدى به ويتشبه ، فإذا كان هـذا المثال مصريا زادت حماسة الناشئ له ، وأثر فى توجيهه أثرا طيبا ووجهه وجهة وطنية وشخصية قد تخلق منه بطلا .

أما دراسة الشخصيات فى الأدب فهى كفيلة بعد تحقيق المزايا التى أسلفت بيانها بتكوين الذوق الأدبى وتنبيه حاسة النقد ، ذلك أن استعراض العصر الذى نبت فيه الكاتب أو الشاعر واستعراض بيئته الخاصة والمؤثرات التى كونت شخصيته وتطبيق ذلك كله على إنتاجه . كفيل بأن يجعل هـذا الإنتاج مادة حية فى نفوس الطلاب ، وأن يقرب هـذا الشاعر أو الكاتب الى قلوبهم ، إذ يتابعون انفعالاته ويشاركونه وجداناته ، ويتأثرون بما أحاط به من ظروف فى تقدير أدبه . ويكونون إذ ذاك متذوقين ونقادا فى آن واحد .

وهم فى هـذه الأثناء يدرسون العصور التى تحرص البرامج الحاضرة على دراستها ولكن بطريقة مشوقة جذابة فيها نبض وحياة ، وفيها ترتيب طبيعى وتنسيق ، بدل السرد الممل والفقرات المفككة والاعتماد على الذاكرة وحدها لأداء الامتحان .

* * *

وهناك ظاهرة أخرى عجيبة فى دراسة التاريخ العام وفى دراسة الأدب وتاريخه . هذه الظاهرة هى عدم الانتباه لما يصح أن يلقى الى التلميذ فى كل مرحلة ، ولما يصح أن يكلفه من الجهد الفكرى والنفسى فكثيرا ما تلقى الى التلاميذ طلاسم ومعميات بالقياس الى معلوماتهم ، تبقى غامضة فى أذهانهم ولا مدلول لها فى قواميسهم اللفظية والمعنوية ، فيعتمدون فيها حينئذ على الذاكرة ، حيث تبقى هنالك ملقاة كالأحجار المبعثرة .

خذ مثلا لذلك تلميذا فى التاسعة أو العاشرة من عمره يلقى اليه أن " امنحوتب " كان حكيما وعالما بالطب والفلسفة والفلك ! وقد تولى الحكم سنة كذا ومات سنة كذا وهو من ملوك الأسرة الفلانية !!!

ما الحكمة ؟ وما الفلسفة ؟ وما الفلك ؟ ماذا تعنى هـذه الألفاظ عند التلميذ الصغير ؟ وما الصورة التى استطاع أن يكونها لنفسه عن " امنحوتب " ؟ إنه لا يستطيع أن يفهم شيئا من مدلولات هذه الألفاظ الثلاثة ، وأستاذه مهما بلغ من المهارة لا يستطيع أن يفهمه إياها ، فماذا يضير البرامج لو استغنت فى هذه المرحلة عن هذه الألغاز واستبدلت بها قصة لطيفة عن " امنحوتب " هذا أو عن عصره ، فإن لم تجد فليس من الضرورى أن يدرسه التلاميذ الصغار بمثل هذه الطريقة التى لا خير فيها ولا غناء ، بل فيها الضرر كل الضرر ، لأنها تشوش ذهن التلميذ بلا جدال ، وتودع ذاكرته ألفاظا ميتة

لا تربطها صلة بمعلوماته أو قدرته الذهنية . ألفاظا لا يجوز أن تشغل من ذاكرته فراغا أولى به سواها مما يستفيد منه التلميذ .

ومثل هذا فى التعنت ما يكلفه طلبة المدارس الثانوية من حفظ فقرات مبتسرة عن الشعراء والكتاب يقال فيها : كان رائع الأسلوب جيد المعانى رصين العبارة جزل التراكيب الى آخر هذه الأوصاف العامة التى لا تدل على شىء بذاته ، و إن دلت على شىء فليس هؤلاء الطلاب هم الذين يدركونه ، لأن محصولهم من الاطلاع محدود ، وتجاربهم الأدبية والوجدانية فى طور التكوين ، فهم لا يدركون ما معنى : روعة الأسلوب ، ولا جزالة التراكيب ولا جودة المعانى ولا رصانة العبارة ؛ ولو أدركوا هذا ما كانوا فى حاجة الى من يدلهم عليه ، ولكان حسبنا أن نضع أساليب هؤلاء الكتاب والشعراء بين أيديهم وندعهم يحكمون عليها مستقلين .

ثم يتفلسف البرنامج فيكلف طلبة المدارس الثانوية أن يجتازوا مراحل النشأة الأدبية جميعا فينقلبوا نقادا إذ يكلفهم دراسة " الأساليب الجيدة والأساليب الرديئة " و يضع بين أيديهم لأداء هذه المهمة ميزانا ماثما لا يستطيعون ضبطه فى سن التكوين . إذ يعرف لهم " الأسلوب الجيد " بأنه الأسلوب الذى يتوافر فيه سمو المعنى وحسن العبارة وجودة التركيب وجزالة الألفاظ . و يعرف لهم الأسلوب الردىء بأنه الذى يتوافر فيه انحطاط المعنى وقبح العبارة وتفكك التراكيب وابتذال الألفاظ ... الخ

فما معنى هذا ؟ إن التلميذ الذى يدرك معنى هذه التعاريف لايحتاج لهذه التعاريف، وهو لا يدركه إلا فى مرحلة متأخرة جدا من مراحل النشأة الأدبية ، فالناقد أديب متذوق يعرف أسباب استحسانه واستقباحه ثم يستطيع تصويرها والتعبير عنها وهذه هى المرحلة التى نطالب طلبة المدارس الثانوية بالوصول إليها .

أما فى التاريخ العام فنحن نكلف هؤلاء الطلاب تعليل الأحداث التاريخية ، أى نطالبهم بمهمة المؤرخ ، وهى مرحلة تالية لمرحلة الاستيعاب التاريخى ، فقبل الحوادث وتعليلها آخر ما يصل إليه المؤرخ الكبير الناضج ، وطلابنا الصغار مطالبون أن يكون كل منهم هو هذا المؤرخ الكبير .

علة هذا كله كامنة فى البرنامج الاستعراضى الذى تسير عليه المدارس فى هاتين المادتين وفى سواهما من مواد الدراسة ، وهو برنامج يؤدى بعقلية التلاميذ إلى أن تكون عقلية استعراضية فى كل شىء تعنى بالكثرة والسرعة ولا تقف للتعمق والتحليل ، ولا تصبر على الاستيعاب والاستنباط ومعرفة الخصائص والميزات .

وينشأ عن هذا عيب فى الشخصية ، وهى ضمور ملكة النقد لأنها لم تغذ تغذية كافية بالمادة الخاصة التى تنضجها على مهل وتكونها تكوينا طبيعيا صحيحا ، وإذا ضمرت ملكة النقد استقبل الانسان الحياة وكأنه فى ميدان ابتعراض لا رأى له فيما يعرض ولا فكرة له فيما يواجه .

والمخلص الوحيد من هذا كله — بالقياس إلى المادتين اللتين اخترناهما — أن تقتصر مرحلتا التعليم الابتدائى والثانوى على القصص والسير ودراسة الشخصيات فى التاريخ العام وأن تقتصر كذلك على دراسة الشخصيات فى تاريخ الأدب ، ودراسة النماذج الجيدة فى المادة الأدبية مع توجيه الطلاب إلى ما فى كل شخصية من الخصائص العامة التى يمكن تتبعها فى كل إنتاج هذه الشخصية ، ولفت أنظارهم كذلك إلى مواضع الجودة فيما يدرسونه من النصوص الأدبية حتى تنضج أذواقهم وتنمو فيهم ملكة النقد رويدا رويدا .

وأن يحذف من برنامج كل مرحلة ما لا تهضمه عقليات التلاميذ وما لا تؤهلهم لفهمه سنهم وتجاربهم ومعلوماتهم السابقة ، كما فى الأمثلة التى تقدمت فى التاريخ وفى الأدب على السواء .

وليس الغرض أن نحشو البرنامج بكل ما هو مفيد فى ذاته ، ولكن بكل ما يستطيع التلميذ إدراكه وهضمه والانتفاع به . فقد يبدو لى أن العقلية التعليمية عندنا مغرمة بالنفائس ! وكلما وجدت مادة نفيسة أو جزءا من مادة نفيسة حرصت على إيداعه كتب التلاميذ و برامجهم ولو لم تتهيأ له نفوسهم وعقولهم ، ومن هنا هذه التخمة التى أصيبت بها البرامج فى السنوات الأخيرة .

* * *

وعلى ذكر تلك التخمة أقرر أن مواد البرنامج — ولا سيما فى الثانوى — كثيرة ضخمة لا أمل فى فهمها وهضمها فى خلال سنوات الدراسة ، ولا بد للطلاب أن يحفظوا ويستذكروا ليؤدوا الامتحان ، ثم يلقوا ما حفظوه بعد ذلك فى سلة النسيان !

وحقيقة أن المعلومات والمعارف فى هذا العصر قد تضخمت وتشعبت وأصبح الكفاح فى الحياة يحتم على كل فرد أن يصيب قسطا مناسبا من كل منها ، ولكن الطاقة الانسانية محدودة ، فيحسن أن توضع هذه الحقيقة الطبيعية فى كفة الميزان عند تحقيق تلك الرغبة فى برامج التعليم حتى يتحقق التوازن بين المقدرة البشرية المحدودة والمعارف الانسانية غير المحدودة .

والمدرسة الانجليزية لا تزال محتفظة بهذا التوازن ، ولا يزال برنامج الرياضة البدنية يحتل قسما كبيرا من التربية الشخصية ، ومع ذلك فلم يقل أحد إن التعليم الانجلوسكسونى أقل

مستوى من التعليم اللاتينى الذى يعنى بالإكثار من المعارف النظرية وبالاكتظاظ المناهج على نحو يقرب من برامجنا المكظوظة .

وهناك طريقة للاحتيال على هـذا الموقف وتحقيق أقصى ما يستطاع من دراسة مواد الثقافة العامة . وهى أن توزع المواد على سنوات الدراسة بحيث لا تدرس جميع المواد فى جميع السنوات .

ومعنى هذا أن تدرس بعض المواد فى بعض السنوات ثم تنتهى دراستها ويستعاض عنها بطائفة أخرى من المواد فى السنوات الأخرى على نظام متداخل يحتفظ لكل سنة بعدد محدود من المواد .

فمثلا تدرس الجغرافيا بين السنة الأولى والسنة الثالثة ويدرس التاريخ ابتداء من السنة الثانية الى الرابعة ، ويدرس الحساب فى الأولى والثانية ، وتدرس التربية الوطنية بين الثالثة والخامسة ، وهـذا على سبيل المثال فتكون النتيجة أن تدرس جميع المواد فى مجموع السنوات ولكنها لا تدرس جميعا فى كل السنوات .

وإذا غيرنا العقلية التعليمية الاستعراضية واستبدلنا بها عقلية التعمق والاستنباط كان هذا مؤهلا للعقلية الجامعية فى المراحل النهائية ، ولم نصطدم بما نصطدم به الآن من الانتقال المفاجىء الذى يحسه الطلاب بين المرحلتين الأوليين والمرحلة الأخيرة من انقلاب فى جميع وسائل الدراسة والتحصيل .

ولقد كان هذا التفاوت بين طرق الدراسة المدرسية وطرق الدراسة الجامعية بلا تمهيد — ولو خفيف — أثر سيء فى مستوى الدراسات الجامعية ، إذ أن الكليات تقضى فترة طويلة فى تهيئة عقلية الطلاب للطرق الجديدة ، وقد تفلح فى هـذا وقد تخفق . بل هى تخفق غالبا وتنقلب الدراسة الجامعية الى دراسة مدرسية يعتمد فيها الطلبة على تقييد ما يسمعون من نصوص المحاضرات وعلى حفظها واستذكارها بألفاظها كما كانوا يفعلون فى المدرسة الابتدائية والمدرسة الثانوية .

وليس هـذا إلا فشلا للعقلية الجامعية المفروض فيها أنها عقلية البحث الحر والاطلاع الشخصى والتكوين الذاتى ، تمهيدا للابتكار والاختراع .

الأدب فى خدمة المجتمع

مثال من الأدب الأمريكى

للاستاذ س . م

" إن الأمريكيين يكرهون الانغماس فى القراءة كما يكرهون الانغماس فى أى شىء آخر"

وهذا كلام حسن جدير بنا أن نستمع إليه . لأنه يجب أن تكون لكل قارئ غاية تمثل فى برنامج للدراسة والنمو والرقى . وكذلك يجب أن ندرك أن الثقافة ليست زينة وزخرفا . وإنما هى جهاد وكفاح يقوم بهما الفرد لكى يرفع نفسه من البيئة الاقليمية والنظر القروى إلى البيئة العالمية والنظر البشرى ، أو يخرج بها من ضيق التخصص الذى تقتضيه الحرفة أو الفن الخاص إلى سعة التعميم الذى يشعرنا بالاندماج فى نشاط وجهد عالميين فتكبر بذلك شخصيتنا وتتسع آفاقنا .

فالأمريكيون يكرهون القارئ الذى يلهو بالقراءة ويجعل هذا اللهو يستغرق معظم وقته ، كما يكرهون القراءة جزافا للتسلية أو لقتل الوقت ، وهم أكثر الأمم تقديرا وتكبيرا لقيمة الوقت ، والأدب والثقافة عندهم يجب أن يكونا فى خدمة المجتمع ، وذلك الأديب الذى يعيش فى " البرج العاجى "هو أبعد الأخيلة عن أذهانهم ، كما أن تلك الحركات التى شاعت فى أوروبا فى وقت ما مثل " الفن للفن " أو أن الفن أو الأدب يجب ألا تكون له غاية اجتماعية — هذه الحركات لم تعرفها أمريكا ، فالأدب عند الأدباء الأمريكيين يتفاعل مع المجتمع ، وهو ليس أدب الفراغ ، وإنما هو أدب الكفاح ، وهو أبعد ما يكون من المخدرات الذهنية .

والواقع أن السنين العشرين الماضية قد جعلت الحركات الأدبية السابقة بشأن مهمة الأدب سواء فى أوربا أو أمريكا لغوا لا قيمة له . فإن الأديب العصرى قد ألفى نفسه فى عاصفة من القلق الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى انتهى بما يعانيه العالم فى الوقت الحاضر من كوارث قد لا نكون قد عبرنا سوى القليل منها . ولا يزال الباقى فى طى المستقبل القريب . ووجد نفسه لهذا السبب مكلفا بأن يكون فى معسكر التطور الجديد يدعو للسلام والعدالة الاقتصادية والإخاء البشرى .

وذلك الأديب الذى يقول فى عصرنا بأن الأدب ليس له شأن بالرقى الاجتماعى إنما هو أديب عبث يعمل فى خوف أوفيما يسميه "البرج العاجى" : والعلم فى كوارثه المدلهمة وغنى

وعند ما نتحدث عن الأدب أو الثقافة الأمريكية يجب ألا نهمل الصحافة — جرائد ومجلات — من اعتبارنا ، لأنها فى أمريكا من أعظم وسائل الثقافة . وقد حدثت حادثة قبل سنوات دلت على مقدار ما تقوم به الجرائد اليومية من الخدمة الثقافية للجمهور ، فإن أحد الناقدين ذكر إحدى الجرائد بأنها قد أفسحت صفحاتها للإعلانات فاقتضبت بذلك المكان الخاص بالمقالات الثقافية والأدبية والعلمية . فردت عليه هذه الجريدة ردا عمليا بأن عمدت إلى عدد من أعدادها التى تناولها النقد وجمعت ما فيه من آداب وعلوم وأخرجتها مجلدا . فخرج كتابا حويا للفنون والآداب والقصص والبحوث الاجتماعية والعلمية .

هذا عدد واحد من جريدة يومية ، ولم يكن مختارا ولا مهيئا ، بل هو العدد أو أحد الأعداد التى تناولها نقد الكاتب . وجميع الجرائد الأمريكية تسير على هذا الغرار من العناية بالثقافة العامة . وقد نظن أن هذا يؤثر فى تأليف الكتب ويؤخرها بالمزاحمة ، ولكن الواقع الذى أثبته الاختبار أن المزاحمة فى الثقافة تزيد الاستهلاك ولا تنقصه .

وقد نبتت جذور الأدب الأمريكى فى أوربا أو فى بريطانيا خاصة . والآداب الانجليزية هى لهذا السبب تراث يتغذى به الذهن الأمريكى . ولكن الأدب الأمريكى عاش منفصلا نحو ٣٠٠ سنة كان فى بدايتها ضعيفا ضئيلا ثم قوى بعد الاستقلال وعاش مدة القرن التاسع عشر وهو ينظر الى الأدب الانجليزى نظرة الأخ القاصر يحاول التملص من أخيه الأكبر الرشيد ، حتى إذا كان هذا القرن العشرين رأينا الاستقلال تاما وأمارات الشباب والقوة بادية بل بارزة .

ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الأدب الأمريكى حتى حين بدايته ضعيفا فى تلك القرى الصغيرة الناشئة بهجرة الأوربيين اليها كان يتزع نزعات خاصة عليها طابع البيئة ومزاج المهاجرين . فان هؤلاء تركوا أوربا وهى مفتتة بالحروب السياسية والدينية ، فكان أول همهم أن يجعلوا التسامح المذهبى عاما بل قاعدة لحياتهم الجديدة . ثم هم وجدوا أرضا بكرا ولكنها كانت تتجهم لهم فى غاباتها ووعورة جبالها وأنهارها ووحشية سكانها الأصليين ، فتكون لهم هذه الظروف مزاج جديد هو التفاؤل والكفاح معا .

وأنشئت أول مطبعة فى الولايات المتحدة سنة ١٦٤٠ فكان على مؤلفاتها هذا الطابع أو هذه الطوابع : التسامح والتفاؤل والاقتحام . وهذه الصفحات لا تزال الميزات الغالبة للأدب الأمريكى حتى يومنا .

ولكن الكفاح لطبيعة بل الكفاح للأمريديين — سكان أمريكا الأصليين — كان يستغرق كل جهد وكان المهاجرون فى شغل عن الثقافة ببناء بيت أو إنشاء عزبة أو مقاتلة عصابة . ولكن التنبه السياسى الذى عم السكان فى جهادهم للاستقلال منذ سنة ١٧٧٠ جعل

الأفكار تغلى بالنظريات عن الحكومة والمجتمع والديمقراطية ، فاصطدمت الآراء وعبئت الأذهان للدفاع عن قضية الاستقلال. والعادة أننا حين ندافع عن قضية عادلة نجد أننا نحن نتنفع بهذا الدفاع بمثل ما تنتفع بنا هذه القضية ، لأننا ندرس المبادئ ونصفى العناصر ونبين وجوه الحق من جوانب الطغيان . ولذلك يزداد التحرك الثقافى فى أوقات النهضات. وتبدأ النهضة إقليمية فتنتهى بقوة هذا التحرك الى أن تكون نهضة إنسانية ، وهذا ما نجده فى حركة الاستقلال الأمريكية سنة ١٧٧٦ ، فانه يبرز لنا كاتبان أحدهما توماس بين الذى يدعو الى الديمقراطية والحرية والجمهورية ، والاخر بنيامين فرانكلين الذى يمكن أن نصفه بأنه أول أمريكى له الميزات الأمريكية ، فانه كان عاملا فى مطبعة ، ثم صحفيا ، ثم مؤلفا ، ثم سياسيا يشترك فى صوغ " اعلان الاستقلال " للأمة الأمريكية وفى أثناء ذلك يقوم بتجارب علمية مثمرة، وبتأليف كتب فى الأدب منها ترجمته التى لا تزال تقرأ بلذة وفائدة الى اليوم .

ألسنا نرى فى هذه الحياة شبها من اديسون أو فورد ؟ذلك الطراز من الرجل الأمريكى الذى ينشأ عاملا فقيرا يمارس أحط الحرف ، ثم يجد ذكاؤه فى مرتع الحرية والمساواة والإخاء الذى يعيش فيه مايخصبه ويغنيه فيزكو ويزدهر حتى يصير قائدا من قادة الأمة فى السياسة والعلم والاختراع ؟

وفيما بين سنة ١٨٠٠ و ١٨٥٠ أى النصف الأول من القرن التاسع عشر لانكاد نجد أديبا يقرنه . ولكن الأفكار كانت تختمر لانقلاب جديد ، ففى سنة ١٨٥٢ نجد كتابا تخرجه السيدة هاريت بيتشرستو باسم " كوخ العم توم " فيثير عاصفة فى أنحاء الولايات المتحدة لأنه يصف مايكابده العبيد السود من القسوة والفظاظة واستبداد سادتهم ، ويكون هذا الكتاب من الأسباب المعجلة للحرب الأهلية بعد نحو عشر سنوات لتحرير الزنوج ، فهنا نرى كتابا فى الأدب أى قصة شعبية قد أدت إلى حركة اجتماعية بارزة . كما رأينا من قبل كتابا لتوماس بين الذى ذكرت هنا بعنوان " التعقل " يؤدى سنة ١٧٧٦ إلى تحريك الشعب إلى الثورة وطلب الاستقلال كما اعترف بذلك واشنطون نفسه زعيم الاستقلال .

فنحن إزاء حركتين بارزتين فى تاريخ الولايات المتحدة كان للكتاب أكبر الأثر فى إيجادهما، هما حركة الاستقلال سنة ١٧٧٦ وحركة التحرير سنة ١٨٦٠، وهذا هو ما نقصد بأن الأدب الأمريكى كان على الدوام يتفاعل مع المجتمع ويخدم رقيه ونموه .

وفيما بين ١٨٥٠ و ١٩٠٠ نجد كوكبة من الكتاب الذين لا تزال مؤلفاتهم تعد مصابيح للعصر الحاضر، وأشهرهم بالطبع هو أمرسون الذى يقرأ فى انجلترا كما يقرأ فى الولايات المتحدة ، والواقع أن هذا الكاتب الذى أحال المقالة قطعة فنية لا تقل — بل ربما تزيد —

فى قيمتها على القصة قد عاش فى أمريكا بين مجتمع أمريكى . ولكن جوه الذهنى كان انجليزيا ، وكثيرا مانحس ونحن نقرأه أنه ينزع إلى كارليل ، وهو وإن لم يعرف هوس كارليل فى عبادة الأبطال مثلا فانه قد اقترب منه فى كتابه " ممثلين " أى الذين يمثلون فكرة بشرية وهم عنده أفلاطون ، وسويدنبورج ، ومونتانى ، وشكسبير ، ونابليون ، وجيته ، وهو بهذا الاختيار يدل على أنه كان بعيدا عن الروح الامريكى الديمقراطى قريبا من الروح الأوربى الذى يكبر الزعيم .

ونجد كاتبا آخر توفى سنة ١٨٦٢ يدعى ثورو ، وهو تولستوى أمريكا . ترك المدينة وعاش فى الغابة يقنع بالأعشاب والقليل من الأجر الذى يحصل عليه بعمله اليدوى فى المزارع المجاورة لكى يشترى الملابس أو سائر الضروريات . وهو يدعو الدعوة الحارة إلى الاقبال على الطبيعة والكف عن اقتناء الزخارف المدنية التى تقيد حريتنا بدلا من أن توسعها. وليس شك فى أن الحضارة الامريكية كانت فى وقته تحتاج — بل هى تحتاج الآن أكثر مما كانت فى عصره — إلى مثل هذه الدعوة ، لأننا ونحن نتأمل الكفاح الاقتصادى وتجيل النجاح السائد للمجتمع الأمريكى ووفرة الآلات وتكاليفها لا نتمالك من أن نتساءل : هل الحضارة الأمريكية فى خدمة الأمريكيين أم هم الأمريكيون الذين يخدمون الحضارة ؟ وهنا نذكر كلمة هوتورن أحد كتابهم : لقد أصبح الناس آلات آلاتهم .

وشبيه بثورو كاتب آخر يدعى والت هويتمان . فانه ينزع نزعته ويؤلف كتابا بعنوان " أوراق العشب " ويحذر الامريكيين من المادة ويسك عبارة " العصيان المدنى " التى أخذها عنه غاندى ، وهو كبير الآمال فى الديمقراطية الأمريكية التى يعتقد أنها ستسمو وتتحرر من التقاليد والقواعد الموروثة وتخط لنفسها منهجا جديدا فى الحياة تتكون منه الشخصية الإنسانية العالية .

ولكن هؤلاء الأدباء الذين ذكرنا ليست لهم تلك الشهرة العالمية التى لعظماء المؤلفين . فانهم — باستثناء امرسون — كانوا يعيشون فى جو أمريكى محض . على أننا نجد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أديبا أمريكيا أوربى الشهرة يكتب ويسير بالسفارة الثقافية بين القارتين هو هنرى جيمس . وكان يعنى كثيرا بايضاح الفرق بين حضارة أوربا العجوز وحضارة أمريكا الناهضة ، وكيف يؤثر هذا الفرق فى تكوين الشخصية . ومع أن هنرى جيمس قضى معظم حياته فى انجلترا حيث مات سنة ١٩١٦ فإنه بقى فى لبابه أمريكيا صريحا ، وهو شقيق وليم جيمس زعيم الفلسفة والسيكلوجية فى الولايات المتحدة . وقد صاغ هذان الشقيقان القالب الثقافى الجديد فى أمريكا .

ووحدة اللغة والتقاليد وتراث الثقافة بين انجلترا والولايات المتحدة كل هذه تجعل الأديب الأمريكى ينزع إلى انجلترا ويؤثر خصوبتها التى كسبتها بتاريخها على مدى الأجيال

ويقربها — روحيا وماديا — من أوربا . ولذلك نجد أن أميرسون يكتب فى أمريكا وهو يحس أن جذوره فى انجلترا . ورأينا هنرى جيمس يعيش فى قرية قريبة من لندن . ونرى فى عصرنا الشاعر الأمريكى ت. س. اليوت يعيش فى لندن . وينقل الدعوة البشرية الأمريكية اليها .

وفى الولايات المتحدة الآن ثلاثة من نجوم الأدب هم درايزر . وسنكلير لويس. وايتون سنكلير . وثلاثتهم منغمسون فى المجتمع ، كفاحهم الثقافى هو فى الواقع كفاح اجتماعى . وآخرهم — ابتون سنكلير — هو داعية سافر للاشتراكية تغلب الدعاية فيه على الفن . وهو يرى أن الأدب لايزيد على أن يكون دعاية . وهذا يدل على رغبته الحارة فى تغيير المجتمع . أما الاثنان الآخران فعنايتهما بالفن كبيرة ومؤلفاتهما أقرب إلى التراجم الشخصية والسير منها إلى القصص ، وهما يعيبان على المجتمع الأمريكى سطحيته فى الثقافة وتعلقه بالبهارج فى الحضارة .

ونستطيع أن نذكر كثيرين من الأدباء الأمريكيين ، ولكن ماقلنا فى أول هذا المقال وهو أن الأديب الأمريكى لايعرف البرج العاجى ينطبق عليهم جميعا لأنهم يرون أن الفن ليس له غاية أخرى سوى خدمة المجتمع ، وقد تكون هذه الخدمة بإظهار عيوبه و بعثه على التغير وهذه هى العبرة التى قصدنا اليها .

س . م

أحاديثنا العامة

مرآة عقليتنا ورقينا الاجتماعى

عند ما يلق الإنسان منا باله إلى الأحاديث العامة فى الأماكن المشتركة وفى مراكب الترام والسيارات والقطارات تستلفت نظره عدة ظواهر تستدعى الانتقاد وتسوء دلالتها على مستوانا النفسى والفكرى والاجتماعى .

وأول ما يستلفت النظر فى هذه الأحاديث أنها تتم بصوت مرتفع مع تقارب المتحادثين كأن المقصود من هذا الارتفاع هو التغطية على أصوات المتحدثين الآخرين . وقد تكون فى موضوعات عائلية أو خصوصية لا شأن للآخرين بها ، ومع ذلك يعلمها كل الجالسين أو الركاب ويلقون انتباههم إليها على الرغم منهم ؛ لأن طبقة الأصوات عالية جدا والإشارات والحركات التى تتبعها مما يلفت النظر .

وبعض الناس لا تلذ لهم المناقشات السياسية أو الحزبية أو التعليقات المختلفة على شؤون الحرب وشؤون الاقتصاد إلا فى هذه الأماكن العامة وفى عربات الترام والمركبات العمومية والقطارات ؛ وذلك حق من حقوقهم لو كانت المناقشات هادئة لا تتعدى المتحدثين ؛ ولكنها كثيرا ما تتحول إلى ضجة وضوضاء ، بل إلى تهم وشتائم عند اختلاف الآراء ، يجبر الآخرون على سماعها ومتابعتها وهى لا تعنيهم فى قليل ولا كثير .

ومما يلفت النظر كذلك فى الأحاديث العامة تفاهتها وانحصارها فى موضوعات دارجة فعظمها لا يخرج عن الطعام واللباس والزيارات الخاصة ؛ وكثيرا ما يكون القصد منها هو الإعلان — ولا سيما حين تكون المتحدثة امرأة — ومع هذا فإن جميع الحاضرين مجبرون على أن يعرفوا أن هـذا السيد يحب " الملوخيا " وقد أمرهم فى البيت قبل أن يخرج بأن يطبخوها وأنه سيتمتع اليوم بتناولها ! وهم مجبرون على أن يسمعوا أن هذه السيدة اشترت " فستانا " جديدا من عند " شيكوريل " (ولا بد أن تذكر اسم المحل) وأنه " شيك " وأن " ست فلانة " بنت " فلان بك " معجبة به أشد الإعجاب ، أما " ست فلانة " بنت " فلان باشا " فهى مغتاظة منه تريد أن تشترى مثله بأى شكل كان !

وهذا كله قد يكون محتملا بالقياس إلى نوع آخر من الحديث بين بعض الشبان وبعض ، بل بين بعض الفتيات وبعضهن . تذكر فيه أخبار السهرات الداعرة والليالى الحمراء ، وتذكر فيه أسماء البنات والصديقات ؛ فإذا كان الحديث بين سيدات أو فتيات ذكرت النعوت

المخجلة ملحقة ببعض الأسماء النسوية ، وفيهن من هن من أسر معروفة . والحاضرون جميعا مضطرون لسماع هذه الفضائح ، وسماع الألفاظ البذيئة ، وفيهم الرجل الكريم والمرأة العفيفة والشاب المهذب والفتاة الطاهرة والأطفال الأبرياء .

* * *

ولا أريد أن أمضى فى تعديد الظواهر السيئة لأحاديثنا العامة ، فكل من يلق باله إليها فى أى مكان يدركها بسهولة . ولكنى أريد أن أبحث عن العلة فيها وعن وسائل علاجها إن أمكن وترجع هذه الحالة إلى عدة أمور .

أولا : إن البيت المصرى لم يعمر بعد بالثقافة لقلة الأمهات المتعلمات تعليما يؤهلهن لأداء وظيفتهن الخطيرة . والحديث فن لا بد له من الثقافة المناسبة والشخصية البارزة ؛ ولا بد له من المرانة كذلك . والسيدة المثقفة هى التى تملك هذه المميزات ، وهى التى تستطيع أن تطبع المنزل بطابعها ، وأن تدرب أطفالها على الحديث الهادئ المتزن المثقف .

وفى البيت المصرى عيب آخر لعل منشأه هو العيب الأول ، وهو أنه ليس بيتا بالمعنى الذى تؤديه لفظة " هوم " الانجليزية ، أى أنه محروم من الجو الروحى والعائلى الذى يمتاز به البيت الأوربى ، فقصارى ما يبلغه هذا البيت أن يكون مطعما جيدا أو فندقا مرتبا . أما الصلات العائلية بين الزوج والزوجة و بينهما و بين الأبناء ، والسمر اللطيف بعد العشاء والمشاركة الوجدانية بين الجميع ، والمناقشات والتعليقات العامة . فكلها أمور مفقودة فى البيت المصرى .

ولهذا لا يعتاد الأطفال "فن الحديث" فيشبون ويكبرون وهم على جهل به ، ومن هنا تكون تلك الظواهر فى أحاديثنا العامة بين الشبان والرجال و بين الفتيات والسيدات .

وثانيا : خلو مجتمعاتنا من "سيدات المجالس" فهن عنصر مفقود فى مصر إلا فى النادر القليل ؛ وقد حالت تقاليدنا الاجتماعية دون وجود هذا العنصر الذى يعد نموذجا طيبا ينقل عنه كثير من السيدات والفتيات الناشئات . وكان من الممكن تعويض فقدانه لو أن مجتمعاتنا النسوية عالية الثقافة ، فالمرأة المثقفة مضطرة بحكم ثقافتها أن تتناول مسائل أرقى مما تتناوله أحاديث سيداتنا الآن ، وأن تدير الحديث بطريقة مهذبة الصوت والإشارة ، وللسيدة تأثير كبير فى بيئتها ، فلعل انتشار تعليم المرأة يهذب هذا الوضع المسىء للمجتمع العام .

وثالثا : عزلة المدرسة وانحسارها عن المجتمع ، واقتصارها على التعليم دون التربية ، فقلما تعنى المدرسة عندنا بتدريب التلميذ والتلميذة على أدب الحديث ، وعلى إدارة المناقشة . ثم هى قلما تعنى بالخروج بتلاميذها عن الجو المدرسى إلى جو المجتمع وتناول المسائل العامة

وجعلها موضع دراسة أو حديث . بل لقد يعاقب المدرس الذى يحاول هـذه المحاولة بحجة تدخله فى الشئون العامة ، أو بحجة اضاعة الوقت على التلاميذ .

ورابعا : تفاهة ما يشغلنا من الهموم،وعدم نمو ثقافتنا بالمطالعة أو بتتبع المسائل العامة ولذلك تدور أحاديث العامة على مسائل محدودة لا تتعدى المطالب الفردية أو الطائفية : الفردية كالطعام والشراب واللباس والطائفية كالعلاوات والترقيات " والروتين " اليومى للموظف أو العامل .

ومن حق كل إنسان أن يتناول هذه المسائل ، ولكن ليس من حقه أن يشغل بهـا الآخرين ، فضلا على أنه من العيب أن تكون هذه كل همـــومه فى الحياة ، وألا تخرج أحاديثه عنها، فاذا خرجت إلى جدل سياسى أو حزبى نقلب الجدل الى مهاترة وضجة يتأذى بهـا الآخرون .

⁂

وعلاج هذه الحال يتم فى عدة مراحل :

أولاها : وجود الأم المتعلمة المستنيرة على رأس الأسرة وعنايتها بتحويل المنزل الى بيت يجتذب الزوج ويحمـله على المشاركة فى خلق الجو العائلى به ، وتخصيص بعض الأوقات للسمر والمنـاقشة والتعليق بحضور الأبناء والبنات ، وتناول موضوعات علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية وعائلية فى هذه الأحاديث ، وافساح المجال لكل طفل فى البيت ليشترك فى هذه الأحاديث ، فتصحح له أخطاؤه اللفظية والفـكرية والصوتية تارة بالقدوة وتارة بالإرشاد .

وثانيتها : عناية المدرسة بتربية التلاميذ بدل الاقتصار على تعليمهم ، ومن أخص خصائص التربية تنمية الشخصية وإبرازها فى حسن التصرف وحسن الحديث ، ومن أهم الوسائل المؤدية إلى المرانة فى هـذا الجانب تخصيص بعض الوقت للاجتماعات الحرة بين التلاميذ والأساتذة والنظار بحيث ترتفع الكلفة وتزول الحواجز وتخف القيود ، ويتاح للجميع أن يديروا الأحاديث بعيـدا عن المسائل الدراسية التى تدرس فى الفصول وتبلغ هذه الاجتماعات درجة الكمال لو أتيح لأولياء الأمور أن يحضروها وأن يشتركوا فى مناقشاتها وأن يستفيدوا منها ويفيدوا أبناءهم كذلك .

وثالثتها : بث روح الثقافة وحب الاطلاع فى نفوس الأطفال والكبار، فالقراءة تجدد النفس والفكر ، وترفع الهموم الى مرتبة عالية بعيدة عن ضرورات الحياة اليومية التافهة . والأحاديث دائمـا متنفس لهذه الهموم ، فسترتفع بارتفاعها ، فتبرأ من هذه التفاهة المخجلة

حول الطعام واللباس والسهرات الخاصة والأسرار الشخصية والوشايات والتشنيعات ، ولا سيما فى الاوساط النسائية التى تقضى الساعات فى مثل هذه التفاهات .

ومما يؤسف له أن المدرسة الأجنبية تفوق المدرسة المصرية فى هذا كله — ولا سيما مدارس البنات — فالحياة الاجتماعية هناك موفورة والعناية بها واضحة ، والآداب الاجتماعية تنال قسطا كبيرا من الإرشاد النظرى والتدريب العملى . وليس بالقليل ما تعتاده الطفلة منذ اليوم الأول فى المدرسة الأجنبية من تحية الوالدين فى الصباح عند مغادرة البيت وتحيتهما عند عودتها ، وكذلك تصنع مع مدرستها وزميلاتها فى ابتسامة رقيقة و إيماءة ظريفة ، تصبحان فيما بعد من سمات هذه الطفلة حين تصير شابة وسيدة .

وذلك عدا الحفلات العائلية والأحاديث الشخصية ، وعقد الصلة الروحية بين التلميذات والتلاميذ و بين المدرسات والمدرسين ، والانتفاع بهذه الصلة فى تكوين الشخصية وتهذيب العادات والأفكار ، و إصلاح الحركات والإشارات .

ولا مجال للموازنة بين البيت المصرى والبيت الأوربى من هذه الناحية . ولكن لا داعى إلى اليأس فالأم المتعلمة الراقية كفيلة بإحداث التوازن ، وتحقيق ما نرجوه فى هذا الاتجاه غير أنه ينبغى أن تكون مدارس البنات معامل تصهر شخصياتهن وتردها شخصيات اجتماعية كاملة تعلم كل واجباتها النسوية وكل وظائفها التربيية ، التى تنشىء عليها الجيل ، وتخلق بها المجتمع خلقة جديدة ، سليمة من العيوب والآفات .

طبعت بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ١٥ من ربيع الأول سنة ١٣٦١
(أول أبريل سنة ١٩٤٢) م
مدير المطبعة الأميرية
محمد بكرى